تاريخ طرابلس الغرب

المسمى التذكار

فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار

وهو شرح لأبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي

على قصيدة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الطرابلسي

نقل عن نسخة في الخزانة التيمورية

عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه

الطاهر احمد الزاوي

الطرابلسي

القاهرة سنة ١٣٤٩

يطلب من

المطبعة السلفية - ومكتبتها

صاحباهما: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

تاريخ طرابلس الغرب

المسمى التذكار

فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار

وهو شرح لأبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي

على قصيدة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري الطرابلسي

نقل عن نسخة في الخزانة التيمورية

عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه

الطاهر أحمد الزاوي

الطرابلسي

القاهرة سنة ١٣٤٩

يطلب من

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بتاريخ ابن غلبون

هو تأليف الاستاذ العلامة أبي عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي

جمع فيه المؤلف ما يتعلق بطرابلس من أخبار وما تعاقبت عليها من دول اسلامية وغيرها ، وما وقع فيها من ثورات وحروب منذ الفتح الاسلامي الى أواسط حكم احمد باشا القره مانلي

وهو شرح لقصيدة الاستاذ الفاضل الأديب الشيخ احمد بن عبد الدائم الانصاري الطرابلسي التي أنشاها مدحا لطرابلس ورداً على من ذمها

وقد مر على هذا الكتاب مايقارب مائتي سنة وهو في مهملات الكتب لايعرفه الا من له دراية بأسماء الكتب والمشتغلين بها . وقد اتيحت لى فرصة التعرف بالاستاذ الجليل العلامة صاحب السعادة احمد تيمور باشا سنة ١٣٤٨ وكان ممن له عناية تامة بالعلم وجمع الكتب الاسلامية . فسألته ـ رحمه الله ـ هل يوجد عندكم كتاب تاريخ لطرابلس الغرب ؟ فأجابني ـ على الفور ـ بأنه يوجد لديه « تاريخ ابن غلبون » فاستعرته منه على أن أطلع عليه ، ثم بدا لى أن استنسخه فاستأذنته فأذن لى ، جزاه الله عن العلم والمسلمين خيراً

وكانت نسخته مأخوذة بالتصوير الشمسي (الفوتوغرافية) من نسخة في خزانة باريز سنة ١٣٤٤ . وهي مكتوبة بخط مغربي جميل . ولكنها كثيرة

التحريف ، ولا أدري ان كان هذا من تعاقب أيدي النساخ عليها فمسخوها ، أو أنها مسودة المؤلف وتناولتها الايدي قبل أن تبيض .

ولم نجد نسخة أخرى غير نسخة تيمور باشا نستعين بها على تصحيح كتابنا هذا فاستعنت بتاريخ ابن خلدون وغيره في تصحيح بعض كلمات وتواريخ ، واقتصرت على تغيير بعض الكلمات ، أو تقديمها بعضها على بعض — وهذا قليل جداً ، وزيادة كلمة أو كلمتين مما لا يغير المعنى . وتركت كثيراً من الكلمات كما هي خوفا من الوقوع فيما لم يرده المؤلف . وقد نبهت على أكثر ما أصلحته أو كان غير مفهوم ، ووضعت الزيادة بين هاتين العلامتين [ ] وقد فاتني شيء مما ينبغي التنبيه عليه ، وأرجو أن يكون غير ذي بال ، أو مما يعفو القراء عن مثله

وقد كان الاصل متصلا بعضه ببعض من أوله الى آخره ، فعنونت حوادثه ووضعت فيه فواصل عند انتهاء كل جملة ، وأوائل سطور عند ابتداء الكلام لتمييز المعاني وتقريبها الى ذهن القارىء . وأرجو أن أكون وفقت الى القيام ببعض الواجب بطبع تاريخ ابن غلبون . ليطلع أبناء وطني على ما لسلفهم من الاهتمام بشأن الوطن وتدوين حوادثه ، وليكون باعثاً لهم على الاقتداء بهم في نشاطهم وجدهم . وقد وجدوا في زمن لم يهيأ لهم فيه من أسباب العلم وطلبه ما هيىء لنا اليوم ، ومع ذلك فقد ذهبوا في فنونه كل مذهب وقطعوا فيه شوطا قعدنا نحن دونه رغم ما هُيّىء لنا من الاسباب والوسائل

وقد كان للتاريخ أثره في كل الامم قديماً وحديثاً ، وتبارى في مضماره العلماء وجهابذة الاخبار ، وخصّصوا له الكثير من اوقاتهم حتى صار الوصول فيه الى حدّ مقياسَ الباحث بين الباحثين ، وميزانا توزن به أعمال الرجال في الهيئة الاجتماعية ، ذلك لان التاريخ مرآة الامم ، ترى فيه صورتها على ما كانت

عليه في كل طور من أطوار حياتها

فالامة التي لم يكن لها تاريخ يدون فيه ما لها في بطون الايام من حوادث وما أتته من أعمال في حياتها فهي ميتة الذكر لا يقام لها وزن ، وليس لها بين أمم الارض من قيمة الاما لتلك الفرق الضاربة في مجاهل الارض من بني الانسان

والتاريخ نوع من الدفاع عن الوطن ، فكما أن الانسان يدافع عن وطنه بسيفه وماله فكذلك يدافع عنه بتقييد حوادثه وبيان ما وقع فيه من وقائع تعلي من شأنه وتظهره أمام الناس بمظهر العظمة والكمال . وهذا ما حدا بالاستاذ ابن غلبون الى تأليف كتابه هذا فانه لما رأى العبدري ذم طرابلس في رحلته ورد عليه الاستاذ احمد الانصاري بقصيدة رأى أن يشرح هذه القصيدة ليظهر ما لطرابلس من محاسن وما لها من وقائع تعلي قدرها وترفع شأنها

هذا وأسأل الله أن يوفق من مواطني من يكمل هذا البناء الذي وضع أساسه الاستاذ ابن غلبون ليكون لبلادنا ــ طرابلس الغرب ــ تاريخ كامل يرجع اليه لدى البحث عن فضائلها وما أتته من أعمال مجيدة

ترجمة المؤلف

هو الاستاذ الفاضل العلامة المحقق أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون الطرابلسي المصراتي كان رحمه الله تعالى محباً للعلم مشاركا فيه ، له قدم راسخة في الامر بالمعروف والجهر بالحق ، وله وقفات مشرفة في انكار المنكر بماله وبجاهه . فقد أذن عامل مصراته في زمانه بتقطير الخمر من النخل ، فعارضه الاستاذ في ذلك ووعظه قائلا له : ان هذا لا يسعكم في دين الله ، فأعرض العامل ونأى بجانبه ، فذهب الاستاذ الى ملتزمي بيع الخمر وأعطاهم ما دفعوا من مال وكفوا عن بيعه . ولم يكتف بهذا بل ذهب الى الوالي احمد باشا القره مانلي ورجاه في عدم الاذن ببيع الخمر فقبل رجاءه لما له من المكانة عنده ، وعزل عامل مصراته

وكان ينكر على أرباب الطرق أعمالهم المخالفة وما أحدثوه من تحريف في أسماء الله ويجاهر بذلك وكانت له مناظرة في شأن الطرق مع الشيخ محمد النعاس التاجوري فظهر عليه وألزمه الحجة . ولما سقط في يد الشيخ محمد النعاس التجأ الى طريق الجهل والتعصب وقال «هذه طريقة مشايخي لايسعني تركها كائنة ما كانت» كبرت كلمة تخرج من فيه .

وقد ارتحل الاستاذ ابن غلبون الى الازهر في طلب العلم ، وأخذ عن الاستاذ الشيخ عبدالرءوف البشبيشي ، والاستاذ أبي محمد عبد الله بن يحيي السوسي وغيرهما ورجع الى بلده مصراته سنة ١١٣٣ ولم أطلع على تاريخ ذهابه الى الازهر

وكان يعلم في مصراته التفسير والفقه والحديث وغيرها من العلوم وكان يعظم طلبة العلم ويحترمهم ، وطلب الى احمد باشا اسقاط الضرائب عنهم فأجاب طلبه وأسقطها

ومن الاسف الشديد أننا لم نعثر للمؤلف على ترجمة الا ما استخلصناه أثناء مطالعة تاريخه هذا . ولم يترجم له النائب في تاريخه مع أنه عالة عليه فى النقل عن كتابه هذا وهو أجل قدراً وأعلم من كثير ممن ترجم لهم

وأن جهلنا تاريخ ولادة المؤلف ووفاته ، وشيئاً مما يتعلق بحياته فقد علمنا نسبته الى اسرة ابن غلبون ، تلك الاسرة التى نبتت منبت الرئاسة والفضل وسرى في فروعها العلم ، فاخرجت للناس علماء في مختلف الأزمنة نفع الله بهم الناس ، ودونوا في العلم دواوين تشهد لهم بسعة اطلاعهم في العلم وعلو كعبهم فيه

فقد ذكر ابن خلدون في الكلام على آل سالم ـ وهم بطن من بنى سليم ـ : « ان مواطنهم بلد مصراته ومسلاتة ، ورياستهم في أولاد مرزوق ، وكانت في اوائل المائة الثامنة لغلبون ابن مرزوق ، واستقرت في بنيه ، وهي اليوم لحميد بن سنان بن عثمان بن غلبون »

ولهذه الاسرة ذكر حسن في طرابلس ، وشأن يعرفه لهم ذوو الفضل الذين الذين يقدرون الناس قدرهم . ولا يزال لهذه الاسرة نسل يحفظ ما كان لها من فضل وأدب . وهو الاستاذ الشيخ أحمد بن محمد بن خليل بن محمد بن خليل بن محمد بن خليل غلبون المؤلف ، وقد أراد أن يكون له الفضل في ابراز هذا الاثر الخالد لجده الفاضل ، فما صمم أنى اعتزمت طبعه حتى شجعنى على المضي في هذا العمل وأعاننى على إكماله ، فهو بهذه الهمة قد أبر بجده وأحسن الى أمته ووطنه ، فجزاه الله خيرا

ترجمة الشيخ احمد بن عبد الدائم

الانصاري الطرابلسي

منذ ان اعتزمت طبع هذا الكتاب وأنا أكتب الى أصدقائي بطرابلس ممن لهم صلة بالعلم بشأن البحث عن ترجمة للشيخ أحمد بن عبد الدائم الانصاري، صاحب القصيدة التي شرحها المؤلف وعن ترجمة للاستاذ المؤلف ، فلم أظفر بما يكشف لنا عن حياة المؤلف ويعطينا نسخة تامة لما كان له من أعمال

أما مايتعلق بترجمة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الانصاري فقد كتب الى صديقي الفاضل الاستاذ أحمد بن محمد الفقيه حسن نبذة تتعلق به ننشرها بنصها مع الاكتفاء بها حيث لم يكن لدينا من المعلومات غيرها . قال وفقه الله :

(في دائرة أوقاف القطر الطرابلسي كتاب مخطوط ليس فيه ما يشعر باسمه ، سوى أن مؤلفه وهو « الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الانصاري » ذكر فيه تراجم آبائه وأجداده فهو حري أن يدعى « كتاب الاجداد » وقد فرغ من تأليفه في الرابع والعشرين من المحرم سنة ١٢١٢ . ومن جملة أجداد المؤلف الذين ترجمهم في كتابه هذا الشيخ أحمد بن عبد الدائم الطرابلسي الانصاري ، وهو الجد الاول لام المؤلف ، وقد ترجم له ترجمة أهمل فيها تاريخ ميلاده ووفاته ، فقال :

الفقيه أحمد بن عبد الدائم ، كان يضرب به المثل في ظرفه وفصاحته ، وصلته لاقاربه والفقراء . كان حافظاً ، ذا معرفة بالتواريخ الاسلامية والاخبار الملوكية ، غاية في الذكاء والفطنة والعقل الراجح . ومن الغرائب ما اختص به من الحكمة حيث كان يقول : « لي معرفة بسبعين حكمة وعمري الآن ما ينيف

على الخمسين سنة ولم يسألني أحد من أهالى طرابلس عن واحدة منها ؛ ومن جملتها استخراج الماء من الارض حتى يصعد الى قمتها بغير مشقة . قلت ذلك من بدائع الحكم و نتائج الفكر . ولا شك أن الحكمة صناعة نظرية يستفيد منها الانسان و كذلك يخترعها بقدر مدلولات العقل و مراتبه . و كان له التقدم في حسن الخط ، وقد انفرد فيه بطريقة اخترعها لم يكن أحسن منها قط في أنواع الخطوط المعهودة .

وقد كان شاعراً بليغاً حسن الطريقة في شعره . ومن شعره قصيدة يستنجد فيها بملك القسطنطينية اذ ذاك على الفرنسيس الذين هاجموا طرابلس في سنة ١١٤٠ منها قوله :

يا واحداً مافي البسيطة مثله ... ملك الملوك بتاجه المتكلل
فاسمع لقصة من أتاك بحُرقة ... خذ ثاره من كل خصم مبطل
أو ما يغيظك حال قلعتك التي ... فازت بفتحك في الزمان الأول
يا سيدى فانظر لحالة ضعفنا ... من شيمة الاخيار الا تبتلى
انا لنرجو منك أخذ الثار من ... شعب الفرنسيس اللئيم الارذل (١)

الى آخر القصيدة وهي طويلة جداً .

وله قصيدة جواباً عن سؤال أرسل الى طرابلس من جزيرة جربة (٢) ، وله القصيدة التي أنشأها في مدح طرابلس الغرب راداً بها على المغربي الذي هجاها وقد شرحها شرحاً جليلاً الشيخ الامام أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون رحمه الله تعالى اهكلامه

---

(١) من ضمن القصيدة هذان البيتان :

في يوم عيد المسلمين ونحرهم ... مترقبين بفرصة المدخل
عام اربعين مضت لهجرة احمد ... من بعدما مائة والف كمل

قال الاستاذ احمد الفقيه حسن : ومنها يستنتج ان الشيخ احمد بن عبد الدائم كان من رجال القرن الثاني عشر للهجرة اخذا من قوله المتقدم

(٢) ذكر الاستاذ احمد الفاضل منها عدة ابيات حذفناها للاختصار

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والصلام على سيدنا محمد خير داع الى الهدى وهاد الى الحق وعلى من أرشد أمته ونصر ملته.

أما بعد فهذه مقدمة أقدمها بين يدي تاريخ ابن غلبون ذكرت فيها شيئا عن طرابلس قبل الفتح الاسلامي ، وملخصا عما تداولتها من دول وما مر عليها من أطوار مختلفة من لدن الفتح الاسلامي الى زمن حكم اسرة القرمنلي

طرابلس - ويقال لها « طَرابُلُس » و « طرابُلْس » و « أطْرابُلُس » - مدينة قديمة أزلية كانت تسمى « أوَايات » وهو لفظ يظهر أنه بربري ، وحرفه الرومان الى « أوَا » ومعناه بالاغريقية والرومية ثلاث مدن وقد تغير اسمها في زمن لا يمكن تعيينه فصارت طرابلس ، والثلاث مدن هي « أوا » طرابلس الآن عاصمة القطر ، و « سبراتا » و « ليبدس » وسبراتا تسمى الآن : صبرة ، وزوّاغة . وليبدس ، تسمى الآن : لبدة . وقد أطلق لفظ طرابلس على كل القطر من حدود مصر شرقا ، الى حدود تونس غربا . وسماها اليونان « ترابليطة »

وقد كانت من مستعمرات قرطاجنة ومحطا لسفنها من سنة ٨٤٦ ق م أو ٨٤٠ ق م - وهو زمن تأسيس قرطاجنة - الى ان استولى الرومان على قرطاجنة سنة ١٤٦ م واستولت على جميع أملاك قرطاجنة فأصبحت تابعة للرومان ومحطا لسفنهم أيضا الى سنة ٤٣٥ وفي هذا التاريخ فتح جنسريك ملك الوندال قرطاجنة واستولى على كل مستعمرات الرومان وصارت طرابلس تابعة للوندال الى

سنة ٥٣٣ م . وفي هذا التاريخ احتل القائد الروماني بيليساريوس قرطاجنة واسترد جميع البلاد التي كانت تابعة للوندال وصارت طرابلس تابعة للرومان[1] الى أن تشرفت افريقية بالفتح الاسلامي

وقد دخل جيش المسلمين افريقية فاتحا في زمن سيدنا عمر بن الخطاب وافتتح برقة سنة ٢١ ومنها توجه عقبة بن نافع الى زويلة فافتتحها سنة ٢٢ . وتوجه بسر بن ارطاة الى ودان ففتحها سنة ٢٣ . وسار عمرو بن العاص بعد فتح برقة الى طرابلس ففتحها سنة ٢٢ وسار الى مدينة سَبْرُتُ[2] ففتحها عنوة . وسار الى مدينة نفوسة وهي « شروس » ففتحها ، ولما فتح عمرو بن العاص طرابلس كتب الى سيدنا عُمر يستأذنه في التوغل في افريقية كتابا نصه :

« ان الله قد فتح علينا أطرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »

فكتب اليه سيدنا عُمر :

« لا ، انها ليست بافريقية ، ولكنها المفرّقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيتُ » فرجع عمرو بن العاص الى المشرق وكانت افريقية كلما غادرها الفاتحون الى المشرق ارتدت عن الاسلام .

وفي خلافة سيدنا عثمان بعث اليها عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٦ في جيش يبلغ ١٠ آلاف مقاتل فاوقعوا بجيش الروم في أطرابلس ولم يقدروا على التوغل في افريقية ، فاستأذن ابن أبي سرح سيدنا عثمان واستمدّه فاستشار سيدنا عثمان الصحابة فاذنوا بذلك ، فجهز الجيوش من المدينة وفيهم جمع من الصحابة فدخلوا افريقية وقتلوا اجرجير ملك سبيطلة وكان يملك ما بين طرابلس وطنجة .

وكانت طرابلس تابعة لعمال الخلفاء على افريقية الى أن تولت افريقية دولة بني الأغلب سنة ١٨٤ فأصبحت تابعة لهم الى سنة ٢٩٦

وفي أيام حكم الأغالبة انتقض أهالي طرابلس سنة ١٨٩ واستقلوا بأنفسهم

(١) كانت في هذا العهد تابعة لدولة الرومان الشرقية التي عاصمتها القسطنطينية (٢) صبرة

الى سنة ١٩٦ فاستردها أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب ورجعت الى حكم الأغالبة

وفي سنة ٢٦٥ أراد العباس بن أحمد بن طولون أخذ افريقية فنهض اليها من مصر في جيش عظيم فافتتك برقة من ابن موهب قائد الاغالبة ثم ملك لبده وقال الابيات التي ذكرناها في صفحة ٩ وتقدم الى طرابلس وكان بها أحمد ابن قهرب عامل الأغالبة وحاصرها ٤٣ يوماً ثم هزم شر هزيمة وعاد الى مصر سنة ٢٦٧

واستمرت طرابلس تابعة للاغالبة بتونس الى أن انقرضت دولتهم سنة ٢٩٦ .وفي هذاالتاريخ ظهرت دولة العبيديين (الفاطميين) فصارت تابعة لهم الى سنة ٥١٥

ولما انتقل المعز لدين الله من افريقيةالى مصر سنة ٣٦١ استخلف على افريقية يوسف بلكين بن زيري ، واستعمل على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي فطلب يوسف بلكين من المعز سنة ٣٦٧ أن يضم اليه طرابلس فأجابه الى ذلك

ولما اختل نظام الحكومة الصنهاجية في افريقيةو اجتاحت العرب جيوش ابن باديس وكثر الهرج وتغلبت النصارى على أكثر سواحل افريقيةاستقل أهل طرابلس بأنفسهم ومنعوا المغارم والجباية عن المهدية ، وقام بأمرهم بنو مطروح خير قيام وذلك سنة ٥١٥ وفي سنة ٥٤١ استولى رجار صاحب صقلية « سيسلية » على طرابلس عنوة وسبى النساء وأخذ الأموال وولى عليها من أهلها رافع ابن مطروح بعد أن اخذ رهائنه . وهذه أول مرة استولى عليها الافرنج بعد الفتح الاسلامي

وفي سنة ٥٥٣ [1] ثار أهلها على الافرنج أهل صقلية وأخرجوهم منها

(١) انظر صفحة ٥١

واستقل بها رافع بن مطروح الى سنة ٥٥٥ فدخلت تحت دولة الموحدين وبايع رافع بن مطروح عبد المؤمن بن علي وأقره على ولايتها واحتلها قراقش سنة ٥٦٨ وكثرت فيها الفتن وتعاقبت عليها أيدي قراقش وابن غانية

ودخلت طرابلس تحت حكم الحفصيين سنة ٦٠٣ . وفي أول أمرهم أغار ابن غانية على طرابلس فانتصر عليه عبد الواحد الحفصي سنة ٦٠٤ وبقيت تحت حكم الحفصيين الى أن استقل بها يوسف بن طاهر اليربوعي سنة ٦٨٤

وفي سنة ٧٥٠ استقل بها ثابت بن محمد بن ثابت ، وفي أيامه سنة ٧٥٥ احتلها الجنويون عنوة [1] وهذه هي المرة الثانية التي احتل فيها الافرنج طرابلس بعد الفتح الاسلامي ، ولم تزل في تقلبات وثورات فلا تخمد فتنة حتى تقوم أخرى الى سنة ٨٩٣ فاستراحت البلاد واستتب الأمن وارتدى الناس ثوب السلم ونمت الثروة وكثر المال حتى وصلت الى ما ذكره المؤلف في صفحة ٩٢ واستمرت في رخاء الى سنة ٩١٦ فاحتلها الاسبانيون وهذه هي المرة الثالثة التي احتل فيها الافرنج طرابلس بعد الفتح الاسلامي . والاحتلال الرابع هو الاحتلال الايطالي الذي حصل سنة ١٣٢٩ الموجود الآن .

وفي سنة ٩٢٦ ذهب وفد من أعيان طرابلس ممن انحازوا خارج السورى الى الاستانة مستغيثين بالسلطان سليمان الاول لينقذ بلادهم من ظلم الاسبانيين فأرسل معهم مراد أغا أحد علوجه والياً على بلادهم من قبله فلم يقدر على طرد الاسبانيين من البلد الى أن جاء طرغود باشا فافتكها من الاسبانيين ، وبقي واليها الى أن مات شهيداً سنة ٩٧٣ ومن بعده تولى أمر البلد البكجرية فاختل نظامها واستبدوا بالحكم ، ومدوا أيديهم الى ما في أيدي الناس ، وفرضوا على الاهالي من الضرائب مالا قبل لهم به وكثر طغيانهم حتى اضطر كثير من رؤساء القبائل الى الثورة عليهم في أزمان متتالية تخلصا من حكمهم الجائر

---

(١) انظر ص ٥٣

واستمرت طرابلس في اضطراب مستمر الى ان تولاها سنة ١١٢٣ أحمد باشا القرمنلي — وهو أول وال من اسرة القرمنلي — فاستطاعت هذه الاسرة أن تحدَّ من سلطة الثائرين ، وان ترجع الى البلاد شيئاً من الطمأنينة .

ولقد كان لمدينة طرابلس أيام حكم القرمنلية شأن يذكر في الاعمال البحرية مما اضطر كثير من دول اوربا ـ وفي مقدمتهم انكلترا ـ الى أن تعقد معها معاهدات

قال في « حقائق الاخبار عن دول البحار » عند الكلام عن محمد باشا بن احمد باشا القرمانلي : « وزاد في صناعة السفن وأكثر من المحاربات ومخرت سفنه في البحر بقوة وجسارة لم يسبق لها مثيل فاكتسبت طرابلس بذلك شهرة عظيمة حتى أوقعت الرعب في قلوب رجال السفن التجارية الاوروبية ، واضطرت الدول للسعي وقتئذ في عقد معاهدات مع طرابلس ودفع نقود سنوية لولاتها لتأمن بذلك على تجارتها . وأول من تقدم من الدول دولة انكلترا فعقدت مع محمد باشا المذكور معاهدة بدون استشارة الدولة العثمانية سنة ١١٦٤ تحتوي على ٢٨ مادة ، منها : « وعلى كل سفينة انكليزية ان تظهر ورقة الباسبور عند ما تقابل سفن طرابلس » الخ اه

وفي سنة ١١٧١ عقدت معاهدة بينها وبين جمهورية البنادقة من موادها ابطال الحرب بين الطرفين ومنع تعدي سفن طرابلس على سفن الجمهورية .

وفي زمن يوسف باشا صادف اسطول طرابلس سفنا لدولة السويد فحاربها وأسر منها سبع سفن ، فتوسط « بونابرت » وهو بمصر وخلص الاسرى وترك السفن ليوسف باشا وأعاد لطرابلس المبلغ الذي كان مرتباً لها من حكومة السويد

وعقدت معاهدة بين طرابلس وبين الولايات المتحدة سنة ١٢٢٠ [1] ومعاهدة بينها وبين جمهورية طوسكانة سنة ١٢٣٦ ومعاهدة بينها وبين مملكة نابلي سنة ١٢٤٢ وغيرها من أمم جنوب أوربا وكل هذه المعاهدات لم يتجاوز غنمها جيوب الولاة وخزائنهم اما غرمها فعلى الامة الطرابلسية

وقد استمر حكم الترك في طرابلس ٤٠٣ سنوات لم ينشئوا فيها من المدارس ما يكفي لحاجة أهلها ، ولم ينشئوا فيها سككا حديدية ولا بريداً منظما . وقد كان عهد الترك في طرابلس على طوله لا يمتّ الى العلم بصلة ولا الى العمران بسبب . وقد خرجوا من بلادنا كما دخلوا ، وتركونا نحصد ما زرعوا لنا . ولهم عند الله جزاء ما كانوا يصنعون

الطاهر أحمد الزاوي

(١) فى هذه السنة تقريبا احتلت الولايات المتحدة درنه انظر صفحة ١٢٨ وهددت طرابلس وانتهى الامر الى المعاهدة

التذكار

فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال الشيخ الامام أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون رحمه الله ونفعنا به :

نحمدك يا من قضيت أزلاً لا يكون غير مرادك ، وشهد الكون أجمعه نطقاً ودلالة بانفرادك ، وبعثت سيد ولد آدم رحمة لعبادك ، وقصصت عليه نبأ الماضين من أهل طاعتك وعنادك ، وخاطبته ان في ذلك موعظة وتثبيتاً لفؤادك . ونصلي عليه وعلى آله مسلمين ما عصاك وكفر به أهل ابعادك

وبعد فان القصيدة التي أنشدها الفاضل الأديب الخيّر اللبيب سيدي أحمد ابن عبد الدائم الأنصاري في مدح طرابلس معرّضاً فيه بمن هجاها (١) ، وهو - وان صرح بالمدح فيه اجمالاً - يحتاج الى التفصيل بذكر جزئيات أخبارها ، ولم أر من تعرض لجمعها على حدة من المؤرخين ، وانما ذكرت مشتتة في الصحف والدواوين . فقد أمرني بجمعها من أدام الله سعوده ، وحرس لاحياء الدين

---

(١) وجدت في آخر هذا الكتاب نبذة منقولة عما كتبه المؤلف من رحلة ابي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن علي بن مسعود العبدري المغربي التي ابتدأها سنة ٦٨٨ ، ... لما مر بطرابلس اجتمع بالاستاذ ابي محمد عبد الله بن عبد السيد فاستجازه اذ ذاك وقد حضر لبعض دروسه ووقعت بينهما مناقشات علمية ولم يوافقه الاستاذ ابو محمد على رأيه . وقد وصف الاستاذ ابا محمد بضيق الخلق وقصر الباع والعي والشكاسة ، وقال : واظنه لا رواية له . وقد وصف في هذه النبذة طرابلس اوصافاً ذميمة ، وبالغ في التنقيص من شأنها بما لا ينطبق على الحقيقة . واظن ان صاحب الرحلة هذه هو الذي رد عليه الاستاذ احمد بن عبد الدائم بهذه القصيدة التي شرحها المؤلف . ومما يؤيد ظننا هذا ما وجدناه مكتوباً مع هذه القصيدة وهو قوله : الحمد لله لما بلغ العبد ما صنع المشرق برحلته من ذكر مساوىء طرابلس استيفاء عين السخط منه بعد توجهه للمشرق ووقفت على بعض الفاظه . الى ان قال : ... فقال . وذكر القصيدة

والمكرمات وجوده ، ظل الله في بريّته ، وخليفته في خليقته ، رافع منار الشريعة النبوية ، ناصب رايات العلوم الدينية . ذو المقام العالي ، وكوكب المجد المنير المتلالي ، الجامع لأصناف المفاخر والمعالي ، الناصر لدين الاسلام ، القامع بسيفه عبدة الصليب والأصنام ، الناشر ألوية العدل والانصاف ، الماحي آثار كل الجور والاعتساف . من متّع الله به الخاص والعام ، وأكثر منه للفقراء الجود والانعام . السند الأعظم والمقام الأفخم . كافل المملكة الطرابلسية ، وأكرم من خفقت عليه الألوية العثمانية أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى ، يسر الله له من استمرار العزة والدولة ما يشاء ، تشريفاً منه لقدري ، واستدامة لعادته الحسنى في استحسان أمري . واظهارا لجميل رأيه الذي ما زلت أعتدُّه ظهيرا على نوائب دهري . فامتثلت أمره العالي تيمناً ببركاته ، وتلقياً للنّجح باقتفاء مراسمه من جميع جهاته . وانتصبت لذكر ما حضرني من أخبارها مما رويت أو شاهدت من آثارها . سالكاً فيه سبيل الاختصار ، راجياً التوفيق والمعونة من القادر الغفار . وجعلته خدمة لسدة بابه التي هي معول رجاء الآمال ، وملثم شفاه الأكابر والأقيال (١) . لا زالت ملاذ أرباب الفضائل ومحط رحال الأفاضل . وأملاً لفعل المعروف ، وإغاثة لكل مختبط ملهوف . بجاه النبي الأكرم ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وشرف وكرم . وسميته :

﴿ التذكار ، فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ﴾

قال رحمه الله تعالى :

﴿ أرى زَمِناً قد جاء يقتنصُ المَهَا بلا جارح والأُسدُ في فَلَواتها ﴾
﴿ رأى القَيضَ مُبْيضا بمزبلة الحمى فقال كَفانى انّه من صفاتها ﴾

أرى من رأى البصرية وهي تتعدى لمفعول واحد وهو هنا رمنا ، والزمانة

(١) جمع قيل ، ويطلق على الملك

العاهة كذا في القاموس . وخصها عرف اللغة بالعاهة الموجبة لعدم قيام الانسان والمرادبها هنا آفة الجهل على زعم الناظم لهجوه من لايستحق هجوا . والاقتناص : الاصطياد ، من قنصه يقنصه اذا صاده . والمها اسم جنس جمعي واحده مهاة ، وهي البقرة الوحشية ، شبه بها لطيف الوصف الذي لا يدرك الا بدقيق الفهم . الجارح : خصه العرف بما يصطاد به من حيوان طيرا كان أو كلبا . والأُسْدُ جمع أسد ، وهو الحيوان المفترس ، والمراد هنا الفهم الذكيّ شبه به من حيث الحماية ، فكما أن الأسد يحمي ما يحماه ، كذلك الفهم الذكي . والقيض القشرة اليابسة على البيض . كذا في القاموس ، مبيضا صفة له مخصصه اذ منه ما ليس كذلك . والمزبلة بضم الباء وفتحها : ملقى الزبل وموضعه وهو معروف . والحمى بكسر الحاء المهملة وفتح الميم والقصر : هو المكان الذي يمنع رعيه ليتوفر فيه الكلأ فترعاه مواش مخصوصة ويمنع غيرها عنه ، والكلأ بالهمز من غير مد هو المرعى رطبا كان أو يابسا . والكلا بالقصر من غير همز : النبات الرطب قال في المشارق : وضبطه السمرقندي والعذري مرة بالمد وهو خطأ . قال الحافظ ابن حجر : من مده فقد أخطأ . والحشيش هو العشب اليابس . وظاهر كلام القاموس أن الحمى يجوز فيه المد ، ولم يحك في المشارق فيه الا القصر فالحمى بمعنى المحمى : مصدر بمعنى المفعول ، وهو خلاف المباح ، تثنيته حميان . وحكي الكسائي في تثنيته حموان بالواو والصواب الأول لأنه يائيّ

وأصل الحمى عند العرب أن الرئيس منهم كان اذا نزل منزلاً مخصباً استعوى كلباً على مكان عال فحيث انتهى صوته حماه من كل جانب فلا يرعى فيه غيره ، ويرعى هو مع غيره فيما سواه . هذا معناه لغة . وأما شرعاً فهو حماية الامام موضعاً لا يقع به التضييق على الناس للحاجة العامة الى ذلك للخيل التي يحمل عليها الناس للغزو والماشية الصدقة . كذا عرفه الباجي ، نقل ذلك ابن عرفة

والاصل في اباحة الحمى مارواه الامام البخاري في صحيحه في كتاب الشرب عن يحي بن بكير ، قال : حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الصعب بن جثّامة رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ قال « لا حمى الا لله ولرسوله » . قال وبلغنا أن النبي ﷺ حمى البقيع وأن عمر حمى الشرف والربذة

والشرب بكسر الشين المعجمة : الحكم في قسمة الماء [1] وضبطه الاصيلي بالضّم . قال ابن حجر : والصواب الاول . والبقيع بالموحدة : موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، وبه يسمى بقيع الفرقد [2] وهو بالموحدة كذا ذكره الجوهري في حرف الباء ، ونحوه في مختصر العين ، ومثله لابن سيده. والفرقد[2] شجر له شوك كان ينبت هنالك فذهب وبقي الاسم لازماً للموضع

وقال عياض في المشارق في آخر الموحدة لما ذكر اسماء المواضع : بقيع الفرقد[2] الذي فيه مقبرة المدينة سمي بذلك لشجرات غرقد ـ وهو العوسج ـ كانت فيه ، وكذلك بقيع بطحان

والشرف بفتح المعجمة والراء بعدها في المشهور . وذكر عياض أنه عند البخاري بفتح المهملة وكسر الراء . قال وفي موطأ مالك رحمه الله : ابن وهب بفتح المعجمة والراء ، وكذا رواه بعض رواة البخاري أو أصلحه وهو الصوّاب . وأما سرف فهو موضع بقرب مكة ولا يدخله الالف واللام

والربذة بالراء المهملة المفتوحة وبعدها باء موحدة مفتوحة بعدها ذال معجمة قال ابن حجر في فتح الباري : موضع معروف بين مكة والمدينة . وقال الزركشي في كتاب العلم من حاشية البخاري : موضع على ثلاث مراحل من المدينة . والصعب ضد السهّل وعلى وزنه . وجثّامة : بجيم مفتوحة ، وثاء مثلثة مشددة

(١) قال فى مختار الصحاح : الشرب بالكسر الحظ من الماء

(٢) كانت بالاصل (الفردق) وهو تحريف

كذا ضبطه النووي أول كتاب الحج من شرح مسلم اه ومعنى الابيات بيّن . قال

﴿ أتى أهلَه يهوى وبشَّر أنه بِرِبقَةِ من ظبيانهـا ومَهاتِها ﴾
﴿ ألا أيها النّحرير مَهْ عن مَذَمّة فما في الأواني بانَ من قَطَرَاتِها ﴾

أهل الرجل عشيرته وذوو قرباه ، والهوى من معانيه أن يقبل بالشيء مرة ويدبر به أخرى ، والعرف خصه بالبشارة بالشيء ، يؤتى بالمصدر من لفظه للاعلام بها . والبشارة الفرح ، ومنه أبشَرَ بكذا فرح به . والربق بالكسر : حبل فيه عدة عرًى يشد به البَهْم ، كل عروة ربقة ، بالكسر والفتح جمعه ربق كعنب ، وأرباق كأصحاب ، ورباق كجبال . وربقه يربقه : جعل رأسه في الربقة ، وفي الامر : أوقعه فيه فارتبق . والربق ويكسر : الشدّ . والربيقة كسفينة : البهيمة المربوقة في الربقة . والظبي معروف . وقال في مختصر العين في باب الضاد في الثلاثي المعتل : الضبي ضرب من دواب البر على خلقة الكلب . قال ولست على يقين منه . والمهاة واحدة المها ، وقد تقدم . والنحرير بالكسر فيهما ، قال في القاموس : الحاذق الماهر العاقل المجرّب المتقن الفطن البصير بكل شيء لانه ينحر العلم نحراً

(غريبة) قدم على حضرة أمير المؤمنين أحمد باشا رجل منتسب للطلب متعلق بالفتوى يطلب منه توقيعاً يتضمن زيادة احترامه وتوقيره فأمر ــ أيده الله تعالى ــ أجلّ كتبته أن يكتب له توقيعاً بذلك على عادته في مجابرة من انتسب الى الدين ، فكتب ما نصه :

« هذا كتاب أمير المؤمنين أيّده الله بيد حامله العالم العلامة النحرير ، فلان يؤذن من يقف عليه بزيادة احترامه وتعظيمه » الخ

فلما تناول الكتاب وقرأ « النّحرير » كاد أن يخرج من عقله حنقا ، وراجع بعض النبلاء واشتكى من الكاتب والامير ، وتلهف على غضّهما حقه فبين له

معناها فلم يقبله وحملها على ما يؤدي اليه ركيك فهمه من خلاف الصواب في ألفاظ اللغة ، وتوهم لبداوته أنه وصفه ببيع الحرير لاتفاق اللّفظين في أكثر الحروف ادراجا له في وصف أهل الذمة لمشاهدته أن غالب سوقتهم يتعاطون بيعه في البلد دون أهلها . والكاتب مخطىء في الحقيقة اذ وصف الرجل بما لم يقم به معناه خطأ ، ولكن له أجر من اجتهد فأخطأ

مه : اسم فعل [بمعنى] ا كفف كذا في القاموس . والمذمة مفعلة من الذم ضد المدح . قال في القاموس : ذمه ذما ومذمة فهو مذموم ، وذميم ، وذم ويكسر ضد مدح . واليك النظر في سبك الأبيات :

قال رحمه الله تعالى :

طرابلسٌ لا تقبل الذّم انها — لها حسناتٌ جاوزتْ سيئاتِها

[طرابلس] لفظ روميّ معناه ثلاث مدن كذا ذكر صاحب القاموس . قال بعضهم وهو الاشهر . وهو بفتح الطاء وضم اللاّم والباء ، وعلى ذلك درج أحمد بن حسين بن محمد من متأخري ادبائها . فقال أيام هجرته عنها بالجامع الازهر :

طرابْلس الغرّا ترى لي عودة — اليك وهل يدنو الذي كان قد ذهب
سقى الجانبَ الشرقيَّ منك سحابهٌ — ولا زال فيها من رياح الصبا مَهب
بلادٌ لها بالخلد شبهة آية — فنها نباتُ الزَّعفْران دها العنب
ترى سوحَها من فضّة فاذا اكْتست — بشمس الضحى أضحت لُجَيْنَتُها ذهب
وفي كل حول حَوْلَها حُلةٌ حلت — برؤيتها خضراء من سُندس القصب
وفيها نخيلٌ باسقات اذا الصَّبا — تهُبُّ عليها أسقطت يانع الرُطب
وفيها من الأشجار ما جلّ وصفُه — بأوْراقها الوَرقاء غنّت من الطَّرب
وفي ثغرها ثغر الرُضاب وعينها الـْ — لتي قد سمت من فضّة آية العجب (١)

(١) ذكر الشاعر في ثغر طرابلس عينا سماها عين الفضة ، وهي غير معروفة اليوم ولا يوجد اليوم في المدينة ولا فيما جاورها عين ماء الا العين التي بجوار الشيخ الشعاب . وهي قريبة من المحرقي كهف شبه مغموس في صخور البحر يحصر الماء دونها ، وهي عذبة الماء وسمها ليس بالقوي ، وتعرف الى اليوم بالدويرة بضم الدال وفتح الواو ولعله قصدها لانها في الثغر

فيا حبذا ثغرٌ له النصرُ خادمٌ ويا حبذا عين بها الماء قد عذُب
أمثّل شوقاً شكلَها في ضمائري فيسقط دمعي الشكل من شدة التعب
بديعةُ حُسْنٍ زادها الله بهجة وآمن أهليها من الخوف والشَّغَبْ
لقد أعجزت أوصافُها كلَّ معرِب وكلَّ الذي أملى وكلَّ الذي كتب
ولكن قُصارَى مُطنِب القولِ انها تفوق بلادَ الغرب طُرًّا ولا عَجب
وناهيك بالبئر الجديد وسره لجيرته داراً بها القلبُ ملتهب
فلا تُلحِني ان أرّق البينُ مُقلتي وكادتْ بيَ الأشواق تُفضي الى العطب
فان من الايمان ـ والنصُّ شاهدٌ ـ محبتَك الأوطانَ عن سيد العرب
وكيف بدار قد حوت كلَّ رُفقة يقومُ لهم في العلم باعٌ وفي الأدب
ومن فضله بحرٌ طويل ووافر مَديدٌ مدى الأيام لا يعتريه غِب
هو الوالدُ الأسمى فلا زال كاسمه حُسينٌ أخو الحسنى لأحمد ينتسب
امام من الاحسان أحيا مآثراً ومن قبله البُهلولُ ذو الفخر والحسب
فيا فالقَ الاصباح والحبِّ والنوى تمد له عمراً طويلاً بلا وصَب
سقتك أيا ربعَ الأحبّة ديمةٌ تدومُ، ولا زالت بك المزنُ تنسكِب
فيالك من ربع اذا ما ذكرتُه أهيمُ كما الشكلى أو الشارب الحبب

وذكر البكري وغيره أنها بزيادة ألف قبل الطاء، وسكون الطاء، وكذا هو بخط الأجدابي. وعلى ذلك قول أحمد بن يحيى من قدماء شعرائها:

لقد طال شوقي الى فتْية حِسانِ الوجوهِ بأطْرابُلس
وقد عيل صبْري فما مُسعدي على الشّوق الاّ دُموعي البُجُس

قال التيجاني: واختار بعضهم في الغربية زيادة الألف، وفي الشامية اسقاطها وعكس صاحب القاموس فجعل الهمزة للشامية، وقد سكن بعضهم لامها للضرورة وهو الكاتب أبو الحسن علي بن أبي بكر بن بلال استفاداً لما تقرر في اللغة من

تغيير الأسماء الأعجمية للضرورة ، فقال مخبراً عن نفسه حين قدمها متوجهاً للحج فصرفه الدهر في بعض خدمها ـ يصف اشتياقه ويطلب التخلص مما عاقه :

رَسَى فرسي في سَيْرِهِ ولو أنه ... خليٌّ من الأوزارِ سارَ ولم يرسُ
سعى سعيَ طمّاحٍ لأبعد غاية ... فكانت له دارَ المُقام طرابلسُ

والمدن الثلاثة التي جعل هذا اللفظ علماً عليها : لبده ،[1] وطرابلس ، وصبره ثم غلب على المدينة المعروفة الآن التي بساحل البحر الغربي بين لبدة وصبرة

وهي بلدة أنيقة حسنة الجو ، أعطى ساكنها الشجاعة وقوة العزم ، لا كثر أهلها شبه بالصحابة ، فقد اشربت قلوب الكفرة منهم مهابة . وبالجملة فهو بلد أنيق المنظر فسيح الساحة[2] ، فلذا يجد القلب فيه راحة . أهلها أمطر الله سحائب الرأفة عليهم ، فتراهم يحبون من هاجر اليهم . زادها حسناً بلد المنشية الذي استوفى المحاسن وأشعر بها وذكّر بمنظره الأنضر جنة الخلد واستبرقها[3] أحدق بها [البحر] من جهتي شرقها والغرب[4] فهي نازلة من البحر منزلة اللب والقلب . جمع من أنواع الفواكه ما يعجز عن حصره ، وتستلذ المشاعر عند رؤيته أو ذكره .

قطوفٍ عرصاتها دانية ، جنة الا أنها فانية

(١) قال في معجم البلدان (لبدة) مدينة بين برقة وافريقية ، وهو حصن من بنيان الاول بالحجر والآجر وحوله آثار عجيبة ، يسكن هذا الحصن قوم من العرب يحاربون كل من حاربهم ولا يعطون طاعة لاحد ، كانت به وقعة بين ابى العباس احمد بن طولون واهل افريقية . فقال ابو العباس يذكر ذلك :

ان كنت سائلة عنى وعن خبرى ... فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من ال طولون اصلي ان سألت فما ... فوق لمفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة اذ ... بالسيف اضرب والهامات تبتدر
اذا لعاينت منى ما تبادره ... عنى الاحاديث والانباء والخبر

(٢) يوجد بالاصل بعد قوله : الساحة كلة « جمع » وكلة بعدها غير مفهومة ، وكلة « بر وبحر » وهذه الكلمات لامعنى لها ، فحذفناها ونبهنا عليها هنا

(٣) كان بالاصل : واذكر بمنظرها الانظر وورقه الانهار جنة الخلد الخ فحذفناه لعدم وضوحه

(٤) بياض بالاصل يتسع لكلمة

وهي أول بلد فتح عنوة بأرض المغرب بعد صلح « انطابلس » وهي برقة ، صالح أهلها عمرو بن العاص رضي الله عنه بعد أن قدم عليهم بعد فراغه من فتح الاسكندرية . صالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار فرعوني يؤدونها كل سنة على أن يبيعوا في جزيتهم من أولادهم

وكان يسكن برقة من البربر لواتة ، وكانت أرض البربر فلسطين

سبب دخول البربر

برقة وأرض المغرب

وسبب انتقالهم منها الى برقة وأرض المغرب — على ماذكره المؤرخون — أن بني اسرائيل لما قتلهم بخت نصّر البابلي وأخرب بيت المقدس واستولى على خزائنه والتابوت الذي فيه عصا موسى والسكينة وعمامة هارون ، وقد كانوا يقدمونه أمامهم في الحروب فينصرون ـ ضعف أمرهم عن القتال وقويت عليهم شوكة البربر ، فلم يزل أمر بني اسرائيل في ادبار ، وأمر البربر في اقبال حتى تنبأ اشمويل عليه السلام فأتاه بنو اسرائيل وسألوه : سل ربك يبعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ، فسأل فأوحى الله اليه إني منزل عليك عصاً وقرنا فيه دهن القدس ، فضم العصا والقرن حولك فاذا دخل عليك رجل منهم وغلى دهن القدس فقسه بالعصا فان طابقها فذلك ملكهم الذي يفتح لهم على يديه ، فصار أهل بيت الملك يدخلون عليه فلم يَغْلِ لدخول أحدهم ، فلما دخل طالوت ، ولم يكن من بيت الملك ، وانما كان سقاء ضلَّ له حمار فخرج في طلبه ، فلما مر ببيت أشمويل عليه السلام قال لمن معه : ألا ندخل بيت هذا الرجل الصالح لعل ببركته نجد ضالتنا ، فدخلا فغلى دهن القدس فقاسه بالعصا فطابقها فقال : ان هذا ملككم

الذي يفتح على يديه . فكان من جوابهم ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله : « قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؛ قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسعٌ عليم » و « ان آيةَ مُلكه أن يأتيكم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربكم وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » وكان التابوت قد استولى عليه ، فلما حل بين أظهرهم تشاءموا ببقائه ؛ فأخرجوه من بين أظهرهم الى قرية أخرى فأصبح أهلها موتى أكلت الفأرة أفئدتهم فأخرجوه ودفنوه بفلاة من الارض ، فصار كل من بال متوجهاً نحوه أصابه الحصر ، فأخرجوه وجعلوه في آلة يحملها ثوران وضربوهما فأخذته الملائكة حتى أتت بها بيت المقدس بلد أشمويل عليه السلام فلما شاهدوا ذلك أذعنوا لملكه وملّكوه عليهم وأمرهم بالتأهب لقتال البربر فتأهب معه لقتالهم من بنى اسرائيل ثلاثون ألف شاب وخرجوا لذلك فأوحى الله سبحانه الى أشمويل عليه السلام : أني مبتليهم ، فابتلاهم بنهر ماء بعد قيظهم ، ونهاهم عن الشرب منه فشربوا منه إلا قليلا منهم فلم يجاوزه معه إلا أربعة آلاف ، منهم ايشا أبو داود عليه السلام ، وكان له أربعة عشر ولداً أصغرهم داود عليه السلام

فلما التقى الجمعان : جمعُ البربر وعليهم جالوت ؛ وجمعُ بني اسرائيل وملكهم طالوت أوحى الله سبحانه الى أشمويل عليه السلام : أن هلاك جالوت على يد ولد من أولاد ايشا ، فأمر طالوت باحضار أولاده فأحضرهم إلا داود لصغره ، فقال أشمويل عليه السلام لم يكن بينهم من هلاكه على يديه ، واستفهمه ألك غيرهم ؟ قال ولد صغير ، فأمر باحضاره ، فلما أحضر قال هو هذا ؛ فأمر له طالوت بفرس وسلاح ، فتقلد داود السلاح وركب ، فلما استوى عليها نزل ورمى بالسلاح ، وأخذ آلة يُرمى بها الحجر ، فمر بحجارة الانبياء فصاحت بهفأخذها ، حتى مر بحجر موسى فصاح به أنا حجر موسى فأخذه ووضعه في الآلة وقذف به جالوت

فأصابته فأهلكته

واستولى طالوت على عسكره وأمواله . ثم أفضى الملك لداود عليه السلام واستولى على أرض فلسطين ولما استولى عليها وتنبأ أوحى الله سبحانه اليه : ياداود أن اخرج البربر من أرضك فانهم خبث الارض فأخرجهم من فلسطين وبعث بهم من قطع بهم النيل متوجهين الى أرض المغرب

قال ابن عبد الحكم : كان البربر بفلسطين في زمن داود عليه السلام فخرجوا منها متوجهين نحو أرض المغرب حتى انتهوا الى لوبة ومراقية ، وهما قريتان من قرى مصر الغربية مما يشرب من ماء السماء ولا ينالها النيل فتفرقوا هنالك ، فتقدمت زناتة مقبلة الى المغرب وسكنوا الجبال ، وتقدمت لواته وسكنت انطابلس ، وهي برقة ، وتفرقت في المغرب ، وانتشروا حتى بلغوا السوس . ونزلت هوارة مدينة لبدة[1] ، ونزلت نفوسه مدينة صبرة ، وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك . وأقام الافارق — وكانوا خدما للروم — على صلح يؤدونه لمن غلب على بلادهم . وهم بنو فارق بن بيط بن حام ، فلم يزل كل بأرضه الى أن افتتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية

(١) قال في المنهل العذب : ومن بطون هواره : مغرا ، وزمور ، وكاباو ، وفساطو ، ومعدان ، ونداوه ، ومليله ، وغريان ، ومسلاتة ، وترهونة ، وتاورغا ، وزكارة ، وسيلين اه . قلت وهذه البطون لا أثر لها اليوم بجوار لبدة ، اللهم الا اماكنهم التي كانوا يسكنونها قبل تغلب العرب عليهم فهي لا يزال اكثرها فيما حوالى لبده ، ويعرف بهذه الاسماء الى اليوم وهي قريبة منها مما يدل على انها كانت قرى تابعة لهذه المدينة العظيمة وهي تقع شرقي مدينة طرابلس على مسافة خمسين ميلا ، قد اسسها الفينيقيون في زمن غير معلوم ، والآثار القديمة فيها بثلاث لغات : اليونانية ، واللاتينية ، والفينيقية ، وترى اعمدة الرخام واقفة في وسط البحر ، وآثار البناء متناثرة على مسافات بعيدة جدا ، مما يدل على ان كل هذه المسافات كانت تشغلها تلك المدينة البائدة وقد جلب اليها الماء من عين كعام — ولا تزال تعرف بهذا الاسم الى اليوم — وقد خربتها قبيلة لبيية من البربر سنة ٣٧٠ م . وقيل خربها قوم الوندال لما طردهم الروم من اراضي الاندلس . اه ملخصا منه

فتح برقة (١)

فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها اليه جزية على أن يبيعوا من أولادهم في جزيتهم ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، انما كانوا يبعثون بها اذا جاء وقتها . ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة . قال الطبري : فافتتحها بصلح وصار مابين زويلة وبرقة سلما للاسلام

وقال أبو العالية الحضرمي سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول : « لاهل انطابلس عهد موفّى لهم به »

(١) تبتديء من نهاية خليج سرت بمكان يقال له المقطاع بجوار عين الكبريت وتمتد شرقا على ساحل البحر الابيض الى مرسى السلوم ـ ويسمى العقبة الكبيرة ـ حيث تبتديء الاراضي المصرية ومابين هذين الموضعين هو الذي يقال له قديما (سيرينائيك) وهو بلاد برقة الحقيقة ، ونقع في الدرجة ٣١ والدقيقة ٢٩ من العرض الشمالى . والمدينة العربية المسماة (برقة) هي المرج ، وهي على نحو ١١٠ كيلومترات الى الجنوب والغرب من قرنة ، وعلى نحو ٢٤ كيلومترا الى الجنوب والشرق من طلميثة . وقد بنيت سنة (٥٥١) قبل التاريخ الميلادى . وفي سنة (٦٤٢ م) أغار العرب على قرنة ونهبوها ثم اختاروا مدينة برقة (المرج) وجعلوها عاصمة البلاد واطلقوا على بلاد قرنة اسم برقة ، ولم يشيدوا لها سورا الا بعد قرنين من اغارتهم ، وكان مرساها البحري طلميثة . وقاعدة برقة الآن بنغازى ، وقد بنيت على أنقاض (برنيق) القديمة ، وهي تشغل قسما كبيراً من مكانها . وبرنيق هذه هي احدى المدن الخمس التى كانت تسمى قديما انطابلس (اى المدن الخمسة) وهي : برنيق وطوكرة ، والمرج ، وسوسة ، وقرنة انتهى ملخصا من كتاب التبيان لرافت بك من (ص ٣٤١ - ٣٦١)

اقول : وقد ذكر برنيق هذه الحموي في معجمه فقال : برنيق : بالفتح ثم السكون وكسر النون وياء ساكنه وقاف . مدينة بين الاسكندرية وبرقة على الساحل ، منها على بن البرنيقي الاديب كان بمصر ، وله خط مضبوط متعارف

وقال في الكلام على برقة : افتتحها عمرو سنة ٢١ صلحاً على ثلاثة عشر الف دينار ، وكان عبد الله بن عمرو ابن العاص يقول ما اعلم منزلا لرجل له عيال اسلم ولا اعزل من برقة ، ولولا اموالى بالحجاز لنزلت برقة

وقد نسب الى برقة جماعة من اهل العلم . منهم احمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن زرعة الزهري البرقى ابو بكر مولى بنى زهرة ، حدث بالمغازي عن عبد الملك بن هشام وكان ثقة ثبتا ، وله تاريخ ، واخواه محمد وعبد الرحيم ابنا عبد الله رووا جميعا كتاب السيرة عن ابن هشام

محاصرة طرابلس

قال ابن عبد الحكم : ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة ٢٢ فنزل القبة التى على الشرف من شرقيها [١] فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء — وفي أيام حصاره لها بعث الى ودان بُسر بن ارطاة — فافتتحها سنة ٢٣ كذا قال البكري

قلت : ولا خلاف بينه وبين ابن عبد الحكم ، لاحتمال أن يكون الحصار أواخر سنة اثنتين وعشرين ، والفتح فى ثلاث وعشرين، على أن ابن عبد الحكم أطلق في الفتح . قال البكري : ودان لها قلعة حصينة والمدينة دروب ، وهي مدينتان فيهما قبيلتان من العرب : سهميون وحضرميون ، وجامعهما واحد بين الموضعين . وبين القبيلتين تنازع وتنافس ، وعندهم فقهاء وقراء وشعراء [٢] ، وأكثر عيشهم التمر ، لهم زرع قليل يسقونه من النضح

فتح طرابلس

ثم خرج رجل من بنى مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر وكان البحر لاصقا بالمدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور . وكانت سفن الروم شارعة في مرساها الى بيوتهم . فنظر المدلجي وأصحابه فاذا

(١) قال فى المنهل العذب ان سيدنا عمرا نزل بجيشه شرقى المدينة بقربة من المكان الذي فيه ضريح الشيخ الشعاب الان . قلت ولعل المؤلف يعنى قبة الشعاب

(٢) قال في المنهل العذب : وممن ينسب اليها ابو الحسن بن ابي اسحاق الودانى صاحب ديوان ، ذكره ابن القطاع وانشد له :

من يشتري مني النهار بليلة لا فرق بين نجومها وصحاب
دارت على فلك السماء ونحن قد درنا على فلك من الاداب
دان الصباح ولا اتى ، وكأنه شيب اطل على سواد شباب

البحر قد غاض من ناحية المدينة ووجدوا مسلكا لها من الموضع الذى انحسر عنه البحر ، فدخلوا حتى أتوا من ناحية الكنيسه وكبروا فلم يكن مفزع الروم إلا سفنهم ، وأبصر عمرو أصحابه الستة [1] في جوف المدينة فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ماكان بالمدينة

وكان من بصبرة متحصنين ، وهي المدينة العظمى ، وسوقها السوق القديم . فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم أمنوا

فتح مدينة صبرة [2]

فلما ظفر عمرو بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة صبرة وهم غافلون وقد فتحوا أبوابها لسرح ماشيتهم فدخلوها فلم ينج منهم أحد . واحتوى أصحاب عمرو على مافيها ، ورجعوا الى عمرو اه ما لابن عبد الحكم ، وقد أطلق في خروجهم ، وذكر غيره السبب كما ذكرنا . وذكر غير ابن عبد الحكم أن المدلجي ومن معه لم يدخلوا المدينة وحدهم بل ندبوا معهم جماعة

ولما استولى عليها عمرو هدم سورها وارتحل عنها الشَرُوس [3] مدينة

(١) تقدم أن المدلجي خرج في سبعة نفر

(٢) (قلت) هذا الاسم محرف عن اسمها الروماني (سبرة) واسمها البربري (زواغة) بتشديد الواو ، والناس عندنا يخففونها وهي تقع في الجهة الغربية من طرابلس على مسافة يوم. قال الحموي(سبرت) كذاوجدته مضبوطا بخط من يرجع اليه في الصحة في عدة مواضع من كتاب ابن عبد الحكم. ذكر ابن عبد الحكم في كتابه ان طرابلس اسم للكورة ومدينتها (نبارة) وسبرة السوق القديم ، وانما نقله الى نبارة عبد الرحمن بن حبيب سنة ١٣١ هـ

(٣) كانت بالاصل (شروين) وهو غلط منشؤه تحريف من الناسخ ، لان شروين ــ بالواو ــ اسم لجبال في طبرستان كما ذكره الحموي في معجمه والصواب ماكتبناه ، وهو اسم مدينة قديمة في جبل نفوسة (المعروف عندنا بالجبل الغربي) . قال في مراصد الاطلاع : سروس ، اوله مثل آخره ، وربما قيل بالمعجمة في اوله مدينة نفيسة في جبل نفوسة بأفريقية واهلها اباضية وهي نحو من ثلاثمائة قرية اهـ

وقد ذكرها صاحب معجم البلدان في الكلام على جبل نفوسة فقال . . . . . وفيه ــ اى في جبل نفوسة ــ منبران في مدينتين احداهما شروس في وسط الجبل ، والاخرى يقال لها جادو . الى آخر ما قال

نفوسة فافتتحها . قال البكري . وهي مدينة آهلة جليلة . وبين طرابلس وشَرُوس خمسة أيام .

ولم يزل سورها [١] آخرا الى سنة اثنتين وثلاثين ومائة فجدده من جهة البر عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على افريقيا أواخر دولة بني أمية . وتأخر بناؤه من جهة البحر الى سنة ثمانين ومائة فبني على زمن هارون الرشيد زمن ولاية هرثمة بن أعين على افريقية من قبله ، وهو الذي بناه على يد ثقته زكرياء ابي قادم ثم زاد أبو الفتح زيان الصقلبي متولى طرابلس سنة خمس وأربعين وثلاثمائة في رفعه واتقانه من جهتي البر والبحر [وكان مولى] من جهة المنصور اسماعيل بن القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدي لعنه الله

ولم تزل تحت ولاية بنى أمية ثم بني العباس الى أن غلب أبو عبد الله الشيعي على أكثر بلاد افريقيا وفرّ زيادة الله بن الأغلب من رقادة [٢] هاربا الى طرابلس وأقام بها أياما ثم رجع الى رقادة وولى عليها أخاه أبا العباس وتمام بن المبارك وانفصل الى سجلماسة ، فلحق بعبيد الله واستخرجه من سجنها ودعا له بالخلافة وذلك سنة سبع وتسعين ومائتين ، وقدم افريقية وقتل أبا عبد الله الشيعي وأبا العباس أخاه

حصار ابي القاسم القائم بأمر الله

﴿ مدينة طرابلس ﴾

ولما استقامت له الامور جهز جيشا لطرابلس مع بعض قواده فحاصرها مدة

(١) اي طرابلس

(٢) قال في المعجم : رقادة بلد كانت بأفريقية ، بينها وبين القيروان اربعة اميال . بناها ابراهيم بن احمد ابن الاغلب سنه ٢٦٣ ، ووقعت بها حروب بين ابي الخطاب بن السمح القائم بدعوة الاباضية في طرابلس وبين رنجومة فقتلهم قتلا ذريعاً . قيل وبذلك سميت رقادة لكثرة القتلى فيها ، وكان تغلب عبيد الله الملقب بالمهدي على رقادة وطرد بني الاغلب عنها في شهر ربيع الاول من سنة ٢٩٧ واستقر بها ملكه اه ملخصاً منه

ثم انصرف عنها خائباً ولم يفتتحها ، فغاظ ذلك عبيد الله ، فوجه اليها ولده أبا القاسم الملقب القائم بأمر الله في جيش ، وكان ذلك في سنة ٣٠٣ فحاصرها وضيق عليهم الى أن فني طعامهم — وقد كانوا أسمعوه شراً ونالوا من عرضه — فسالمهم في أنفسهم الا قليلا منهم ، وأغرمهم ما أنفق على الجيش ، وذلك أربعمائة ألف دينار ، وولى تغريمهم وتعذيبهم خليل بن اسحاق من أبناء جندها وولد بها ، وكانت له صولة وهيبة وحظ جليل من العلم ، وباع متسع في الأدب ، واستخلف عليها القائم واليا من قبله . ثم انصرف عنها متوجها لمصر بجيوشه فلحق بها في سنة ست وثلاثمائة فأخذ الاسكندرية وأكثر الصعيد ، وكان أبوه المهدي قبل ذلك سنة احدى وثلاثمائه قصد مصر في أربعين الفاً ليأخذها فرد خائباً ثم رجع ولم تزل طرابلس تحت ولايته وولاية ابنه المنصور ثم ابنه المعز لدين الله معد الى أن أصاب مصر غلاء شديد أضعفهم وكان ذلك سنة ٣٥٣ بعد وفاة كافور الاخشيدي الخصي المكني بأبي المسك ، كان عبداً حبشياً أسود اشتراه محمد الاخشيد بن طغج التركي الفرغاني المتغلب على مصر زمن الراضي العباسي ، فانه تملكها قهراً ثم وصل له التقليد من الراضي عن كُره

وقد كان كافور[1] هذا تولى ملك مصر بعد وفاة ابني سيده: أبي القاسم وأبي الحسن وكانت في صفر سنة ٣٥٥ فأقام سنتين وأربعة أشهر ، وكان يدعى له على المنابر بمصر والشام والحجاز وله مآثر حميدة ، ودفن بالقرافة . وكان خبيراً بالسياسة ، فطناً ذكياً ، جيد العقل . وكان يداري ويخدع ، فكان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ويدعي الطاعة لبني العباس . وقد وقعت في أيامه

(١) اشتراه سيده الاخشيد بثمانية عشر دينارا ، اي باقل من اثنى عشر جنيها مصريا ثم اعتقه بعد ان رباه ورقاه حتى جعله من كبار قواد الجيوش ، وظهرت مواهبه وفضله وحزمه وسياسته حتى صار اهلا للملك ووثب وهو على الملك . اه من كتاب نظام النفقات في الشريعة الاسلامية للاستاذ احمد ابراهيم

زلزلة ففرّ الناس منها فأنشد بعض الشعراء :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنها رقصت من عدلكم طربا

ولما مات تولى أبو الفوارس أحمد بن علي بن الاخشيد ، وكان صغيراً لم يحسن الأمر ، ولم يبق بمصر من تجتمع عليه القلوب بعد كافور ، وأصابهم الغلاء ، وكانت للمعز جواسيس بمصر في أيام كافور يراسلونه : « انك ان زال الحجر الاسود ملكت الدنيا » يعنون به كافورا . فلما مات راسلوا المعز فوجه اليهم جوهرا القائد في مائة ألف فتسلم مصر بلا قتال فلما وطيء مصر وارتفعت منها الخلافة العباسية بنى له القاهرة مفاخرة لبغداد بني العباس سنة ٣٥٨ وشرع في بناء الأزهر سنة ٣٥٩ وأتم بناءه سابع رمضان سنة ٣٦١ . ولما بلغه اتمامها انتقل اليها المعز لدين الله محمد ، بن المنصور اسماعيل ، بن القائم بأمر الله ، بن المهدي بأمر الله عبيد الله ، ابن الحسين بن محمد ، بن قداح . وهو أول ملوك العبيديين . تولى خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر . وكانت ولايته سنة سبع وسبعين ومائتين ، وهو الذي ابتنى مدينة المهدية بأفريقية واليه تنسب . ثم تولى ابنه القائم بأمر الله أرض المغرب وافريقية وطرابلس اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر . ثم تولى ابنه المنصور مملكته اثنين وثلاثين عاماً . ثم تولى المعز المغرب وافريقية وطرابلس ومصر أربعاً وعشرين سنة ، وكان انتقاله لمصر سنة اثنتين وستين وثلاثمائة كذا ذكر الشيخ مرعي في تاريخه مدة تولى كل منهم . ولم أره لغيره ، ولا يصح شيء من ذلك لمن تأمل كلامه . وذلك أنه اتفق على أن عبيد الله المهدي دعى له بالخلافة سنة سبع وتسعين ومائتين وهو بسجلماسة ، ثم قدم افريقية وافتكها من يد الشيعي وفي سنة احدى وثلاثمائة جهز لطرابلس ومصر جيشاً فرد خائباً كما مر ، وحاصر طرابلس سنة ثلاث وثلاثمائة على يد ابنه القائم بأمر الله فافتتحها ، ولحق بمصر سنة ست وثلاثمائة ، وأخذ الاسكندرية وأكثر الصعيد ، ثم انتقضت عليه .

وقد ذكر أن مدة توليهم — غير المعز — تسع وستون سنة وعشرة أشهر منها ثلاثة تكملة الثلاثمائة ، وبقيت سبع وستون وثلاثمائة الا شهرين ، مقتضى ذلك أن ولاية المعز كانت فيها . وقد ذكروا أن المعز انتقل الى مصر بعد أن أفضى اليه الملك سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وأقام في الملك أربعة وعشرين عاماً ، وهو يقتضي أن ابتداء ولاية المعزّ كان في سنة سبع وستين ، ففي كلامه أولاً وآخراً تناقض لا يخفى

ولما انتقل المعز سنة اثنتين وستين وثلاثمائة من دار ملكه التي هي صبرة (١) الى مصر ، وعزم على اتخاذها دار ملكه — وكان فيما يزعمون عنده أثارة من علم الحدثان عرف بها مصائر أحواله ، وأهل الغنية من أعيان رجاله . وكانت عنده علامة لخليفته على افريقية اذا صار اليه الملك يأنس بها أنس الكبير بذكر شبابه ، ويعرفها عرفان العاشق بديار أحبابه — دعى زيري بن مناد ، وهو يومئذ من صنهاجة بمكان السنام من الغارب ، وبمنزلة الوجدان من نفس الطالب . وكان له عشرة من الولد فقال ادع لي بنيك فقد علمت رأيي فيهم وفيك ، وكان أصغرهم سناً ، وأهونهم عليه شأناً يوسف ، فدعا بنيه سواه . فلما أحضرهم بين يديه نظر في وجوههم فأنكرها ، حين فقد تلك العلامة فلم يرها ، فقال لزيري : هل غادرت من بنيك أحداً ، فلست أرى لمن هاهنا منهم يداً ، فقال الا غلاماً ، وطفق يحقر شأنه والمقدار عناه وأعانه ويطوي أخباره ، والاختيار يريد عليه مداره . فقال له المعز : لا أراك حتى أراه ، فلست أريد سواه . فلما رآه عرفه ، وفوض اليه من حينه واستخلفه

(١) صبرة : بالفتح ثم السكون ثم راء ، بلد قريب من مدينة القيروان ، وتسمى المنصورية . من بناء مناد ابن بلكين ، سميت بالمنصور بن يوسف بن زيري بن مناد . واسم يوسف بلكين الصنهاجي . والمنصور هذا هو والد باديس والد المعز بن باديس ، وكانوا ملوك هذه النواحي ، ومات المنصور هذا سنة ٣٧٦ وقد ولى ملك تلك البلاد ثلاث عشرة سنة وشهوراً . وقال البكري (صبرة) متصلة بالقيروان بناها اسماعيل بن القاسم بن عبيد الله سنة ٣٣٧ واستوطنها ، اه معجم

وتوجه لمصر ومعه ألف وخمسمائة حمل موسوقة ذهباً . وحمل توابيت آبائه صحبته ، ودفنهم بالقاهرة بقصره ، فلا رحمه الله ولارحم آباءه . فاستولى [يوسف] من وقته على الامور ، وزاحمت مهابته الاهواء في الصدور . وبعدت أسفاره واشتهرت أخباره ، واشتمل على طرفي الايام والليالي مورده واصداره ، ثم أجاب صوت مناديه ، وخلع الامارة على أعطاف بنيه حتى انتهت منهم الى المعز بن باديس

وفي أثناء امارتهم على افريقية استولى على طرابلس بنو خزرون الزناتيون ، ووقعت بينهم وبين الصنهاجيين حروب كثيرة من رامها فليراجع تاريخ الرقيق فان فيه غرائب وعجائب

ولما استولى المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بن زيرى بن مناد ، فأول ما افتتح به شأنه وثبت به دعم سلطانه اذية الرافضة أشياع بني عبيد خفية ، وبلغ ذلك أبا القاسم أحمد بن علي الجَرْجَرائي وزير الظاهر بن الحاكم العبيدي الذى بنى بجامع عمرو بن العاص تنوراً فيه مائة ألف درهم فضة ، وبعث له من القصر ألفاً ، ومائتين وتسعين مصحفاً [1] منها ماهو مكتوب كله بالذهب فأحرقها ، وبنى جامع الحاكم وسماه الانور ، بين باب النصر وباب الفتوح . وهو الآن خراب لتأسيسه على شفا جرف هار . وكان قاضيه يكتب على السجل : « قاضي القضاة ، قاضي عبد الله الامام الحاكم أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، على القاهرة المعزية ، ومصر والاسكندرية ، وأجناد الشام والرحبة والرقة والمغرب وأعمالها »

قال المؤرخون : لم يل مصر بعد فرعون شر من الحاكم . رام أن يدعي الالوهية ، وصار قوم جهال إذا رأوه قالوا : ياواحد يا أحد ، يامحيي يامميت . وأمر

(١) ذكرت هذه المصاحف وهذا التنور في الخطط التوفيقية عند الكلام على جامع عمرو ولم يذكر حرقها

الرعية بالقيام له عند ذكر اسمه في الخطبة وغيرها من مواضع الاجتماع . وكان كثير التلوّن لعنه الله ، مرة يأمر ببناء الكنائس ومرة يهدمها ، وبنى المدارس وجمع فيها الفقهاء والمشايخ وقتلهم وأخربها . وأمر بقتل الكلاب ، وحرم الملوخية ، وأغلق الاسواق نهاراً وأمر أن تفتح ليلا . وله قبائح كثيرة

وكانت دولة بني عبيد الناجمين [1] دولة رديئة تنتسب لفاطمة الزهراء رضي الله عنها كذبا وافتراء . وغرهم في ذلك نسبتهم الى الحسين بن محمد بن قداح ، كان مجوسياً ، وقيل يهودياً ، فظنوا أنه الحسين بن علي رضي الله عنهما وانما هم زنادقة مجوس أو يهود ، وعلى ذلك أكثر المؤرخين . وبهم ارتفعت الخلافة العباسية من مصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة كما ذكرنا ، وتسموا ظلما بالخلفاء وامراء المؤمنين ، وأقاموا مذاهب الرفض والشيعة وعطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء

وفي مدتهم ــ لعنهم الله ــ ضيعوا أئمة السنة قتلاً ونفياً وتشريداً . وأفردهم العلماء بالتأليف ، فمنهم أبو شامة [2] ، أفردهم بكتاب سماه « كشف ما كان عليه بنو عبيد ، من الكفر والكذب والكيد » . وكتب بعض أجلة بغداد من العلماء فيهم أيام الحاكم كتاباً بين أنهم ليسوا من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وانما هم كفار فساق وملحدون ، وزنادقة ومبطلون ، وللاسلام جاحدون ، عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء . الخ

وقال الرعيني : أجمع علماء القيروان أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة لما أظهروا من خلاف الشريعة . وقال أبو الحسن القابسي من علماء القيروان :

---

(١) سمى المؤلف دولة بني عبيد في مصر بالناجمة لان دولتهم تاسست في افريقية بسجلماسة واول من انتقل منهم الى مصر هو المعز لدين الله سنه ٣٦٢ وهو الذي بنى مدينة القاهرة

(٢) هو الامام الحافظ ابو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي توفي بها سنة ٦٦٥ وكنيته ابو شامة

ان الذين قتلهم عبيد الله و بنوه من العلماء و العباد أربعة آلاف رجل ليردوهم عن الترضي عن الصحابة فاختاروا الموت . ويا حبذا لو كان رافضياً ، ولكنه زنديق . وقال تقى الدين ابن تيمية : بقى ولاة القاهرة نحو مائتى سنة على غير شريعة الاسلام . وكانوا يظهرون أنهم رافضة ، وهم في الباطن اسماعيلية ونصيرية وقرامطة وباطنية . وكذا قال الغزالى في كتابته في الرد عليهم : ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض . والذى يوجد في بلاد الاسلام من الاسماعيلية ، والنصيرية والقدرية من أتباعهم . وكانوا - وهم بالقاهرة - يستوزرون مرة يهوديا ومرة نصرانياً أرمنياً ، فبذلك كثرت الكنائس والديور في أرض المسلمين . وكانوا ينادون بين القصرين بمصر : من لعن الصحابة فله دينار وأردب . وكانوا من شر الخلق ، فيهم قوم زنادقة دهرية لايؤمنون بالآخرة ، ولم يستوزر أحد منهم مسلما على مقتضى كلام ابن تيمية الا الظاهر لاعزاز دين الله على ولد الحاكم فانه استوزر أبا القاسم أحمد بن على الجرجرائي[1] احد رجال الدنيا سياسة ودهاء ، وبعد غور ، ونفوذ فكرة

ولما بلغه اذاية المعز بن باديس أشياع بنى عبيد بمصر بذلك ، وكان مستميلا للمعز معرضاً بالتحزب معه على بنى عبيد

(١) ابو القاسم على بن احمد من الدهاة ولد فى جرجرايا (بسواد العراق) وسكن مصر فتنقل في الاعمال السلطانية وكثر التظلم منه في ايام الحاكم الفاطمي فقبض عليه في سنة ٤٠٣ ه واطلق ثم صدر الامر بقطع يديه سنة ٤٠٤ ه فقطعتا . واستوزره الظاهر الفاطمى سنة ٤١٨ واقره بعده المستنصر ولقب بالوزير الاجل الاوحد اه ص كتاب الاعلام للزركلي

نقض المعز بن باديس عهد العبيديين (١)

« ودعوته للخليفة العباسي ببغداد »

فانتهى أمر المعز في أذية أتباعهم حتى بدأهم بالقتل وصرح بلعن بني عبيد على المنابر وأرسل [الى] أمير المؤمنين القائم بأمر الله عبد الله ، بن القادر بالله أحمد ، ابن المقتدر بالله ، بن المعتضد ، بن الموفق ، بن المتوكل على الله جعفر ، بن المعتصم بالله محمد بن المأمون عبد الله ، بن هارون الرشيد ، بن المهدي محمد ، بن أبي جعفر المنصور ، بن محمد ، بن علي ، بن عبد الله ، بن العباس ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، ببغداد . وخطب له بأرض المغرب وافريقية ، وكتب له العهد ، وأرسل له الخلعة واللقب على طريق القسطنطينية قيل وكتب المعز للجرجرائي — لما كان يظن به من التحزب معه على بني عبيد — قطعة تمثل فيها بقوله :

وفيك صاحبت قوما لا خلاق لهم لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا !

بخطه يشير بذلك لبني عبيد ، ويزعم انه انما أبقى عليهم بعض الابقاء من أجل حبه ، فلما وقف الجرجرائي عليها قال : ألا تعجبون من هذا الامر ؟ صبي مغربي بربري ، يحسب أن يخدع شيخاً بغدادياً عربياً . واتهمه بأنه انما فعل ذلك ليوقع بين القوم ووزيرهم ان عثروا على هذه الرموز . فأقسم لاجيشن عليه جيشاً ولا تحملن فيه نصباً

---

(١) تولى المعز بن باديس على افريقية سنة ٤٠٨ وكان تابعا للدولة العبيديين في مصر يخطب لهم على المنابر ويضرب السكة باسمهم وكان يميل الى مذهب اهل السنة والجماعة واستمر يكتم هذا الامر الى سنة ٤٤٣ فجاهر به واعتنقه وخالف اسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة اهـ. من التبيان لرأفة بك (ص ١٧٩ و ١٨٠) وهو من بني زيري الذين استنابهم العبيديون على افريقية حينما رحلوا الى مصر سنة ٣٦٢

دخول العرب الى افريقية

وكان المستنصر العلوي صاحب مصر بلغه ما فعل المعز من قطع الخطبة له وخطبته للقائم بأمر الله ، فكاتب المعز وتهدده . فلما بلغ كتابه المعز أغلظ له في الجواب فكلف الوزير الجرجرائي — على ما ذكر ابن بسام — العرب العبور اليه . وكانت بطونا من بني عامر بن صعصعة : زغبا وبني عدى ، والاثبج[1] ، ورياح وغيرهم نزل بالصعيد ، لا يسمح لها بالرحيل ، ولا يخلى بينها وبين اجازة النيل ، فأفرج لهم الجرجرائي على السبيل وأذن لهم في المعز : أمنية طالما سرت اليها أطماعهم ، وعلقت عليها أسماعهم وأبصارهم . فغشيه منهم سيل العرم ورماه منهم بدؤلول ابنة الرقم[2] ، فتهاون المعز بهم أولا ، فشغلهم بخدمته وأثقلهم بأعباء نعمته ، وهم في أثناء ذلك يتمرسون بحيانه ويدبون الى أنصاره وحماته ، ويطلعون على مقاتله وعوراته حتى بان لهم شأنه ، وهان عليهم سلطانه . فجاهروه بالعداوة وراودوه على الاتاوة . فأغص الجرجرائي أهل افريقية بريقهم . حاجة كانت في نفسه من افساد هذه البلاد تعجل قضاءها . اهـ مالابن بسام باختصار

وقال ابن الاثير : ان الذي أقطع العرب النيل الوزير اليازوري استوزره المستنصر العلوي ولم يكن من أهل الوزارة ، وانما كان من أهل النيابة والفلاحة ، فلم يخاطبه المعز بما كان يخاطب من خلفه . كان يخاطبهم بعبده ، فخاطب اليازوري

(١) كانت بالاصل الاثبج وهو غلط قال ابن خلدون : والاثبج من الهلاليين اوفر عددا واكثر بطونا وهم الذين تم لهم الغلب على صنهاجه بافريقية على الضواحي

(٢) اى بداهية بنت داهيه

قال في اللسان : والدؤلول الداهية والجمع الدآليل . وقال في حرف الميم الرقم بكسر القاف : الداهية ومالا يطاق له ولا يقام به ، قال الاصمعي : جاء فلان بالرقم الرقماء كقولهم بالداهية الدهياء . قال الجوهري الرقم بكسر القاف الداهية وكذلك بنت الرقم

بصنيعته فعظم عليه ذلك وعاتبه فلم يرجع الى مايحب . فأكثر الوقيعة في المعز وأغرى به المستنصر ، وشرعوا في ارسال العرب الى المغرب ، فأصلحوا بين بني زعب ورياح وكانت بينهم حروب وأحقاد ، وأعطوهم مالا وأمروهم بقصد بلاد القيران وملكوهم كل مايفتحونه ، ووعدوهم بالمدد والعدد

واختلف فيما أعطوهم من المال ، قيل لكلّ فروة ودينار ، وقيل غير ذلك ، فدخل العرب افريقية وكتب اليازوري الى المعزّ :

« أما بعد فقد أرسلنا اليكم خيولا فحولا ، وحملنا عليها رجالا كهولا ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا » فلما حلوا ببرقة وما والاها وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الاهل لان زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعز فأقامت العرب بهـا ، فاستولوا عليها وعاثوا في أطراف البلاد وبلغ ذلك المعز فاحتقرهم

وكان المعز لما رأى تقاعد صنهاجة عن قتال زناتة اشترى العبيد ووسع لهم في العطـاء فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك ، وأقامت العرب فملك بنوزعب مدينة طرابلس سنة ست وأربعين وأربعمائة ، فتتابعت رياح والاثبج وبنو عدي الى افريقية ، وقطعوا السبيل ، عاثوا في الارض وأرادوا الوصول الى القيروان . فقال موسى بن يحيى المرداسي : ليست المبادرة عندي برأي ، فقالوا وكيف تحب أن نصنع ؟ فأخذ بساطاً فبسطه ثم قال لهم : من يدخل وسط هذا البساط من غير أن يمشي [عليه] ؟ قالوا لايقدر على ذلك ، فقال هكذا القيروان ، خذوا شيئا فشيئاً حتى لايبقى الا القيروان نخذوها حينئذ . قالوا انك لشيخ العرب وأميرها وأنت المقدم عليها ، ولسنا نقطع أمراً دونك

ثم قدم أمراءالعرب الى المعز فأكرمهم ، وبذل لهم شيئاكثيراً فلماخرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الاحسان ، بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزرع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن ، فضاق بالناس الأمر ، وساءت أحوالهم ، وانقطعت أسفارهم ،

ونزل بأفريقيا بلاء لم ينزل بها مثله قط . فعند ذلك احتفل[١] المعز وجمع عساكره وكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلهم رجالة ، وسار من دار ملكه وهي صبرة ـ وهل هي زواغة التي هي مدينة بينها وبين طرابلس مسيرة يوم ، وزواغة وصف لها وليس بعلم ، والعلم هو صبرة ، أو هي صبرة التي بأفريقية ؟ وهو الاظهر[٢] ـ حتى قدم جندارا ، بينه وبين القيروان ثلاثة أيام ، وكان عدة العرب ثلاثة آلاف فارس ، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم ، فقال موسى بن يحيى : « ماهذا اليوم يوم فرار ، اليوم يوم العينين[٣] » . والتحم القتال واشتدت الحرب فانقلبت صنهاجة على الهزيمة ، وتركوا المعز مع العبيد حتى يروا قتالهم ويقتل أكثرهم فعند ذلك يرجعون ، فانهزمت صنهاجة وثبت المعز مع العبيد حتى قتل منهم خلق كثير ، وأرادت صنهاجة الرجوع فلم يمكنهم ذلك ، واستمرت الهزيمة ، وقتل من صنهاجة كثير ، وانتقل المعز الى القيروان مهزوما على كثرة من معه ، وأخذ العرب الخيل والخيام وما فيها من المال وغيره ، وفيها يقول علي بن رزق الرياحي :

وانّ ابن باديس لأحزمُ مالك ... ولكن لعمري مالديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ... ثلاثين ألفا إنّ ذا لنكال

وكان توجههم لأرض المغرب من مصر سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ولقيهم المعز وجيشه سنة ست وأربعين وأربعمائة

ولما دخل القيروان مهزوما جمع في يوم النحر من هذه السنة سبعة وعشرين

(١) قال في اساس البلاغة : حفل القوم واحتفلوا : اجتمعوا

(٢) لامعنى لهذا الاستفهام من المؤلف فهي غيرها قطعاً وسيأتي له تفسيرها بالمنصورية . انظر الكلام على صبرة في صحيفة ١٩

(٣) لم تكن واضحه بالاصل ورسمها يشبه (العنيين) و(العيين)

ألف فارس ، وسار الى العرب [في] جريدة [١] وسبق خبره ، فهجم عليهم وهم في صلاة العيد ، فركبت العرب خيولها وحملت فانهزمت صنهاجة وقتل منهم عالم كثير ، ثم جمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير ، فلما أشرف على بيوت العرب – وهي قبلي جبل جندار – انتشب القتال ، واشتعلت نيران الحرب ، وكان العرب سبعة آلاف فانهزمت صنهاجة وولى كل رجل منهم الى منزله ، وانهزمت زناتة ، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما لم يسمع بمثله ثم انهزم وعاد الى صبرة التي هي المنصورية [٢] ، وأحصي من قتل من صنهاجة اذ ذاك فكانوا ثلاثة آلاف وثلثمائة ، ثم أقبلت حتى نزلت مصلى القيروان ووقعت الحرب فقتل من زناتة بالمنصورية خلق كثير . فلما رأى ذلك المعز أباح دخول القيروان لما يحتاجون اليه من بيع أو شراء . فلما دخلوها وقعت فتنة عظيمة بين أهلها وبعض العرب فكانت الغاية الحرب وكان المعز سنة أربع وأربعين وأربعمائة بنى سور زويلة [٣] والقيروان . وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة حاصرته العرب بالقيروان الخ كما تقدم

وأشار المعز على الرعية بالانتقال الى المهدية [٤] لعجزه عن حمايتهم من

(١) قال في اساس البلاغة : وجاس جريدة من الخيل : وهى التى جردت من معظم الخيل لوجه

(٢) تفسيره هنا صبرة بالمنصورية يؤيد ما قلناه في صفحة ٢٦

(٣) زويلة بقرب المهدية بتونس بناها المهدى بعد ان اتم بناء المهدية وجعل بينهما مقدار رمية سهم وافردها بسور وابواب والمؤلف بقصد بناء سور زويلة تجديده

(٤) المهدية مدينة بتونس بناها المهدي وبه سميت ، شرع فى بنائها سنة ٣٠٣ ، وكمل سورها سنة ٣٠٥ ولما فرغ من احكامها قال : اليوم امنت على الفاطميات : يعني بناته ، . . . وفي سنه ٥٤٣ ارسل اليها رجار صاحب صقليه قائده جورجي بن ميخائيل – قال ابن خلدون : وكان من المسعره وافتكها من الحسن بن على ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، والتحق الحسن بعبد المؤمن بالمغرب . وبقيت في يد الفرنجة اثنتى عشرة سنة حتى افتكها عبد المؤمن في المحرم سنه ٥٥٥

وينسب الى المهدية هذه كثير من أهل الفضل منهم ابو الحسن على بن محمد بن ثابت الخولانى المهدي المعروف بالحداد ، وهو القائل :

الغرب ، وأقام المعز والناس ينتقلون الى المهدية الى سنة تسع وأربعين وأربعمائة - فانتقل اليها في شعبان فتلقاه ابنه تميم - وكان المعز قد ولاه سنة خمس وأربعين وأربعمائة أحسن قبول . وكانت واقعة بين عبيد تميم وعبيد المعز ذلت بها عبيد المعز وكانوا يبلغون المعزّ عن ابنه ما يكره ، فلما رآه رأى ما سره منه وسلم اليه الأمر ، ولم يزل بها المعزّ الى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة فتوفي رحمه الله . وكان ملكه سبعاً وأربعين سنة ، وكان عمره لما ملك احدى عشرة سنة ، وقيل ثمان سنين وستة أشهر

وكان رحمه الله تعالى رقيق القلب خاشعاً متجنباً لسفك الدماء الا في حد حليما يتجاوز عن الذنوب العظام ، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه ، مكرماً لأهل العلم كثير العطاء لهم ، كريماً ، وهب مرة مائة ألف دينار للمستنصر الزناتي ، كان عنده ، وقد جاءه هذا المال فاستكثره ، فأمر به فأفرغ بين يديه ثم وهبه له فقيل له لم أفرغته من أوعيته ؟ فقال : لئلا يقال : لو رآه لما سمحت به نفسه .

وكان له شعر حسن ، ولما مات رثاه الشعراء ومنهم أبو الحسن بن رشيق فقال :

لكل حي وان طال المدى هلك   لاعزُّ مملكة يبقي ولا ملك
ولا المعز على أعقابه فزعاً   أو كان ينهدُّ من أركانه الفلك (١)

فالت وأبدت صفحة   كالشمس من تحت القناع
بعت الدفار وهي آ   خر ماباع من المتاع
فاجبتها ويدى على   كبدى وهمت بالصداع
لا تعجبي مما رأيـ   ـت فنحن في زمن الصياع

والمهدية ايضا مدينة تقع من مراكش في جنوبها الغربي على مسافة عشر مراحل ، احتطها عبد المؤمن وسماها بهذا الاسم معجم

(١) روى صاحب (النتف) هذا البيت هكذا :

ولى المعز على اعقابه فرمى   أو كاد .... الخ

ووضع عليه علامة استفهام هكذا ؟ وروى البيتين الاخيرين هكذا :

ولم يجد بقناطير مقنطرة   قد ارعيت باسمه ابريزها السكك
راح المعز وروح الشمس قد قبضا   فانظر بأي ضياء يصعد الفلك

ورواية المؤلف في البيت الاخير اوضح في المعنى من رواية صاحب النتف

مضى فقيراً وأبقى في خزائنه هام الملوك وما أدراك ماملكوا
ما كان الا حساماً سله قدر على الذين بغوا في الارض وانهمكوا
كأنه لم يخض الموت بحر وغى خضر البحار اذا قيست برك
ولم يجد بقناطير مقنطرة قد توجت باسمه ابريزها السكك
روح المعز وروح الشمس قد قبضا فانظر بأى ضياء يصعد الملك

ولاية تميم بن المعز بن باديس

ولما توفي ملك ابنه تميم . وكان مولده بالمنصورية منتصف رجب من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، واستقل بالملك ، واتخذ دار ملكه المهدية لأنها محل ولايته في حياة أبيه كما ذكرنا . ولما استقل بالملك سلك مسلك أبيه في حسن السيرة ومحبة أهل العلم ، الا أن عمال أبيه الذين في البلدان قد طمعوا في الاستقلال بالملك بسبب تغلب العرب . وكانت هيبة بني باديس قد وهت أيام المعز بما كان من الاعراب ، فلما مات ازداد طمع العمال في الاستقلال وأظهر كثير منهم الخلاف

فممن أظهر الخلاف عليه القائد حمّو بن مليل (٢) قائد صفاقس واستعان بالاعراب ، ووقعت بين أصحاب تميم وحمو وقعة كانت لأصحاب حمو على أصحاب تميم . وكان المظفر بن علي كاتباً لحمو ، وكان بليغاً مشهوراً بالبلاغة وحسن الكتابة ، وكان يكتب عن حمو الى تميم مايغيظه ، وبلغ منه كل مبلغ . فلما كانت بين أصحابهم الوقعة المذكورة واستأصل فيها اصحاب حمو أصحاب تميم كتب مظفر الى تميم كتاباً تمثل فيه بقول أبي الطيب :

---

(١) كانت بالاصل مليك والتصحيح من ابن خلدون فقد قال في عدة مواضع حمو بن مليل البرغواطي صاحب صفاقس

فان كان أعجبكم عامُكم فعوداً الى مصر في القابل
فان حسام الخصيب الذي قُتلتم به في يد القاتل

وكان قد تحدث في المهدية بموت حمُّو وبلغ ذلك حمُّو فأمر مظفراً أن يكتب الى تميم في هذا المعنى ، فكتب اليه متمثلا بقول أبي الطيب :

كم قد دفنت وكم أقبرت عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن (١)
ما كل مايتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لاتشتهي السفن

وكتب تميم مرة لحمُّو يعظه ويتهدده ، وتمثل فيه بقول الشاعر :

ستعلم ليلى أيَّ دين تداينت وأيَّ غريم للتقاضي غريمها

فراجعه عنه مظفَّر متمثلا بقول قيس بن ذريح :

ستعلم ان شطت به غربة النوى وزالوا بليلى أنّ عقلك زائل

وقيل انه تمثل في مراجعته عن هذا الكتاب بقول جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يامربع

قلت : وهذا أظهر في الجواب من ذلك

وكتب تميم الى حمُّو - بأثر وقعة كانت لتميم عليه - كتاب ايناس والطاف فراجعه في الجواب مظفر متمثلا بقول عبد الله بن محمد العطار :

لاتظنن امرءاً أغضبه سبب ثم انقضى ذاك السبب
سالمَ الصدر من الحقد ولو أكثر الود ولم يبد الغضب
كرماد النار يبقى حرُّها كامناً فيه ولو زال اللهب

فبذلك تأكدت الوحشة بينهما ، واستعان حمو بالعرب وقصد حصار المهدية

(١) الشطرة الاولى فى ديوان المتنى هكذا (كم قد قتلت وكم قد مت عندكم) وفيه بيت ثان بين البيتين اللذين ذكرها المؤلف وهو :

(قد ن شاهد دفنى قبل قولهم جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا ما كل الخ

فخرج اليه تميم وصافه فاقتتلوا فانهزم حمّو وأصحابه وكثر القتل فيهم ونجا حمّو بنفسه ، وتفرقت خيله ورجاله . وكان ذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وكان التقاؤهما بسلمطة [1] ، وبها كانت الوقعة ثم سار تميم الى سوسة [2] وكان أهلها قد خالفوا أباه المعز وعصوا عليه _ فملكها وعفا عنهم

وفي سنه سبع وخمسين من التاريخ المذكور وقعت بين تميم والناصر بن علناس الصنهاجي حروب عظيمة وكان سببها أن حماد بن بلكين جد الناصر كان بينه وبين عمه باديس بن المنصور أبي المعز جد تميم خلاف وشقاق أوجب مسير باديس اليه وحاصر قلعة بني حماد ، ولولا تلك القلعة لاخذه سريعاً ومات باديس وهو محاصر لها وتولى ابنه المعز فبايعه حماد على ضغن منعه من اظهاره العجز ، ومات وتولى ابنه قائداً ، ودخل تحت طاعة المعز على ما كان عليه أبوه . وكان يضمر الغدر وخلع طاعة المعز والعجز يمنعه من ذلك الى أن رأى قوة العرب وما نال المعز منهم خلع الطاعة واستبد بالبلاد ، وبعده ولده محسن ، وبعده ابن عمه بلكين بن محمد ، وبعده ابن عمه الناصر بن علناس بن محمد بن حماد ، وكل منهم متحصن بالقلعة ، وقد جعلوها دار ملكهم . فلما رحل المعز من صبرة والقيروان الى المهدية تمكنت العرب ونهبت

(١) هكذا الاصل قلت سلسلة برقه واصل التى ذكرها المؤلف (سبيطلة) وهى مدينة من مدن افريقية بينها وبين القيروان سبعون ميلا . وقال بعض السياح : بنى جامع القيروان باحجار حملت من خرائب سبيطلة

(٢) سوسة بلفظ واحدة السوس : مدينه صغيرة بينها وبين صفاقس يومان ، وبينها وبين المهدية ثلاثة أيام وتقع على نحو ١١٠ كيلومترات الى الجنوب والشرق من مدينة تونس وقد احاط بها البحر من الشمال والجنوب والشرق . وبسورها باب الى جهة القيروان يقال له باب القيروان واليها تنسب الثياب السوسيه الفاخرة . وقد ارسل اليها معاوية بن خديج عبد الله بن الزبير فى جمع كثيف . وكان البطريرك نقفور جاء من قبل ملك صقلية لاحتلالها . فسار عبد الله بن الزبير حتى وصل باب المدينة فنزل عن فرسه وصلى بالناس العصر ، ولما فرغ من صلاته _ وكان العدو قد اخذ في الهجوم عليهم _ شد عليهم فهزمهم . وقد بنى سورها زيادة الله بن الاغلب ، وكان يقول :

لا ابالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي اربع حسنات : بنيان المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيان قنطرة الربيع ، وبنيان حصن مدينة سوسة . وتوليتى أحمد بن ابى محرز قضاء افريقية اهـ معجم

الناس ، وخربت البلاد وانتقل كثير من أهلها الى بلاد بني حماد لكونها جبالا وعرة يمكن الامتناع بها من العرب ، فعمرت بلادهم ، و كثرت أموالهم ، وبقيت في نفوسهم الضغائن من باديس ومن بعده من أولاده يرثها صغير عن كبير الى أن ولي تميم الأمر بعد أبيه فاستبد كل من هو ببلد أو قلعة من عمالهم بمكانه وتميم يداري ويتجلد . واتصل به أن الناصر بن عَلَنَّاس يقع فيه في مجلسه ويذمه ، وانه عزم على المسير ليحاصره في المهدية ، وانه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية . فلما صح ذلك عنده أرسل الى أمراء بني رياح فأحضرهم اليه وقال : « أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثره في البحر ، لا يقابل منه في البر غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلا ، وانما جمع الناصر هذه العساكر اليسير اليكم » فقالوا له : الذي تقول حق ، ونريد منك المعونة ، فأعطاهم المال والسلاح من السيوف والرماح والدرق ، فجمعوا قومهم وتحالفوا على لقاء الناصر ، وأرسلوا الى من مع الناصر من بني هلال يقبحون عندهم مساعدتهم للناصر ويخوفونهم منه ان قوى ، وانه يهلكهم عن معه من زناتة وصنهاجة ، وانه انما يستمر لهم المقام والاستيلاء على البلاد ان دام الخلف وضعفُ السلطان . فأجابهم بنو هلال الى الموافقة ، وقالوا اجعلوا أول حملة تحملونها علينا ونحن ننهزم بالناس ، ويكون لنا ثلث الغنيمة ، فأجابوهم الى ذلك واستقر الأمر . وأرسل المعز بن زيرى الزناتي الى من مع الناصر من زناته بنحو ذلك ، فوعدوه أيضا أن ينهزموا . فحينئذ رحلت رياح وزناتة جميعها وسار اليهم الناصر بصنهاجة وزناتة وبني هلال فالتقت العساكر بمدينة سبيبة[1] فحملت رياح على بني هلال ، وحمل المعز على زناتة فانهزم الطائفتان وتبعهم عسكر الناصر منهزما ، ووقع فيهم القتل ، فقتل فيمن قتل القاسم بن علناس أخو الناصر . وكان مبلغ من قتل من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرين ألفاً ، وسلم الناصر في نفر يسير ، وغنمت العرب جميع ما كان في العسكر

(١) سبيبة : ناحية من اعمال القيروان ، واليها ينسب ابو عبدالله محمد بن ابرهيم السبيي خطيب المهدية

من مال وسلاح ودواب وغير ذلك واقتسموها على ما استقر بينهم . وبهذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد . فانهم قدموها من ضيق وفقر وقلة دواب فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم ، وقل المحامي عن البلاد . وأرسلوا الأموال والسلاح وخيم الناصر بدوابها الى تميم فردها وقال : يقبح ان آخذ سلب ابن عمي . فأرضى العرب بذلك

وعلناس : بفتح العين المهملة واللام والنون ، وبعد الالف سين مهملة

ولما كانت هذه الوقعة بين بني حماد والعرب ، وقويت شوكة العرب اغتم تميم لذلك وأصابه حزن شديد ، فبلغ ذلك الناصر وكان له وزير اسمه أبو بكر ابن أبي الفتوح ، وكان رجلا جيداً يحب الاتفاق بينهم ويهوى دولة تميم فقال للناصر : ألم أشر عليك أن تقصد ابن عمك وأن تتفقوا على العرب ؟ فانكما لو اتفقتما لأخرجتما العرب ، فقال الناصر صدقت ، ولكن لا مرد لما قدر ، فأصلح ذات بيننا . فأرسل الوزير رسولا من عنده الى تميم يعتذر ويرغب في الاصلاح فقبل تميم قوله وأراد أن يرسل رسولا الى الناصر ، فاستشار أصحابه فاجمع رأيهم على محمد بن البعبع وقالوا هذا رجل غريب وقد أحسنت اليه وحصلت له منك الاموال والاولاد ، فاحضره وأعطاه دواب وعبيداً وأرسله فسار مع الرسول حتى وصل الى موضع بجاية [1] ، وكانت حينئذ منزلا فيه رعية من البربر ، فنظر اليها محمد بن البعبع ، قال في نفسه ان هذا موضع يصلح أن يكون مرسى ومدينة ، وسار حتى وصل الى الناصر ، فلما وصل أوصل الكتاب وأدى الرسالة ، وقال للناصر : معي وصية اليك وأحب أن يخلى المجلس ، فقال الناصر

(١) بجاية – بكسر الباء – مدينة على ساحل البحر بافريقية . اول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى بن مناد ابن بلكين فى حدود ٤٥٧ . وكانت قديما ميناء ثم بنيت المدينة . وفي قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بنى حماد . وتسمى الناصرية أيضا باسم بانيها ، وبينها وبين ميلة ثلاثة أيام . وميلة هذه مدينة صغيرة في أقصى افريقية . ولما غزا المنصور بن المهدي كتامة في سنة ٣٧٨ زحف اليها فخرج اليه النساء والعجائز والاطفال ، فلما رآهم بكى وأمر الا يقتل منهم أحد . اه معجم

أنا لا أخفى على وزيري شيئا ، فقال بهذا أمرني الأمير تميم ، فقام الوزير أبو بكر وانصرف ، فلما خرج قال الرسول يامولاي ان الوزير مخامر عليك [1] وهواه مع الامير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئا وتميم مشغول مع عبيده وقد استبد بهم [2] وأضر بصنهاجة وغيرها ، ولو وصلت بعسكر الى المهدية مابت الا فيها لبغض الجند والرعية لتميم وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها ، وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملكه ويقرب من بلاد افريقية ، وقال له أنا انتقل اليك بأهلي وأدير دولتك ، فأجابه الناصر لذلك وأرتاب بوزيره وسارع مع الرسول الى بجاية وترك الوزير بالقلعة . فلما وصل الناصر والرسول الى بجاية أراه موضع البناء والبلد والدار السلطانية وغير ذلك ، فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل وسر بذلك وشكره وعاهده على وزارته ان رجع اليه ورجعا الى القلعة . فقال الناصر لوزيره : ان هذا الرسول محب لنا ، وقد أشار ببناء بجاية ويريد الانتقال الينا ، فاكتب له جواب كتابه ففعل . فسار الرسول وقد ارتاب به تميم حيث تجدد بناء بجاية عقيب مسيره اليهم وحضوره مع الناصر فيها

وكان الرسول طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الاخبار ويعود بها ، فأرسل معه رجلا يثق به فكتب معه : « اني لما اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية وقد عظم أمرها عليه وقد اتهمني ، فانظر من تثق به من العرب ترسله الى موضع كذا [3] فاني سائر اليهم مسرعاً ، وقد أخذت عهود زويلة وغيرها على طاعتك » وسير الكتاب .

فلما قرأه الناصر سلمه الى الوزير فاستحسن الوزير ذلك وشكره وأثنى عليه وقال : لقد نصح وبالغ في الخدمة فلا تؤخر عليه انفاذ العرب ليحضر معهم ،

---

(١) اي يكتم عنك اشياء ويسرها دونك (٢) في القاموس (استبد به : تفرد) ولعل المؤلف لا يريد هذا المعنى ، وانما يقصد ان تميما استبدبامور الناس بسبب عبيده لانهم قوته التي يعتمد عليها

(٣) كناية عن اسم المكان الذي تواعدوا على الملاقاة فيه

ومضى الوزير الى داره وكتب نسخة الكتاب وأرسل الكتاب الذي بخط الرسول الى تميم ، وكتابا منه يذكر له الحال من أوله الى آخره فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك وبقي يتوقع له سبباً يأخذه به الا انه جعل عليه من يحرسه في الليل والنهار من حيث لا يشعر . فأتى بعض أولئك الحرس الى تميم وأخبره ان الرسول صنع طعاما وأحضر عنده الشريف الفهري ، وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصه ، فأحضره تميم فقال : كنت واصلا اليك ، وحدثه ان ابن البعبع الرسول دعاني فلما حضرت عنده قال : أنا في ذمامك أحب أن تعرفني مع من أخرج من المهدية فمنعته من ذلك وهو خائف . فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه وأمره باحضاره ، فأحضره الشريف ، فلما وصل الرسول الى باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذين سيرهم الناصر ومعهم كتاب الناصر اليه يأمره بالحضور عنده فأخذ الكتب وخرج الأمير تميم ، فلما رآه ابن البعبع سقطت الكتب من يده فاذا عنوان أحدها : « من الناصر بن عَلَنَّاس الى فلان » فقال تميم من أين هذه الكتب ؟ فسكت فأخذها وقرأها ، فقال ابن البعبع : العفو يامولاي . فقال لا عفا الله عنك وأمر بقتله فقتل وحرقت جثته

استيلاء تميم على طرابلس

وجهز الامير تميم في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة جيشاً لطرابلس فأخذها بعد الحصر

وكان سببه أن أهلها كانوا كارهين لواليها من قبله [1] ولم تزل يده عليهم فلما وصل اليها شاه ملك من مصر ملكوه من البلد

(١) الذي تولى طرابلس قبل شاهملك هو خليفة بن خزرون وكان شديد البطش حتى اشتد بغض الاهالي له فقدموا عليه شاهملك وولوه امرهم

وملك شاه هذا من أولاد بعض أمراء الاتراك ببلاد المشرق . آله في بلاده أخرجوه منها فسار الى مصر في مائة فارس زمن الافضل وأمير الجيوش ، فأكرماه وأعطياه أقطاعا وأموالا ، ثم بلغهما عنه أشياء توجب اخراجه من مصر . فخرج هو وأصحابه هاربين ، واحتالوا حتى أخذوا سلاحاً وخيلا وتوجهوا الى المغرب فوصلوا الى طرابلس وملكوها بواسطة بعض أهلها والبها وأخرجوا واليها . فلما سمع تميم الخبر جهز العساكر اليها وضيقوا على الاتراك بها ففتحوها[1] ووصل شاه ملك معهم الى المهدية فسر به تميم ومن معه ، وقال : قد ولد لي مائة انتفع بهم ، وكانوا لايخطيء لهم سهم ، فلم تطل الايام حتى جرى لهم أمر غير تميما عليهم ، فعلم شاه ملك ذلك وكان داهية خبيثا ـ فخرج يحيى بن تميم الى الصيد في جماعة من أعيان أصحابه نحو مائة فارس ومعه شاه ملك ، وكان قد قدّم اليه ألا يقرب شاه ملك فلم يقبل ، فلما أبعدوا في طلب الصيد غدر به شاه ملك وقبض عليه وسار به وبمن أخذ من أصحابه معه الى صفاقس ، وبلغ الخبر تميما فركب وسير العساكر في أثرهم فلم يدركوهم ، ووصل شاه ملك بيحيى بن تميم الى صفاقس فركب صاحبها حمُّو بن مليل[2] ولقي يحيى ومشى في ركابه راجلا وقبل يده وعظمه واعترف له بالعبودية ، فأقام أياما ولم يذكره أبوه بكلمة وكان قد جعله ولي عهده ، فلما أخذ أقام أبوه مقامه ابناً له آخر اسمه « مثنى » ثم خاف حمو يحيى على نفسه أن يثور معه الجند وأهل البلد ويملكوه عليهم ، فأرسل الى تميم كتابا يسأله انفاذ الاتراك وأولادهم ليرسل اليه ابنه يحيى ، ففعل ذلك بعد اقتناع منه ، وقدم يحيى فحجبه أبوه عنده مدة ثم أعاده الى حاله ورضي عنه ، وجهز معه عسكرا الى صفاقس فسار

---

(١) وولى طرابلس محمد بن خزرون بن خليفة ، وبقي والياً الى زمن الحسن بن على بن يحيي بن تميم فاستبد بطرابلس هووبطانته من بنى مطروح ورفضوا دعوة الحسن وقومه ومنعوا المغارم والجباية . اه من تاريخ النائب (ص١٢٢)

(٢) كانت بالاصل مليك . والتصحيح من ابن خلدون

اليها وحصرها براً وأقام عليها شهرين ، وضيق على الاتراك بها ، واستولى عليها بعدأن فارقها الاتراك الى قابس

ولما أخذ الحسن أخاه المثنى وأخرجه تميم من المهدية قصد الامير بكر بن كامل الدهماني بقابس[1] ، وحسن له الخروج الى صفاقس والمهدية وأطمعه فيها وضمن الانفاق على الجند من ماله ، وجمع مثنى من يمكنه جمعه وساروا الى صفاقس ، وبلغهم أن جند تميم قدم عليهم وأنه لاطاقة لهم به ، فساروا عنها الى المهدية فنزلوا عليها وقاتلوها . وكان الذي تولى قتالهم من أهل المهدية يحيي بن تميم وظهرت منه شهامة وشجاعة وحسن تدبير ، فلم يبلغوا منها غرضاً وعادوا خائبين ، وتلف ماكان مع المثنى من مال وغيره ، وعظم أمر يحيي وصار هو المشار اليه

وتوفي تميم في رجب سنة احدي وخمسمائة . وكان شجاعا ذكيا له معرفة حسنة ، حليما ، كثير العفو على الجرائم العظيمة . عفا عن مظفر كاتب حمو الذي كان يكتب لتميم عن حمو مايغيظه ، وبلغ منه كل مبلغ لما وصل اليه حين فر حمو الى صفاقس ، وقد كان دخل عليه وهو لايشعر ، وحين مثل بين يديه طلب العفو فعفا عنه مع شدة حقده عليه ومثل هذا الذنب لاتغتفره الملوك ، بل تتجاوز فيه الى العقاب ، وتتعدى العقاب الى ضرب الرقاب

وكان له شعر حسن . فمنه أنه وقع حرب بين طائفتين من العرب : عدي ورياح ، فقتل رجل من رياح ثم اصطلحوا وأهدروا دمه ، وكان صلحهم مما يضر به وببلاده ، فقال أبياتاً يحرض على الطلب بدمه ، وهي :

متى كانت دماؤكم تُطَلُّ   أما فيكم بثأر مستقل
أغانم ثم سالم ان فشلتم   فما كانت أوائلكم تفل

(١) كانت بالاصل (اصفاقس) والتصحيح من ابن خلدون (ص ١٦٦ و ١٦٧ ، ج ٦) وقد ذكر الامير بكر بن كامل في امراء قابس حيث قال في الكلام عن بني جامع الهلاليين امراء قابس : فوليها بكر بن جامع من دهمان من بني علي احدى بطون رياح ، فقام بامرها واستبد على صنهاجة ولحق به مثنى بن تميم بن المعز نازعا عن أبيه فاجابه ونازل معه المهدية حتى امتنعت عليه الخ

ونمتم عن طِلاب الثأر حتى   كأن العز فيكم مضمحل
ولا كسرتم فيه العوالي   ولا بيضاً تُفَل ولا تُسَل

فعمد أخو المقتول حين سمعها فقتل أميراً من عدي ، واشتد بينهم القتال وكثرت القتلى حتى أخرجوا بني عدي من افريقية

ومن محاسنه أنه اشترى جارية بثمن كثير ، فبلغه أن مولاها الذى باعها ذهب عقله وأسف على فراقها ، فأحضره تميم بين يديه وأرسل الجارية الى داره ومعها الكسوات وأواني الفضة وغيرها ومن الفضة شيء كثير ، ثم أمر مولاها بالانصراف وهو لايعلم ، فلما وصل الى داره ورآها على تلك الحال خرّ مغشياً عليه لشدة سروره ثم أفاق ، فلما كان الغد أخذ الثمن وجميع ماكان عليها وعاد الى دار تميم ، فانتهره وأمره باعادة جميع ذلك الى داره

وكان له في البلاد أصحاب أخبار لهم أرزاق سنية ليطلعوه على أحوال أصحابه لئلا يظلموا الناس ، فكان بمدينة القيروان تاجر له مال وثروة فذكر بعض الأيام التجار تميما ودعوا له وذلك التاجر حاضر ، فترحم على أبيه ولم يذكره ، فرفع ذلك الى تميم ، فأحضره الى قصره وسأله : هل ظلمتك ؟ قال لا . قال فهل ظلمك بعض أصحابي ؟ قال لا . قال فلم أطلقت لسانك أمس بذمّي ؟ ثم قال له : لولا أن يقال شره في ماله لقتلتك . ثم أمر بصفعه في حضرته قليلا ، ثم أطلقه فخرج واصحابه ينتظرونه ، فسألوه ما الخبر ؟ فقال : « أسرار الملوك لاتذاع » فكانت بافريقية مثلا

وكان عمره ستاً وسبعين سنة ، تولى منها ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً . وخلف من الذكور مايزيد على المائة ، ومن الاناث مايزيد على الستين (١)

(١) وقد مدحه ابن رشيق القيرواني بهذين البيتين :

اصح واقوى ماسمعناه في الندى   من الخبر المأثور منذ قديم
احاديث ترويها السيول عن الحيا   ـن البحر عن كف الامير تميم

ومن شعره :

وخمر قد شربت على وجوه   اذا وصفت تجل عن القياس
خدود مثل ورد في ثغور   كدر في شعور مثل اس

ولاية يحيى بن تميم

ولما مات تولى ابنه يحيي في رجب من السنة المذكورة . وكان عادلا في رعيته ضابطاً لامور دولته ، رحيما بالضعفاء والفقراء ، يكثر الصدقة عليهم ، يقرب أهل العلم والفضل ، وكان عالما بالاخبار وأيام الناس والطب ، وكان حسن الوجه أشهل العين ، الى الطول ماهو [١]

ولما استقر في الملك جهز أسطولا الى جزيرة جربة . وسببها : أن أهلها يقطعون الطريق ويأخذون التجار ، فحصرها وضيّق على من فيها ، فدخلوا تحت حكمه ، والتزموا ترك الفساد ، وضمنوا صلاح الطريق ، فكف عنهم عند ذلك ، وصلح أمر البحر ، وأمن المسافرون [٢]. وتوفى سنه تسع وخمسمائة وكان موته فجأة يوم عيد الاضحى . وكان منجمه قد قال له في تسيير مولده : ان عليه قطعاً في هذا اليوم فلا تركب ، فلم يركب وخرج أولاده وأهل دولته الى المصلى ، فلما انقضت الصلاة حضروا عنده للسلام عليه وتهنئته وقرأ القراء وأنشد الشعراء ، وانصرفوا الى الطعام فقام يحيي من باب آخر ليحضر معهم على الطعام ، فلم يمش غير ثلاث خطوات حتي وقع ميتاً . وكان ولده علي بمدينه صفاقس فأحضر وعقدت له الولاية . ودفن يحيي بالقصر ثم نقل الى التربة بالمنستير . وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوما ، وكانت ولايته ثمان سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، وخلف ثلاثين ولدا ، ورثاه عند موته الشعراء ومنهم عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي بقصيدة ، وهنأ فيه ابنه علياً . وهي قوله :

ما أغمد العَضبُ حتى جرّد الذكر ولا اختفى قمر حتى بدا قمر

(١) يعنى انه مائل الى الطول

(٢) وكان قد اكثر من الاساطيل البحرية وصرف همه الى غزو النصارى ، ووجه البعوث الى دار الحرب حتى لقته امم النصرانية بالجزية . اه . ابن خلدون (ص ١٦٠ ، ج ٦)

يموت يحيى أميت الناس كلّهم حتى اذا ما علي جاءهم نشروا
ان يُبعثوا بسرور من تملكه فمن منية يحيى بالأسى قُبروا
وافى عليّ بسن الموت ضاحكة وعينه من أبيه دمعهُا همر
شُقّت جيوب الاعالي بالأسى فبكت من كل أفق عليه الأنجم الزهر
وقلّ لابن تميم حزن مأتمها فكل حزن عظيم فيه محتقر
قام الدليل — ويحيى لا حياة له — أن المنيةَ لا تُبقي ولا تذر

ولاية علي بن يحيى بن تميم

ولما تولى عليّ علت همته وأنف مما كان يفعله قواده ، ومنهم رافع بن بكر الدهماني قائد قابس . وكان لا يصنع أحد بافريقية أسطولا لحمل التجارة الا أميرها ، وكان رافع اصطنع في أيام يحيى أسطولا لحمل التجارة فلم ينكر عليه يحيى جرياً على عادته في المداراة . فلما استقر عليّ في الملك لحقته أنفة وبعث الى رافع يمنعه من ذلك فالتجأ الى رجار صاحب صقلية — لعنه الله واعتضد به ، فوعده — أن ينصره ويعينه على اجراء مركبه في البحر ، وأنفذ في الحال أسطولا الى قابس ، فاجتاز أسطوله بالمهدية فتحقق على اتفاقهما ، وكان اذا قيل له اتفقا على ذلك يكذبه فلما اجتاز الأسطول بالمهدية أخرج عليّ أسطوله إثره فتوافى الجميع الى قابس ، فلما شاهد رافع أسطول الافرنج و[أسطول] المسلمين لم يخرج مركب[1] ، فعاد أسطول الافرنج وبقي علي بحصن قابس مضيّقاً عليها ، ثم عاد الى المهدية . وتمادى رافع في المخالفة لعليّ وجمع قبائل العرب وسار بهم حتى نزل المهدية فحاصرها ، وخادع علياً وقال انما جئت للدخول في الطاعة ، وطلب من يسعى له في الصلح ،

(١) يعني ان رافعا لما شاهد اسطول الافرنج واسطول المسلمين ، وهو اسطول علي القادم من المهدية بقي اسطوله لم يخرج منه مركب

وأفعاله تكذب قوله فلم يجبه عليّ بحرف ، وأخرج العساكر فحملوا على رافع حملة منكرة فألحقوهم بالبيوت ووصل العسكر الى البيوت . فلما رأى ذلك النساء صحن وولولن ، فعادت العرب وعاودت القتال ، واشتد الأمر ودامت الحرب الى الغروب ثم افترقوا ، وقتل من أصحاب رافع بشر كثير ، ولم يقتل من جند عليّ غير جندي واحد من الرجالة ، ثم خرج عسكر عليّ مرة أخرى فاقتتلوا أشد من القتال الأول وكان الظهور فيه لعسكر عليّ فلما رأى رافع أنه لا طاقة له بهم رحل من المهدية ليلا الى القيروان فمنعه أهلها من الدخول فقاتلهم ثم دخلها ، فأرسل اليه عليّ عسكرا فحاصره الى أن خرج منها وعاد الى قابس ، ثم سأله جماعة من أعراب افريقية وغيرهم الصلح فأبى ثم أجاب .

وكانت استجارة رافع برجار سبب الوحشة بينه وبين عليّ ، وكانت بينهما مودة أكيدة ، فخاطبه رجار بقول لم تكن عادته أن يخاطبه به وأغلظ فيه ، فتأكدت الوحشة وحذر عليّ منه وأمر بتجديد الاسطول واعداد الأهبة للقاء العدو ، وكاتب المرابطين بمراكش في الدخول معه الى صقلية ، فكف رجار عما كان يعتمده ، وتوفي عليّ سنة خمس عشرة وخمسمائة في العشر الأواخر من ربيع الثاني . وكان مولده بالمهدية . وكانت امارته خمس سنين وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً

ولاية الحسن بن علي بن يحيي

وفي ذلك تولى ابنه الحسن بعهد منه ، وتولى أمر الدولة صندل الخصي مولاه . وفي أيام الحسن خرجت عن بيعته طرابلس ، وقصدها رجار صاحب

صقلية كما سنذكره ان شاء الله تعالى

وكان سن الحسن بن علي يوم ولايته اثنتي عشرة سنة . ولما تولى أمره صندل راسل أمير المؤمنين عليّ بن يوسف بن تاشفين الملثّم بمراكش لما كان بينه وبين والده من المودّة لما وقعت الوحشة بينه وبين رجار صاحب صقلية بسبب الاسطول الذي كان قد صنعه عامله مكنى بن كامل الدهماني والي قابس من قبله لحمل التجارة ، واستعانة مكنى بن كامل برجار ، واتفق أن وصل بأثر توليته أسطول أمير المؤمنين علي بن يوسف مع قائده علي بن ميمون الى بلاد رجار ، فافتتح منها حصوناً وسبى منها سبايا كثيرة فلم يشك النصراني أن الباعث لعلي بن يوسف على ذلك انما هو الحسن فاستجاش وحشد أجناده ومقاتلته وبالغ في كتم أمره بمنع السفن من سواحل المسلمين ، فلم يخف على الحسن مقصده وخشي أن يطرق بلاده دون أهبة له فأمر باتخاذ الأسلحة وتشييد الأسوار واستقدام القبائل من الأعراب وغيرهم للجهاد . فوصلت الحشود اليه من كل جهة ، ونزلت الأعراب بظاهر المهدية ، فلما كان يوم السبت لخمس بقين من جمادى الاولى سنة سبع عشرة وخمسمائة وصل أسطول رجار الى المهدية فرسي بالجزيرة المعروفة بجزيرة الاحاسى وهي على عشرة أميال من المهدية ، ونزل قائداه عبد الرحمن وجورجي الى الجزيرة وضربت لهما ولمقدمي الافرنج مضارب هناك وكان وصولهم آخر النهار فخرج منهم الى البر تلك الليلة خلق كثير وانبسطوا حتى تعدوا عن البحر أميالاً ثم عادوا الى الجزيرة ، ووصل القائدان في اليوم في البحر الى المهدية في بعض قطع ، فأطافا بها وانتهيا الى ساحل زويلة فهالهما ما رأيا بالاسوار والسواحل من الناس وانصرفا عائدين الى الجزيرة فوجدا طائفة من العرب والاجناد قد حطوا حواليها وكشفوا من كان بها من الروم عن مواضعهم ، وقتلوا منهم قوما ونهبوا بعض أسلحتهم ، فلما كان

اليوم الثالث تمكن النصارى من القصر المعروف بقصر الديماس[1] ، وحصل به زهاء مائة باعانة بعض الاعراب لهم على ذلك لما منّاهم به عبد الرحمن وصاحبه .

وقد كان رجار أمرهما بالنزول بجزيرة الاحاسي والتحيل على أخذ قصر الديماس بمباطنة العرب ، ثم الزحف من هنالك في البر بالرجال والخيل الى المهدية ، فلما كان في اليوم الرابع اجتمع المسلمون وخرجوا من المدينة وكبروا تكبيرة راعت من في الجزيرة فظنوا أنهم داخلون اليهم فانهزموا الى مراكبهم وقتلوا بأيديهم كثيراً من خيلهم ، ودخل المسلمون الجزيرة وليس بها أحد منهم ، فوجدوا بها خيلا وآلات وأسلحة أعجلهم الهربُ عنها ، وأحاطوا الديماس يقاتلونه والاسطول في البحر يعاين ذلك ولا يستطيع اغاثة من في القصر لكثرة ما اجتمع في البر من عساكر المسلمين . فلما عاينوا أنهم غير قادرين على انقاذ من بالقصر أقلعوا عائدين الى صقلية ، وأقام المسلمون يقاتلون من حصر بقصر الديماس منهم الى أن اشتد الحصار عليهم ، وفنى ماؤهم وطعامهم ، فخرجوا منه ليلة الاربعاء الرابع عشر من جمادى الآخرة ، فتخطفتهم سيوف الاعراب فقتلوهم عن اخرهم ، وهنىء الحسن بهذا الفتح . ولم يدر ما تحت طيه من المحنة التي خصت وعمت المسلمين ، وكتبت عنه في ذلك كتب الى سائر الجهات ، منها كتاب يقال في بعض فصوله :

« وان صاحب [صقلية] لَجَّ في طغيان غيه ، واستمر على عداوته وبغيه ، وحمله سوء تقديره وفساد تدبيره على اهتضام جانب الاسلام ، وتوهم أن ذلك سهل الملتمس قريب المرام ، فاستجاش وحشد ، واستنفر واستمد . ولما اشتملت له في ظنه أموره ، وكمل تدبيره الذي فيه تدميره ، سير أسطوله نحو المهدية ...

(١) قال ابن خلدون في اخبار الحسن بن على (ص ١٦١ ، ج ٦): وقصدوا (اي الفرنجة) الى المهدية ونزلوا الى الساحل وضربوا الابنيه ، وملكوا قصر (الدهانين) وجزيرة (الاملس) وتكرر القتال فيهم الى ان غلبهم المسلمون واقلعوا راجعين الى صقلية فقد سمى الجزيرة والقصر بغيرما ماسماها المؤلف

حماها الله ـ في نحو من الثلاثمائة مركب حاملة ثلاثين ألف راكب ، وزهاء الف فارس . وكان اقلاعه في طالع مقارن للنحوس ، قاض عليه باتلاف أمواله واهلاك النفوس . فمن أول ما أنشأه الله فيه من فعل الجميل ، وأظهره من عنايته التي لا يؤدى حقها بغير الشكر الجزيل ، أن أرسل عليهم ريحاً جرّت جميعهم الى التيار وأصلتهم بين الماء حر النار » في كلام طويل

ولما أقلع الاسطول الى صقلية خائبا خاسراً غاظ رجار ذلك . واتفق بأثر ذلك أن وصل الاسطول الملثم مرة أخرى ، وقائده محمد بن ميمون المذكور ، وقبل مغادرة بلاد رجار قتل وحمل نساءها سبياً الى بلاده . وكان رجار كلما وصل أسطول من المغرب الى بلاده نسبه الى الحسن ، فعزم العزم المصمم على غزو المهدية وأفشى في ظاهر الامر أن بينه وبين الحسن صلحاً وفي نفسه ما فيها لتتم خديعته ويتمكن من مراده .

وكان بين الحسن وبين ابن عمه يحيي بن [العزيز بن منصور [1]] بن الناصر ابن علناس المتقدم الذكر صاحب بجاية ما أوجب أن بعث في هذه المرة لمحاصرته بالمهدية أسطولا في البحر وجيشاً في البر قائده مطرف بن علي بن حمدون الفقيه ، فحصر المهدية براً وبحراً ، ونزل مطرف بجيشه بظاهر زويلة ، فاستمد الحسن رجار فأمده بأسطول ، فعلم مطرف بذلك فارتحل عن المهدية مسرعاً ، وكانت لرجار جواسيس بالمهدية فكتبوا اليه يعلمونه أنه بمرساها مراكب قد استوفت وسقها ، فأمر جرجي قائد اسطوله المتوجه للنصرة بالهجوم عليها وأخذها ، فأخذ ذلك غدراً وحملها الى صقلية [2] ، ثم هجم بعد ذلك على مرسى المهدية فأخذ منه مركبا

---

(١) كانت بالاصل يحيي بن المعز بن باديس بن المنصور الخ وهو خطا والصواب ما اثبتناه كما يؤخذ من ابن خلدون (ص ١٦٢ : ج ٦)

(٢) (صقلية) بثلاث كسرات وتشديد اللام ، والياء ايضا مشددة : مدينة على شاطىء بحر الروم الشمالي فيما يقابل افريقية . ويبلغ اتساع البحر بينها وبين افريقية في اقرب نقطة مائة واربعين ميلا ، وبها عدة مدن

للحسن قد احتفل به وشحنه بذخائر ملوكية ليوجه بها الى الحافظ العبيدي صاحب مصر، وكان ذلك المركب يسمى نصف الدنيا .

ولم يزل يوالي الغزو عليه بأساطيله - والمقدم عليها جرجي المذكور وهو العارف بالمهدية حاضرة وبادية ويسعفه في ذلك - الى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فلم يشعر الحسن صبيحة يوم الاثنين الثاني من صفر الا وقد طلع عليه جورجي المذكور [1] في ثلاثمائة مركب، فأرسى على بعد من المهدية، وكانت الريح منعته من الدخول الى المرسى فأرسل الى الحسن يخادعه، ويذكر أنه انما وصل لطلب عسكر يستعين به على أهل قابس ليرد اليها ابن رشيد واليها الفارّ اليه مستغيثا به - وله قصة طويلة من رامها فليراجع محلها - فعلم الحسن أنها مخادعة الى أن يتهيأ له الريح فيدخل اليها، وانه لم يصل الا بعد علمه بخلاء المهدية من العسكر، وكان الغلاء المتوالي على إفريقية أضعف أكثر جند الحسن وأهلك خيلهم، ومع ذلك كانت بقية العسكر في محاربة ابن خراسان بتونس عضداً لمحرز ابن زياد الفادعي صاحب المعلقة : فعزم الحسن على تسليم المهدية للنصارى وأمر في الحين بالرحيل عنها وخرج من القصر بما خف معه ومن أمكنه من أهله وولده وحشمه، وتبعه الناس فارين بما قدروا عليه من أهل وولد، وجرى عليهم في هذه الضغطة ما لم يكونوا يقدرونه . وكان الحسن يقول عند خروجه : « سلامة

وانهار ومتنزهات غناء وثمار جيدة . وفيها يقول ابن حمديس :

ذكرت صقلية والهوى يهيج للنفس تذكارها
فان كنت اخرجت من جنة فاني احدث اخبارها

افتتحها اسد بن الفرات سنة ٢١٢ في زمن زيادة الله بن الاغلب في ايام المامون . المعجم

قلت : وهي الآن من ممالك ايطاليا ولا تزال آثار المسلمين قائمة بها في كل ناحية وتسمى سيسيليا

(٢) هو جرجي بن ميخائيل الانطاكي قائد اسطول رجار . كان نصرانيا هاجر من المشرق وقد تعلم اللسان وبرع في الحساب وتهذب في الشام بأنطاكية وغيرها فاصطنعه تميم واستولى عليه، وكان يحيى يشاوره فلما هلك تميم اعمل جرجي الحيلة في اللحاق برجار فلحق به وحظى عنده واستعمله على اسطوله . من ابن خلدون (ص ١٦٩ : ج ٦)

المسلمين أحب الي من الملك والقصر » كذا ذكر ابن شداد

وبقي الاسطول على ظاهر البحر لا يمكنه الدخول الى البلد بسبب عدم اسعاف الريح الى الساعة السابعة من حين وصوله ، ثم لانت الريح فدخل ووجد المهدية خالية فملكها دون دفاع . ووجد جورجي قصر الحسن على حاله لم يحمل منه الحسن الا ما خف له . فرأى فيه من الذخائر الملوكية ما هاله ، وحكم على ذلك كله ، وأمر أن ينادى في المهديتين بالامان فارتفع النهب منهما وأخرج جميع النصارى من المهديتين [1] فأنزلهم فيما بينهما من مضارب وأخبية فكان من بقى في المهدية أحسن حالا ممن فر منها ، فان الفارين لقوا من المشقة وعدم الماء ما أهلك أكثرهم الى أن تداركهم جورجي فبعث اليهم خيلا يعلمهم بالامان فرجعوا الى بلدهم ، وفرق عليهم مالا وطعاما أقرضهم اياه ، فصلحت أحوالهم واغتبط الناس بالمهدية لما رأوا من عدل النصارى فعمرت أحسن عمارة وسار الحسن الى عسكره الذي قدمنا أنه كان في نصرة محرز بن زياد[2] فلقيه محرز بالبر والاكرام وأنزله عنده فأقام هنالك أشهراً وهو كاره للاقامة لما يرى في عيني محرز من السآمة ، فأحب الانتقال الى مصر ــ وواليها اذ ذاك [الحافظ] عبد المجيد ، ابن محمد ، بن المنتصر ، بن الظاهر ، بن الحاكم ، بن العزيز ، بن المعز ، بن المنصور ابن القائم ، بن المهدي ، وباسمه كان الحسن يخطب في بلاده ــ فابتاع من تونس مركباً أعده لسفره فعلم جورجي بذلك فأعد له عشرين قطعة ترقب إقلاعه فعدل عن السفر الى مصر

ونظر في التوجه الى الخليفة عبد المؤمن بن علي وأنفذ كبار ولده يحيى وتميما وعياله الى ابن عمه يحيى بن العزيز يستأذنه في الوصول اليه وتجديد العهد والسير

(١) يريد بالمهدية الثانية زويلة وبينها وبين المهدية مقدار رمية سهم انظر الكلام عليها في صفحة ٢٧

(٢) قال ابن خلدون (ص٢٦١ ج٦) محرز بن زياد الفادعي صاحب علي بن خراسان صاحب تونس

من عنده الى عبد المؤمن ، فأذن له يحيى فسار اليه فلما وصل اليه لم يجتمع به يحيى وسيره الى جزيرة مرعبان هو وأولاده ، ووكل بهم من يمنعهم من التصرف ، فبقوا كذلك الى أن ملك عبد المؤمن بن علي بجاية ، وكان وزير يحيى ميمون ابن حمدون ، تلقى بني الحسن أحسن تلق ، وكتب على لسان يحيى الى الحسن بالتوجه عما جرى عليه ، والتحريض على الوصول والعدول عما خطر بباله من قصد غيره ، فأعلم الحسن محرز بن زياد بما كتب اليه ابن عمه ، فأشار اليه بالتنكب عنه وأن يتوجه حيث ما أحب فهو خير له منه ، فلم يطعه الحسن في التوجه الى بجاية ، فلما قرب منها ندب يحيى وزيره الى لقاء الحسن فامتنع عن ذلك ، وأمر أخاه قائد بن العزيز بالخروج الى لقائه مع مشيخة البلد وأن يعدلوا به عن بجاية الى الجزائر فيكون مقامه بها ، ففعل أخوه ذلك وأنزله هو وأولاده بمدينة الجزائر في أمكنة لا تليق بهم وأجرى عليهم جرايات لا تكفيهم ، وأمر ميمونا بمراعاة أحوال الحسن ، ومنعه من السفر والكتب الى الخليفة عبد المؤمن بن علي لما توقعه من استعانة عبد المؤمن به في أخذ بجاية ، فبالغ في التشديد عليه في ذلك وأقام بها ساكنا الى أن نزل عبد المؤمن المغرب الأوسط وقد تغلب على جميع بلاد المغرب الاقصى وجميع جزيرة الاندلس وذلك سنة سبع وأربعين وخمسمائة وتغلب على مليانة والجزائر ، فاجتمع بالحسن هنالك وسار اليه وهو بمدينة متيجة وأقبل عليه عبد المؤمن وقربه اليه واستصحبه معه ، وجعل الحسن يغريه على أخذ بجاية حسد الابن عمه ورغبة في خروج الملك من يديه ليستووا في ذلك .
فنزل عبد المؤمن الى بجاية والحسن معه، فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها ، وكان ذلك بعد هزيمة صنهاجة بجبل زيرى واعانة يحيى على نفسه بانهماكه في لذاته واهمال تدبير دولته وتفويضه الامر لغيره

فلما استولى عبد المؤمن على بجاية فر يحيى بن العزيز منها في البحر وكان

مرامه التوجه الى بونة والنفوذ من ذلك الى بغداد لعلمه أن الخليفة العبيدي بمصر ينقم عليهم الخلع الاول ، فلما وصل الى بونة جعل الحارث يتأفف منه ويغويه على اهمال الملك ، فخرج عنه يحيى الى قسنطينة وبها اذ ذاك أخوه الحسن بن العزيز ، فاكرمه وتخلى له عن الأمر فاقام بقسنطينة أياما يعمل أمره الى أن أناب الى الطاعة ودخل في ايالة الموحدين ووصل الى الخليفة فأكرمه وأنزله مع ابن عمه الحسن ابن علي ثم كانت لعبد المؤمن على المغرب الوقعة المعروفة « بوقعة سطيف » هزم فيها طوائفهم وطلع الى حضرة مراكش بجميع من حكم عليه ، ومن جملتهم الحسن بن علي ويحيى بن العزيز وأسكنهما بمراكش في رفاهية ورزق جار

ولما كانت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وصل الخليفة الى سلا واستصحب معه يحيى بن العزيز واسكنه بها في بعض قصور بني عشرة ، واقام بسلا الى أن مات هناك ودفن بمقابرها الجوفية [1] مما يلي البحر ثم عاد الى مراكش وبها الحسن بن علي مقيما ، فلما وصل اليها لم يزل الحسن يغريه بالحركة الى افريقيــة ويحضه عليها وعلى انقاذ المهدية من أيدي النصارى الى أن تاقت نفسه الى ذلك فاخذ في الحركة اليها سنة أربع وخمسين وخمسمائة [2] وكانت بيد رجار صاحب صقلية ملك الافرنج وكان افتكها من يد الحسن في صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

حصار رجار طرابلس

وكان رجار هذا سنة سبع وثلاثين وخمسمائة قصد طرابلس باسطوله ليأخذها لما علم أنهم لم يدخلوا يداً في بيعة الحسن بن علي ، وكانوا قدموا عليهم مشايخ

(١) يعني الشمالية

(٢) قال ابن خلدون فنازل المهدية (يعني عبد المؤمن) وحاصرها اشهراً ثم افتتحها سنة ٥٥٥ واسكن بها الحسن فأقام هنالك ثماني سنين ، ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن فارتحل باهله يريد مراكش فهلك بتامسنا في طريقه اه (ص ١٦٢ ، ج ٦)

من بني مطروح يدبرون أمورهم فظنّ انهم لا يقدرون على شيء ، فسير اليها اسطولا لحاصرها أهله ، وكان ذلك تاسع ذي الحجة ، فنازلوا البلد وقاتلوه ، وعلقوا الكلاليب في سوره ونقبوه حتى كادوا يأخذونه . فلما كان الغد نزل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد فقوى بهم أهل البلد فخرجوا الى [أهل] الاسطول وحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة ، وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول ، وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الافرنج الى صقلية وتجهزوا وعادوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل ، فلما رآهم أهل البلد هربوا منهم الى البراري والجبال فدخلها الافرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها واحرقوا القصر الذي بناه يحيي بن عبد العزيز للتنزه وعادوا

استيلاء رجار على طرابلس

ثم وجه لطرابلس أسطولا كبيراً في سنة احدى وأربعين وخمسمائة فاحاطوا بها برا وبحراً ثالث المحرم فخرج اليهم أهلها ونشب القتال ودامت الحرب بينهم ثلاثة أيام ، فلما كان الثالث سمع الافرنج في البلد ضجة عظيمة وخلت الاسوار من المقاتلة :

وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا قبل وصول الافرنج بأيام يسيرة قد اختلفوا فاخرجت طائفة منهم بني مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين يريد الحج ومعه جماعة ولوه أمرهم ، فلما نازلهم الافرنج اعادت الطائفة الاخرى بني مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين ، وخلت الاسوار ، فانتهز الافرنج الفرصة ونصبوا السلالم وصعدوا السور فاشتد القتال وملكت المدينة عنوة بالسيف ، فسفكوا دماء أهلها ، وأخذوا نساءهم وأموالهم ، وهرب من قدر على الهرب ،

والتجأوا الى البربر والعرب ، ثم نودي بالأمان في كافة الناس فرجع كل من فرّ منها وأقام الافرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها ، وحفروا خندقها . ولما عادوا أخذوا رهائن من أهلها ومعهم بنو مطروح والملثم ، ثم أعادوا رهائنهم

ولاية رافع بن مطروح الاولى

على طرابلس

وولوا عليهم رجلا من بني مطروح [١] وتركوا رهائنه وحده ، واستقامت أمور المدينة ، وانضم أهل صقلية والروم اليها فعمرت سريعاً وحسن حالها ، هذا ما لابن الاثير

وذكر التيجاني ان رجار أخذها سنة أربعين وخمسمائة بعد أن أخذ المهدية وسبب ذلك أن أهلها في تلك السنة أصابتهم شدة عظيمة ومجاعة مهلكة هلك فيها الناس وفروا من أوطانهم ، فجهز اليها رجار الرومي صاحب صقلية أسطولا فحاصرها به وذلك بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولايته عليهما . ووقع خلف بين أهل طرابلس أدى الى تغلب أسطول الروم عليها ، فأحسن قائده جرجي بن ميخائيل الى أهلها لما أضمره من تملك غيرها من البلاد الساحلية وأبقى جنده من المسلمين والصقليين وغيرهم وولى عليها شيخها أبا يحيى بن مطروح التميمي ، وجعل قاضيهم أبا الحجاج يوسف بن زيري ، فكانت أحكام المسلمين كلها مصروفة الى واليهم وقاضيهم ، ولم يكن النصراني يتعرض لشيء من أحكامهم . وأقامت تحت تغلب النصراني اثنى عشر عاماً الى أن افتتح

(١) هو أبو يحيى رافع بن مطروح التميمي كما سيذكره قريباً وولايته هذه كانت من قبل الافرنج . وستأتي له ولاية ثانية حينما ثار بالافرنج واجلاهم عن طرابلس ، ثم اقره عليها عبد المؤمن بن علي خليفة امام الموحدين محمد بن تومرت

عبد المؤمن بن علي أكثر بلاد افريقية فخاف النصارى أن يمالئه أهل طرابلس فأحبوا أن يثيروا بين المسلمين الموحدين وأهل طرابلس عداوة ، فامروهم أن يصعدوا المنابر ويتكلموا في جهة الموحدين بسوء ، وكان ذلك سنة أربع وخمسين وخمسمائة لما بلغهم مُلك عبد المؤمن أكثر بلاد افريقية ، فأعظم ذلك أهل طرابلس واجتمعوا على قاضيهم أبي الحجاج ، فسفر بينهم وبين النصارى وأعلم النصارى ألا سبيل الى نيل ذلك ، وان الامر انما كان العقد بينهم ألا يكلفوا المسلمين شيئاً مما يخالف أمر دينهم ، وذِكرُ أهل الدين بسوء مما يخالف أمر دينهم ، فان رضوا منهم بذلك والا سلموا لهم البلد وخرجوا عنه ، فاعفاهم النصارى من ذلك

وتعاقدوا على القيام عليهم والتخلص من أيديهم ، والسمر والنجوى بذلك بينهم ، واتّعدوا [1] ليلة معينة ، ونصبوا في تلك الليلة خشباً وأناشيط في الطرقات تمنع الخيل من الجري فيها وثاروا عليهم ، فبادر النصارى الى خيولهم وركضوها فلم تجد مجالا ، فأخذوا قبضاً باليد وعاد البلد الى تملك المسلمين وكان قيامهم عليهم في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة[2]

---

(١) قال في مختار الصحاح : "تواعد القوم : وعد بعضهم بعضاً . هـذا في الخير . واما في الشر فيقال : اتعدوا . اه

(٢) هذا التاريخ غير صحيح لانه ذكر آنفاً : ان النصارى ارادوا ان يحدثوا فتنة بين الموحدين واهل طرابلس ، وكان ذلك في سنة ٥٥٤ وبدهي ان هـذا قبل الثورة عليهم ، وهو سبب التبييت لهم والتذمر منهم . فكيف يعقل انهم ثاروا عليهم سنة ٥٥٣ ؟ وقد ذكر ابن خلدون هذه الثورة فقال (وثاروا بهم واحرقوهم بالنار) ولم يذكر هذا التاريخ . . ذكر النائب في تاريخه ان ابا يحيى بن مطروح نبذ طاعة الافرنج سنة ٥٥٥

ولاية رافع بن مطروح الثانية

على طرابلس

وحكم على البلد شيخه [أبو] يحيى بن مطروح التميمي ، وكان رجلا شهما ، صانع العرب المجاورين له فاستقر حاله بها الى أن نزل الخليفة عبد المؤمن بن علي الى افريقية في سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ووصلت اليه وفود البلاد فكان من جملتهم وفد طرابلس ، قدم بهم [أبو] يحيى بن مطروح التميمي فبايعوا عبد المؤمن وأقر عليهم شيخهم أبا يحيى بن مطروح التميمي المذكور ، فلم يزل محمود السيرة فيهم الى أن عجز في أيام أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، وقيده الهرم فطلب التوجه الى الحج ، فسرحه السيد أبو زيد بن أبي حفص [محمد] [(1)] بن عبد المؤمن المذكور ، فتوجه بجميع أهله في البحر واستقر بالاسكندرية وكان دخوله لها سنة [ست وثمانين وخمسمائة] [(2)] وبها مات. كذا ذكره النيساني في مياومته . وهو الذي أنشد لما كان بمصر:

لوقفة بين باب البحر ضاحية وباب هوارة وموقف الغنم
اشهى الى النفس من كسر الخليج ومن دير الزجاج وشاطىء بركة الخدم

اه ما للتيجاني

وذكر ابن الأثير أن عبد المؤمن قدم افريقية وبايعه أهل طرابلس سنة أربع وخمسين وخمسمائة . والله أعلم أين ذلك كان ولم تستول عليها يد العدو من لدن الفتح غير هذه المرة وسنة ست عشرة وتسعمائة [(3)]

---

(١) الزيادة من ابن خلدون

(٢) كانت بالاصل ٥٣٦ وهو غلط لأن ابن مطروح هذا كانت بيعته لعبدالمؤمن سنة ٥٥٥ او ٥٥٤ على ما ذكره المؤلف . وتاريخ انتقاله الى الاسكندرية على ما في الاصل يقتضي انه كان قبل بيعة عبد المؤمن وهو غير صحيح . والتصحيح من ابن خلدون (ص ١٦٨ ، ج ٦)

(٣) وسنة ٧٥٠ انظر الحاشية صفحة ٥٣

وذكر ابن بطوطة : أن العدو استولى عليها في أيام السلطان أبي عنان . وافتداها منه بخمسة قناطير من الذهب العين وردها للمسلمين فعد ذلك من مآثره الحسنة من اعتنائه بشأنها . ولم أقف على تاريخ استيلائهم [1] ولعل ذلك انما كان فيما بين سنة ست وسبعمائة الى سنة ست عشرة وسبعمائة ، اذ فيما بينهما كانت دولة بني مرين الذين منهم أبو عنان ، ولعل ذلك انما كان بعد اضطراب حالها بعد بيعة أهلها الموحدين وتوالى فتن شرف الدين قراقش الارمني مملوك الملك المظفر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاه ابن أخي السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب الكردي ، ويحيى بن اسحاق الميورقي

وذلك أن علياً بن اسحاق الميورقي كانت بينه وبين قراقش المذكور مهادنة ومصالحة ، وكانا يجتمعان في أكثر حروبهما ، ويقيمان الدعوة لبني العباس بطرابلس وبعض من افريقية

وسبب انتقال قراقش ـ على ما ذكره المؤرخون ـ أن عم سيده الملك

(١) في سنة ٧٥٠ توفى والي طرابلس محمد بن ثابت وولى ابنه ثابت بن محمد بن ثابت واستبد بطرابلس بعد ان كانت تابعة لتونس . وكان تجار الجنويين يترددون الى طرابلس فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها والعدوا لمرساها فوافوها سنة ٧٥٥ وانتشروا في البلد لحاجاتهم فبيتوها ذات ليلة وصعدوا اسوارها فملكوها عليهم وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح ، فهب الناس من مضاجعهم مرتاعين ، فلما راوهم بالاسوار لم يكن همهم الا النجاة بانفسهم ، ونجا (ثابت بن محمد الوالي) الى حلة الجواري [جهة النواحي الاربعة] فقتل وفر اخواه الى الاسكندرية . واستباح النصارى البلد ، واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من المتاع والعقائل والاسارى ، واقاموا بها . ثم داخلهم ابو العباس احمد بن مكي صاحب قابس في ودائها فاشترطوا عليه خمسين الف مثقال من الذهب العين ، فبعث فيهما الى ملك المغرب السلطان ابي عنان بن ابي الحسن على المريني يطارفه بمثوبتها ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده ، واستوهب ما بقى من اهل قابس والحامة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير وامكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها وازال ما دنسها من وضر الكفر . وبعث السلطان ابو عنان بالمال اليه وان يرد على الناس ما اعطوه وينفرد بمثوبتها وذكرها فامتنعوا الا قليلا منهم ووضع المال عند ابن مكي . ولم يزل احمد بن مكي واليا بها الى ان توفي سنة ٧٦٦ اه

ونحن نعجب من ان المؤلف لم يطلع على هذه الحادثة مع انه كثير النقل عن ابن خلدون وهي مذكورة فيه (ص ٣٦٨ و ٣٦٩ ، ج ٦) وكفى به ثقة

صلاح الدين يوسف بن أيوب انما ملك هو وعمه أسد الدين شيركوه مصر بجيش نور الدين محمود بن زنكي وقوة سلطانه ، وكانا من قواده وأعوانه. ولما توفي أسد الدين حدثت بين صلاح الدين بن أيوب ونور الدين زنكي وحشة ، وكان ذلك سنة ثمان وستين وخمسمائة ، احتاط صلاح الدين بسببها ، وقسم أمره بين بلاد اليمن وبلاد المغرب ، وبنى على الاندفاع أمامه إن وصله نور الدين

وسبب الوحشة : أن صلاح الدين يوسف بن أيوب عمد من مصر الى بلاد الافرنج غازيا ، ونازل حصن شوبك[1] وبينه وبين الكرك يوم [1] وحاصره وضيق على من به من الافرنج ، وأدام القتال ، فطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام فأجابهم الى ذلك ، فلما سمع نور الدين بن زنكي بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الافرنج أيضا ليدخلها من جهة أخرى ، فقيل لصلاح الدين : ان دخل نور الدين بلاد الافرنج وهم على هذه الحالة أنت من جانب وهو من جانب ملكها ، ومتى زال الافرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين ، وان جاء نور الدين اليك وأنت هاهنا فلا بد لك من الاجتماع به ويكون هو المتحكم فيك بما شاء ، ان شاء تركك فعل ، وان شاء غير ذلك فعل ، فلا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر . فرحل عن الشوبك عائداً الى مصر ولم يأخذه من الافرنج ، وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لامور بلغته عن شيعة العلويين ، وانهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من يخلفه بها فيخرجونهم وتعود ممتنعة ، وأطال الاعتذار ، فلم يقبله نور الدين منه وتغير عليه

---

(١) الشوبك : بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف : قلعة حصينه في اطراف الشام بين عمان وايله وبحر القلزم — البحر الاحمر — قرب الكرك. والكرك بفتح اوله وثانيه اسم لقلعة حصينة في اطراف الشام من نواحي البلقاء بين ايله وبحر القلزم معجم

وعزم على الدخول الى مصر واخراجه منها . فلما سمع صلاح الدين الخبر جمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب ، وخاله شهاب الدين الحارمي وغيرهم ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته اليهم واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة . فقام تقي الدين عمر وابن أخي صلاح الدين فقال : اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ، ووافقه غيره من أهلهم ، فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه ، وشتم تقي الدين وأقعده ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين خالك ، ونحن أكثر محبة [لك] من جميع من ترى والله لو رأينا نور الدين لم يمكننا الا أن نقبل الارض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا وكل من ترى من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم ، وهذه البلاد له ، ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد عزلك سمعنا وأطعنا . والرأي أن تكتب كتابا مع نجاب تقول : بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة الى هذا؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلا ويأخذني اليك ، فما ههنا من يمتنع عليك وقام الامراء وغيرهم فتفرقوا على هذا . فلما خلا به أبوه قال له : بأي عقل فعلت هذا ؟ أما تعلم أن نور الدين اذا سمع بعزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لا نقوى عليه ، وأما الآن اذا بلغه ماجرى وطاعتنا له تركنا وتشاغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ، والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ، ففعل صلاح الدين ما أشار به ، فترك نور الدين تعجيل قصده واشتغل بالاهم عنها الى أن توفي في سنة سبع وستين وخمسمائة وكان في تلك السنة شرع يتجهز للدخول الى مصر فأتاه أمر الله الذي لا مرد له

وكان أسمر اللون طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين ، وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين

الشريفين ، وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بعدله وحسن سيرته

قال ابن الأثير ، وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر في أخبار دولتهم . ولنذكر هنا نبذة مختصرة لعل من يقف عليها ممن له حكم فيتقدي به

فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه ، فانه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . ولقد شكت اليه زوجته من المضايقة فاعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً ، فلما استقلتها قال ليس لى الا هذا ، وجميع ما في يدي أنا فيه خازن للمسلمين ولا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لاجلك . وكان يصلي كثيرا بالليل ، وله أوراد حسنة فكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه   ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طلبا للاجر

وأما عدله فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكسا ولا عشراً ، بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل . وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها . وأحضره انسان في مجلس الحكم فمضى معه اليه ، وأرسل الى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول : قد جئت محاكما ، فاسلك معي ما تسلكه مع الخصوم فظهر الحق له ، فوهبه للخصم الذي أحضره وقال : أردت أن أترك له ما يدعيه

فخفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى مجلس الشريعة ، فحضرته ووهبته ما يدعيه . وبنى دار العدل في بلاده فكان يجلس هو والقاضي فيها ، فينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده

وأما شجاعته فاليها النهاية ، فكان في الحرب يأخذ قوسين ليقاتل بهما ، فقال له القطب النساوي الفقيه : بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد الا أخذه السيف . فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ ، من قبلي من حفظ الاسلام والبلاد ، ذلك الله الذي لا أله الا هو

وأما ما فعله من المصالح ، فانه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، وشيزر (١) وبعلبك وغيرها . وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الخانكاهات للصوفية ، وبنى الخانات في الطرق ، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة ، وحاصل وقفه في كل شهر تسعة آلاف دينار وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلس معهم وينبسط ، ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقوراً مهاباً مع تواضعه

ولما بنى صلاح الدين على الاحتياط بسبب الوحشة بينه وبين نور الدين قسم أمره بين بلاد اليمن وبلاد المغرب ، وبنى على الاندفاع أمامه ان وصله نور الدين ، فوجه أخاه تورنشاه الى اليمن فافتتحها سنة تسع وستين وخطب فيها لمحمود بن زنكي ، وطلب ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين أن يوجهه الى أرض المغرب يفتتحها ، وكانت طرابلس وافريقية والمغرب في يد الموحدين ، فاشتغل تقي الدين في حركته ثم زهد في غزو أرض المغرب لما بينه وبينها من

(١) اسم قلعة بالشام

العربان و المهالك

وقد سرى خبر تغريبه الى جمع من جنده وخواصه فاستبشروا بذلك وبنوا عليه ، فلما امتنع تقي الدين عن التغريب نفر بطائفة من جنده مملوكه شرف الدين قراقش المتقدم الذكر وبأخرى ابراهيم بن قراتكين [1] سلاح دار المعظم ، وصف دار المعظم ، وسيده المعظم شمس الدولة بن أيوب الكردي أخو صلاح الدين المذكور . وكان ابن قراتكين في جند تقي الدين . فتوجه العبدان المذكوران لأرض المغرب مجتمعين حتى جاوزا العقبة ، فاتفق رأيهما أن يفترقا لينفرد كل بما قدر له من الملك . فسار قراقش الى « سنتريه » وهي المعروفة في زماننا بسيوة وافتتحها وخطب فيها لصلاح الدين ولأخيه تقي الدين سيد قراقش من بعده وكتب اليهما بذلك . وافتتح « أوجلة » و« زالة » وهي المعروفة عند العوام بزلّه ، وأزال من فزان دولة بني خطاب الهواريين ، وكانت قاعدة ملكهم «زويلة» [2] وهي المعروفة بزويلة ابن خطاب ، وعذب ملكها محمود ابن خطاب بن يسليطن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب [3] آخر ملوكهم على المال حتى هلك [4] وخطب فيها لصلاح الدين ولتقي الدين

(١) ابراهيم بن قراتكين قتل بقفصة حين حاصرها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في حروبه مع قراقش وعلى بن غانية

(٢) زويلة : كسفينة مدينة في فزان واقعة في الجنوب الشرقي من مرزوق : بينهما نحو ١٥٠ كيلو متراً ، ومنها الى مدينة طرابلس مسيرة ٢٥ يوماً . وهي مختطة وسط الواحة الشرقية المتصلة بواحة مرزوق ، وكانت فيما مضى قاعدة لفزان . وتسمى بلد الاشراف لأن غالب سكانها اشراف وكانت اكبر مما هي عليه الآن بنحو ثلاث مرات ودورها من طبقة واحدة . وفي وسطها بقايا بناء ضخم قديم يقال انه كان قصراً فيما مضى . وبقرب سورها الجنوبي مسجد لا يزال بحالة جيدة وبه صحن متسع حوله اعمدة ضخمة وبقرب المدينة من الجهة الشرقية مبان قديمة هي قبور اشراف استشهدوا في قتال كفار تلك النواحي وتسمى الآن قبور الصحابة . والارض حولها منبسطة خصبة كثيرة المياه افتتحها عقبة بن نافع سنة ٢٢ بعد فتح برقة

(٣) كانت بالاصل محمود بن خطاب بن يزلة بن عبد الله بن زيملين خطاب والتصحيح من ابن خلدون وتاريخ النائب

(٤) وبموته انقرض ملك بنى خطاب من فزان . وكان التحاق قراقش بزويلة سنة ٥٦٨

ولم يزل على هذه الطريقة يفتتح البلاد ويخطب لمن ذكر الى أن وصل الى طرابلس فاجتمع عليه الذبابيون ، وهم بنو ذباب بن ربيعة بن زعب ابن جرد بن مالك بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة [1] بن سليم ابن منصور ، كذا ذكره الرشاطي . وزعب المنسوب اليه ذكره الرشاطي [2] بكسر الزاي والعين المهملة وله ولد آخر يسمى باسمه أخو ربيعة واليه ينتسب الزعبيون اخوة بني ذباب . ومثل ما للرشاطي للاجدابي

ولما قدم على بني ذباب وفد اليه مسعود بن زمام من أمراء بني هلال كان لم يدخل يداً في بيعة عبد المؤمن بن علي حين تملك افريقية ، وفر منها لأعراب طرابلس ، فتارة يكون مع بني ذباب ، وتارة يكون مع اخوتهم زعب ، فاتفق معهم وكثر جمعهم فنزل على طرابلس فحاصرها مدة وضيق على أهلها ثم فتحت

استيلاء قراقش على طرابلس

فاستولى عليها قراقش [3] وكان ذلك سنة ثمان وستين وخمسمائة كما ذكرنا أولا وأسكن أهله قصرها ، وكانت خالية من الاقوات والاجناد لانهم بعد بيعتهم لعبد المؤمن بن علي واستقرار بلدهم في يد الموحدين لم يتوقعوا ثائراً ولا مخالفاً فلما أتاها على ذلك أخذها وتملك كثيراً من بلاد افريقية ما خلا المهدية وصفاقس وتونس وقفصة وما والاها من القرى والمواضع . وسار مع قراقش عسكر كثير فجنح على تلك البلاد بمساعدة العرب فجمع أموالا عظيمة وجعلها

(١) كانت بالاصل بهية . وقد ذكر ابن خلدون في بني سليم امرأ القيس بن بهثة بثاء مثلثة في عدة مواضع

(٢) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف بن احمد بن عمر اللخمي يعرف بالرشاطي وله عناية بالحديث ورجاله وبالتاريخ . ومولده في جمادى الآخرة سنة ٤٦٦ وتوفي سنة ٥٤٠

(٣) توجد بلدة قريبة من مدينة طرابلس على نحو ثلاثة اميال الى الجهة الغربية منها تسمى قرقارش وهي محرفة عن اسم قراقش وبها اطلال قصر قديم

بمدينة قابس ، وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع افريقية لبعد يعقوب بن عبد المؤمن عنها . وتملك على بن اسحق[1] بجاية من يدعامل يعقوب سنة ثمانين وخمسمائة فوجه اليه يعقوب عسكراً واستبعدها منه

وسبب استيلاء على عليها أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر أسطولا نحواً من عشرين قطعة وسار بجموعه فأرسى على ساحل بجاية وخرجت خيله ورجالته من الشواني[2] فكانوا نحو مائتي فارس من الملثمين، وأربعة آلاف رجل ، فدخل مدينة بجاية بغير قتال ، لانه اتفق أن واليها سار عنها قبل ذلك بأيام الى مراكش ولم يترك فيها جيشاً ولا ممانعاً لعدم عدو يحفظها منه فجاء الملثم ولم يكن في حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك فأرسى بها ، ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد وساروا معه فكثر جمعهم وقويت نفسه . فسمع الخبر والي بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين نحو ثلاثمائة فارس وجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس ، فسمع بهم الملثم وبقربهم منه ، فخرج اليهم وقد سار معه نحو ألف فارس ، فالتقوا وتواقفوا ساعة ، فانضافت الجموع التي كانت مع والي بجاية الى الملثم ، وانهزم واليها ومن معه من الموحدين وساروا الى مراكش فجمع جيشه وخرج الى أعمال بجاية فأطاعته جميعها الا قسنطينة فحصرها الى أن جاء جيش من الموحدين من مراكش في صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائه الى بجاية في البر والبحر ، وكان بها يحيى وعبد الله أخوا على ابن اسحق الملثم ، فخرجا منها هاربين ولحقا بأخيهما ، فرحل عن قسنطينة وسار الى افريقية وصادفة قراقش الارمني وكانا يقيمان الدعوة لبني العباس ، واجتمع عليهما سليم ورياح ومن بأرض طرابلس وافريقية مما يليها من العرب ، ووصل

(١) هو على بن اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين ويعرف بابن غانية ، وهو من اعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب الاقصى ، وهو صاحب جزيرة ميورقة وقتل في حروبه مع اهل نفزاوة سنة ٥٨٤

(٢) جمع شوني وهو اسم لنوع من مراكب البحر

اليهما من مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين اسمه بوزابه ، فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغاً كبيراً وكلهم كاره لدولة الموحدين فاتبعوا على بن اسحاق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة ، وانقادوا اليه ولقبوه أمير المسلمين وقصدوا بلاد أفريقيه فملكوها جميعها شرقا وغربا الا مدينتي تونس والمهديه فان الموحدين أقاموا بهما وحفظوهما على خوف وضيق وشدة ، وانضم الى الملثم كل مفسد في تلك البلاد ومن يريد النهب والفساد والشر ، فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحريم وقطعوا الأشجار . وكان الوالي على افريقية من قبل الموحدين عبدالواحد ابن عبد الله الهنتاتي وهو بمدينة تونس ، فارسل الى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على وهو بمراكش يعلمه الحال ، وقصد الملثم جزيرة باشو - وهي بمقربة من تونس تشتمل على قرى كثيرة - فنازلها وأحاط بها ، وطلب أهلها الأمان فأجابهم وأمنهم ، فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الغلات والدواب ، وسلبوا الناس ، وامتدت أيديهم الى النساء والصبيان وتركوهم هلكى ، وقصد تونس فحاصرها وضيق على من بها حتى مات منهم خلق كثير . ولما استولى على افريقية قطع الخطبة لبني عبد المؤمن وخطب للناصر لدين الله العباسي ، وأرسل اليه يطلب الخلع والاعلام السود

وقصد في سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فخرج من بها من الموحدين وسلموها اليه فرتب فيها جنداً من الملثمين والاتراك ، وحصنها بالرجال مع حصانتها في البلاد . ولما وصل الخبر يعقوب بن يوسف اختار من جنده عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت في البلاد ، ولما جرى فيها من التخريب والاذى ، وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل الى مدينة تونس ، وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه ، فساروا الى علي بن اسحاق الملثم

ليقاتلوه ، وكان بقفصة ، فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فثاروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم ، وكان ذلك في ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين ، فلما سمع يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس الى نصف رجب من السنة ، ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والاتراك ، فوصل اليهم والتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه ، فأكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم ولم ينج منهم الا القليل ، فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه الى قابس ففتحها وأخذ منها أهل قراقش وأولاده وحملهم الى مراكش ، ودانت له البلاد كلها : طرابلس وافريقية

ثم أظهر قراقش الانابة الى الموحدين ومات علي بن اسحاق الميورقي ، وتولى اخوه يحيى ، وكان ذلك سنة ست وثمانين وخمسمائة، ولحق قراقش بالسيد المنصور يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن [1] ، فأقام بها زمانا تحت كرامته ثم انصرف عنها فاراً فرجع الى قابس وخادع أهلها حتى دخلها فقتل جماعة منهم ، وأظهر الرجوع عن الانابة واستدعى جماعة من أشياخ العرب الذبابيين فقتل أعيانهم وممن قتل منهم محمود بن طوق بن بقية ـ واليه تنسب المحاميد ـ وحميد ابن جارية في سبعين [2] ، واستولى عليها وعلى طرابلس بعد انتقاضهما عليه . ثم وقع

---

(١) ذكر ابن خلدون ان قراقش نزع الى طاعة الموحدين سنة ٥٨٦ فهاجر اليهم بتونس ونقله السيد ابو زيد بن ابي حفص بن عبد المؤمن . اه وابو زيد هذا كان صاحب تونس اذ ذاك . وكان صاحب افريقية والمغرب المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

(٢) قتلهم بقصر العروسيين ، وهذا القصر بقابس اختطه رافع بن مكي ، وقيل رشيد بن كامل وكلاهما من دهمان من بني هلال

والمحاميد قبيلة عربية طرابلسية مشهورة بعزة النفس والكرم ، واساؤهم شديدات التحجب لايكاد الانسان يراهن ولا رجلا يعرف منهم هذا الى اليوم وهم يسكنون البادية وبيوت الشعر ولهم رحلة في الصيف الى الزاوية يتفيئون فيها ظلال الاشجار والنخيل بالصارية وما اليها الى صرمان

وحميد بن جارية جد الجواري واليه ينسبون وهم قبيلة عربية طرابلسية بعضها يسكن صرمان وبعضها يسكن النواحي الاربعة فيما بين طرابلس وغريان

التغير بينه و بين يحيى بن اسحاق الميورقي ، وكان يحيى ببلد الجريد ، فسار الى طرابلس للقاء قراقش فخرج اليه قراقش وجعل عليها نائبا يقال له ياقوت المعروف بالافتخار والتقيا بمحسن ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

ألا لا سقى الرحمن محسنَ قطرة ولا زال مغبر الجوانب محسن
وخيب قِطّيساً (١) من الغيث كله ولا ابتلّ فيه للركائب فِرْسِن

وهو يعرف اليوم بوادي الهيرة : بهاء بعدها مثناه تحتية بعدها راء مهملة فكانت الوقعة ليحيى على قراقش وقعة شنيعة ، وفر قراقش للجبال وتوغل فيها وتبعه الميورقي أياما ثم رجع الى طرابلس وحصرها ياقوتا نائب قراقش ، فلم يقصر في دفاعه ، وضبط البلد ضبطاً عظيما ، فكتب الميورقي لأخيه عبد الله ـ وهو اذ ذاك صاحب ميورقة (٢) من بلاد الاندلس يطلب منه الاعانة ببعض أسطوله فوجه اليه قطعتين ضيق بهما على طرابلس تضييقا شديداً الى أن استولى عليها

استيلاء يحيى بن غانية على طرابلس

[ولما تم له الأمر] امتن على أهلها بالعفو ، وأخذ ياقوتا فوجهه في القطع التي وصلت اليه الى ميورقة فاعتقل بها ، ولم يزل هناك الى ان استولى الموحدون على ميورقة وذلك سنة تسع وتسعين وخمسمائة

ولما انفصل عنها استخلف عليها ابن عمه تاشفين بن الغاني فاقام بها مدة ثم قام عليه أهلها وأخرجوه منها ، وتوجه يحيى الى قابس واستولى عليها ، وبقيت

(١) قطيس : بقاف مكسورة وطاء مكسورة مشددة ، اسم موضع تحت جبال غريان من الجهة الشمالية
(٢) ميورقه بفتح الميم ويلتقي فيها ساكنان الواو والراء : جزيرة في شرقي الاندلس

في حكم يحيى بن اسحاق الملثم الى أن وصل الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الى افريقية سنة احدى وستمائة فاستنقذ قابس، وبايعه أهل طرابلس، وتردد عليهما حفاظ الموحدين من قبله، ثم من قبل الشيخ ابن محمود ابن أبي حفص بن عبد المؤمن بعد انفصال الناصر واستخلافه اياه عليها. وكان يحيى ابن اسحاق لما استولى على البلدين طرابلس وقابس وأستقر عنده أن شرف الدين قراقش أقام بودان [1] فتوجه اليه بمن استصحب من العرب الذبابيين من أولاد محمود [2] وجارية بن وشاح، الموتورين من قبل قراقش وحصر بها الى أن فنى طعامه وأعطى بيده سلما واشترط على العرب أن يقتلوه قبل ولده وكان شديد المحبة له. فلما خرج هو وولده اليهم قال له الولد يا أبت الى أين يروحوا بنا ؟ فقال الى حيث رحنا بشبابهم. فقتلوه وقتلوا ولده بعده وصلبه يحيى بظاهر ودّان

ويحيى هذا هو يحيى بن اسحاق المعروف بابن غانيّة من أعيان الملثّمين الذين كانوا ملوك المغرب واغتصبوه من أيدي زناته الذين ثاروا أيام الفتن بعد خروج افريقية عن بيعة بني عبيد وهي دولة رديئة مذمومة سيئة لا ديانة لها ولا سياسة. فلنذكر نسبهم وسبب توليهم تتميما للفائدة فنقول :

---

(١) ودان مدينة تقع على رأس جبل صغير كان بها سور وبه باب واحد يفتح الى الجهة الشرقية وفي الجهة الغربية منه قلعة. والآن تهدم السور ولم يبق منه الآن الا الباب وحوله شيء قليل وقد كثر عمرانها الا ن وامتد خارج السور، وماحواليه بكثير وهي تقع علي مسافة ٤٣٥ ميلا الى الجنوب من مدينة طرابلس والى شمال زويله بنحو عشرة ايام افتتحها بسر بن ارطاة سنة ٢٣ ثم انتقض اهلها ومنعوا ما كان بسر فرضه عليهم وفي ايام معاوية بن ابى سفيان ذهب اليها عقبة بن نافع ومعه بسر بن ارطاة فى جيش عظيم حتى نزل غدامس فافتتحها سنة ٤٢ وخلف عقبة جيشه هناك واستخلف عليه زهير بن قيس البلوي، ثم سار بنفسه في ٤٠٠ فارس، و ٤٠٠ جمل بثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودان فافتتحها واخذ ملكها فجدع انفه فقال لم فعلت هذا وقد عاهدت المسلمين ؟ فقال عقبة : ادبا لك اذا مسست انفك ذكرت فلم تحارب العرب ، واستخرج منه ما كان بسر فرضه عليه وهو ٣٦٠ راساً

(٢) اولاد محمود لا يزالون يعرفون بهذا الاسم وهم من العرب الرحل يسكنون البادية فيما وراء الحوش الى الجهة الغربية وبعضهم يسكن يفرن وهم فخذ من المحاميد

نسب الملثمين (١)

هم عدة قبائل ينتسبون الى حمير أشهرها لمتونة ، ومنها أمير المسلمين يوسف ابن علي بن تاشفين . وجدالة ، ولمطة . وكان مسيرهم من اليمن أيام الصديق رضي الله عنه أمرهم بالمسير الى الشام وانتقلوا الى مصر ، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير وتوجهوا مع طارق الى طنجة وأحبوا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها الى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وتوجه رجل منهم يقال له الجوهر من قبيلة جدالة الى افريقية طالباً للحج وكان محباً للدين ، فمر بفقيه بالقيروان وعنده جماعة يتفقهون قيل هو الفقيه أبو عمران الفاسي ، فأصغى اليه الجوهر وأعجبه حاله فلما رجع من حجه قال للفقيه ماعندنا من هذا في الصحراء شيء غير الشهادة والصلاة في بعض الخاصة فابعث معي من يعلمهم شرائع الاسلام ، فبعث معه رجلا اسمه عبد الله بن ياسين الكردلي (٢)، وكان فقيهاً صالحاً شهماً ، فسار معه حتى أتيا قبيلة لمتونة فنزل الجوهر عن جمله وأخذ بزمام جمل ابن ياسين تعظيما للاسلام فأقبلوا على الجوهر يهنونه بالسلامة وسألوه عن الفقيه فقال : هذا رجلٌ حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء يعلمكم دين الاسلام ، فرحبوا بهما وأنزلوهما ، وقالوا تذكر لنا شريعة الاسلام ، فعرفهم عقائد الاسلام وفرائضه فقالوا : أما ما ذكرت من الصلاة والزكاة فهو قريب ، وأما ما قلت من قتل يقتل ومن سرق يقطع ، ومن زنى رجم ، أو جلد ، فأمر لا نلتزمه فاذهب لغيرنا . فرحل عنهم فنظر الى الفقيه شيخ كبير وقال لابد أن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء

(١) الملثمون قبائل بربرية كانت تسكن الصحراء الكبرى ، وكانوا على دين المجوسية قبل ان يظلهم الاسلام في المائة الثالثة ، واول من سماهم المرابطين عبد الله بن ياسين ، وهو اول من دعاهم الى قتال من لم يذعن الى الاحكام الاسلامية

(٢) قال ابن خلدون : عبد الله بن ياسين بن بلك الجزولى

شأن يذكر في العالم ، فانتهى الجوهر والفقيه الى جدالة قبيلة الجوهر فدعاهم عبد الله ابن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم الى حكم الشريعة فمنهم من أطاع ومنهم من أعرض وعصى . ثم ان المخالفين لهم تجبروا وتجمعوا فقال ابن ياسين للذين أطاعوا نوجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وانكروا شرائع الاسلام واستعدوا لقتالكم فأقيموا لكم راية وقدموا عليكم أميراً . فقال الجوهر أنت الامير فقال إنما انا حامل أمانة الشريعة ولكن أنت الامير ، فقال الجوهر لو فعلت هذا لتسلط قبيلي على الناس ويكون وزر ذلك عليّ فقال له ابن ياسين الرأي أن نولى ذلك أبا بكر بن عمر رأس لمتونه وكبيرها [1] وهو رجل سيد مشكور الحال مطاع في قومه ومستجيب لنا ، بحب الرآسة ويتبعه قومه فنتقوى بهم . فأتيا أبا بكر بن عمر ، فعرضا عليه ذلك فأجاب ، فعقدوا له البيعة وسماه ابن ياسين « أمير المسلمين » وعادوا الى جدالة وجمعوا لهم من حسن اسلامه ، وحرضهم عبد الله بن ياسين على القتال في سبيل الله وسماهم المرابطين ، وتجمع عليهم من خالفهم فلم يقاتلهم المرابطون ، واستعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على أولئك الاشرار بالصالحين من قبائلهم فاستمالوهم وقربوهم حتى أحاطوا بنحو ألفي رجل منهم من أهل البغي والفساد فتركوهم في مكان واحد وخندقوا عليهم وحفظوهم وأخرجوهم قوما بعد قوم وقتلوهم فحينئذ ذلت لهم أكبر قبائل الصحراء وهابوهم وقويت شوكة المرابطين . هذا وعبد الله بن ياسين مشتغل بالعلم وقد صار عنده منهم جماعة يتفقهون

ولما استبد بالامر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالى وبقى لاحكم له داخله الحسد وشرع سراً في افساد الأمر ، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس وثبت عليه ما نقل عنه فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة وشق العصا وأراد محاربة

(١) هو ابو بكر بن عمر بن تلاكاكين ، وولاه ابن ياسين أمر المرابطين سنة ٤٤٧ وهو الذي خرج من الصحراء بجيوش المرابطين لفتح المغرب ، وقبل ان يتم فتحه عاد الى الصحراء واستعمل عليه يوسف بن تاشفين

أهل الحق ، فقتل بعد أن صلى ركعتين وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله تعالى . وأجمعت القبائل على طاعتهم ، ومن خالفهم قاتلوه ، وبقوا على ذلك الى سنة خمس [وأربعين[1]] وأربعمائة فقحطت بلادهم فأمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج الى السوس وأخذ الزكاة ، فخرج منهم تسعمائة رجل وقدموا سجلماسة وطلبوا الزكاة فجمعوا لهم شيئاً قدره الله وعادوا

ثم ان الصحراء ضاقت بهم وأرادوا اظهار كلمة الحق والعبور الى الاندلس ليجاهدوا الكفار ، فخرجوا الى السوس الأقصى [سنة ٤٤٥[1]] فاجتمع لهم أهل السوس وقاتلوهم فانهزم المرابطون وقتل عبد الله بن ياسين الفقيه [سنة ٤٥٠[1]] وعاد أبو بكر بن عمر وجمع جيشاً وخرج الى السوس في ألفي راكب فاجتمع من بلاد السوس وزناتة اثنا عشر الف فارس فأرسل اليهم وقال : افتحوا لنا الطريق لنجوز الى الاندلس ونجاهد اعداء الاسلام فأبوا ذلك ، فصلى أبو بكر ودعا الله تعالى ، وقال : اللهم ان كنا على الحق [فانصرنا] وإلا فأرحنا من هذه الدنيا ، ثم قاتلهم وصدق هو وأصحابه القتال فنصرهم الله تعالى وهزم أهل السوس ومن معهم ، وأكثر القتل فيهم وغنم المرابطون أسلابهم وأموالهم ، وقويت نفسه ونفس أصحابه وساروا الى سلجماسة فنزلوا عليها وطلبوا من أهلها الزكاة فامتنعوا عليهم ، وسار اليهم صاحب سلجماسه ، فاستولوا عليها وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة واستعمل عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني وهو من بني عمه الاقربين ورجع الى الصحراء ، فأحسن يوسف السيرة في الرعية ولم يأخذ منهم سوى الزكاة فأقام بالصحراء مدة

ثم عاد أبو بكر بن عمر الى سلجماسه فأقام بها سنة والخطبة والأمر له والنهي ، واستخلف عليها ابن أخيه أبا بكر بن ابراهيم بن عمر وجهز مع يوسف بن تاشفين

(١) الزيادة من ابن خلدون

جيشاً من المرابطين الى السوس ففتح على يديه

وكان يوسف ديناً حازما داهية مجربا[1] . وبقوا كذلك الى سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وتوفي أبو بكر بن عمر بالصحراء [سنة ٤٨٠ [2]] فاجتمعت طوائف المرابطين [3] على يوسف بن تاشفين وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين

وكانت الدولة في المغرب لزناته الذين ثاروا في أيام الفتن وهي دولة رديئة مذمومة السيرة لا سياسة لها ولا ديانة . وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة واتباع الشريعة فاقتدى به أهل المغرب ، فسار اليها وافتتحها حصناً حصناً ، وبلداً بلداً بأيسر سعى ، وأحبه الرعايا وصلحت احوالهم .

ثم انه قصد موضع مدينة مراكش وهو قاع صفصف لاعمارة فيه وهو موضع متوسط في بلاد المغرب ـ كالقيروان بافريقية ـ تحت بلاد المصامدة الذين هم أشد اهل المغرب قوة وامنعهم معقلا فاختط هنالك مدينة مراكش [سنة ٤٦٥[2]] ليقوى على قمع أهل تلك الجبال ان هموا بفتنة واتخذها مقراً ، فلم يتحرك أحد بفتنة ، وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة وطنجة وسلا وغيرها . وكثرت عساكره ، وخرجت جماعة لمتونة : قبيله وغيرهم من الصحراء وضيقوا حينئذ لثامهم ، وكانوا قبل أن يتملكوا يتلمثون في الصحراء من الحر والبرد كما يفعل العرب والغالب على ألوانهم السمرة فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام

واختلف في سبب التزامهم اللثام ، فقيل ان طائفة من لمتونة خرجوا غازين

(١) قال ابن خلكان . وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي

(٢) الزيادة من ابن خلدون

(٣) كانت بالاصل « الموحدين » وهو خطا لان يوسف بن تاشفين من المرابطين وهم الملثمون اصحاب ابي بكر بن عمر . وقد مات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ والموحدون هم اصحاب المهدي والمهدي قام بدعوته سنة ٥١٤ في زمن علي بن يوسف بن تاشفين ، وهم الذين قضوا على دولة المرابطين في زمن اسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٤٢

على عدو لهم نخالفهم العدو الى بيوتهم ولم يكن فيها الا المشايخ والصبيان والنساء ، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن ويلبسن السلاح ، ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهم واستدارت النساء بالبيوت ، فلما أشرف العدو رأوا جمعاً عظيما فظنوه رجالا وقالوا هؤلاء عند الحريم يقاتلون قتال الموت والرأي أن نسوق الظعن ونمضي فان منعوه قاتلناهم خارجاً عن حريمهم ، فبينما هم في جمع النعم بالمرعى وقد أقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء فاقتتلوا وقتل من العدو جمع كثير ، وكان من قتل من النساء أكثر . فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ، ولا يزيلونه ليلا ولا نهاراً

ومما قيل فيه من الشعر :

قوم لهم درك العلا في حمير	واذا انتموا صنهاجة فهم هم
لما حووا احراز كل فضيلة	غلب الحياء عليهم فتلثموا

ولم يزل ملك أرض المغرب والاندلس بيده الى تمام الخمسمائة فتوفي وتولى بعده ابنه علي . وكان يوسف حسن السيرة خيراً عادلا ، يميل لاهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم

ولما ملك الاندلس جمع الفقهاء وأحسن اليهم ، فقالوا ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة ، فأرسل الى الخليفة المستنصر بالله العباسي ببغداد رسولا[1] معه هدية كثيرة وكتاب يذكر ما فتح من بلاد الافرنج وما اعتمده من نصرة الاسلام ، ويطلب تقليداً بولاية البلاد . فكتب له تقليداً من ديوان الخلافة بما أراد ، وسيرت اليه الخلع فسر بذلك ولقب أمير المسلمين ، ولقب بعده علي ابنه بذلك ، وازداد بعد توليه في اكرام العلماء والوقوف عند اشارتهم

(١) قال ابن خلدون : وبعث اليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الاشبيلي ، وولده القاضي ابا بكر

وكان اذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة ولان قلبه لها وظهر عليه أثرها

وكان يوسف حليما كريما دينا يحب الصفح عن الامور العظام : فمن صفحه أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها ، وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لأمير المسلمين ، وتمنى الآخر زوجته النفزاوية(١) وكانت من أجمل النساء وأتمهن عقلا ولها الحكم في بلاده ، فبلغه الخبر فاحضرهم فأعطى متمني المال ألف دينار ، واستعمل الآخر ، وقال للمتمني الزوجة ما حملك على هذا ياجاهل . ثم أرسله اليها فتركته ثلاثة أيام في خيمة تحمل اليه كل يوم طعاما واحداً ثم أحضرته وقالت : ما أكلت قال : طعاما واحداً ؟ فقالت : كل النساء شيء واحد ، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته . فانظر هذا الصفح . ولم تؤثر عنه رذيلة الا مافعل بالمعتمد بن عباد وبنيه لما أفتك بلادهم وأخذهم أسارى

وكان يوسف قد سير العسكر مع سير بن أبي بكر(٢) وحاصر المعتمد بأشبيلية وأخذها سنة أربع وثمانين وأربعمائة وقاتله أهلها قتالا شديداً وظهر من شجاعة المعتمد وشدة بأسه وحسن دفاعه عن بلده مالم يشاهد من غيره ما يقاربه ، فكان يلقي نفسه في المواقف التي لايرجي خلاصه منها ، فسلم بشجاعته وشدة بأسه ولكن «اذا نفدت المدة لم تغن العدة »

ولم يزل الحصار دائماً والقتال مستمراً الى [يوم الأحد] عشرين من رجب من هذه السنة فعظمت الحرب ذلك اليوم ، واشتد الامر على أهل البلد ، ودخله المرابطون ونهب جميع مافيه وسلب الناس ثيابهم ، فخرجوا من مساكنهم

(١) اسمها زينب بنت اسحاق ، تزوجها يوسف بن علي بن عبد الرحمن ، ثم تزوجها بعده لقوط بن يوسف ابن علي المغراوى ، ثم تزوجها بعده ابو بكر بن عمر . ولما رجع الى الصحراء واناب عنه يوسف بن تاشفين عن المغرب تنازل له عنها . (ابن خلدون)

(٢) زاد ابن خلدون : ابن محمد ورکوت

يمسكون عوراتهم بأيديهم ، وأخذ المعتمد أسيراً (١) وأولاده الذكور والاناث بعد أن استأصلوا جميع ما لهم فلم يصحبهم من ملكهم بلغة زاد، وسير المعتمد وأهله الى « مدينة أغمات » فحبس فيها وفعل معهم أمير المسلمين يوسف أفعالا لم يسلكها أحد ممن قبله ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده الا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة وذلك أنه سجنهم ولم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنها على أنفسهن . فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم طبع

وأغمات هذه مدينة في سفح جبل بالمغرب بقربة من مدينة مراكش بينهما

(١) هو المعتمد على الله ابو القاسم محمد بن المعتضد بالله ابى عمرو عباد بن الظافر المؤيد بالله ابي القاسم محمد قاضي اشبيلية ، ابن ابي الوليد اسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن اسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمي من ولد النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة . وكان المعتمد المذكور صاحب قرطبة واشبيلية وما والاهما من جزيرة الاندلس . وفيه وفي ابيه يقول بعض الشعراء .

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخرهم بنو عباد

فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الاولاد

واصلهم من العريش – قرية تفصل بين الشام ومصر – واول من دخل منهم الى الاندلس نعيم وابنه عطاف واستوطنا اشبيلية واول من تولى الملك منهم الظافر محمد بن اسماعيل قاضي اشبيلية ، وملك قرطبة وغيرها سنة ٤١٤ وكان من اهل العلم والادب وتوفى ليلة الاحد لليلة بقيت من جمادى الاولى سنة ٤٣٣ ، وقام بالامر بعده ولده المعتضد بالله ابو عمرو عباد وتسمى اولا فخر الدولة وكان جواداً اديبا جبارا اتسع ملكه وكثر نسله وتوفى يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ٤٦١ ودفن بمدينة اشبيلية وولى الملك بعده ولده المعتمد على الله ابو القاسم محمد وكان اندى ملوك الاندلس راحة وارحبهم ساحة ، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال وموسم الشعراء ، ولم يجتمع بباب احد من ملوك عصره من فحول الشعراء والادباء ما كان يجتمع ببابه وكان له شعر كأنه الشق الكمام عن الزهر

ولما استنجد ملوك الاندلس يوسف بن تاشفين على الافرنج الذين كانوا يهددون الاندلس وانجدهم وتم النصر للمسلمين دعا المعتمد يوسف ابن تاشفين لينزل ضيفا عنده فاجابه ، فرأى من قصور ابن عباد وضخامة ملكه ورفاهة عيشه مالم يكن عنده بمراكش ، فطمع في ملكه ، واغراه بعض ادبائه باخذ الاندلس فأخذها وفعل بابن عباد ما سيجازيه الله عنه ، وقد ذكر المؤلف بعضه ، وكانت ولادة ابن عباد في شهر ربيع الاول سنة ٤٣١ بمدينة باجة ، وتولى الملك في جمادى الآخرة سنة ٤٦١ ، وخلع يوم الاحد لعشرين من رجب سنة ٤٨٤ ، وتوفى في السجن باغمات لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال ، وقيل في ذي الحجة ٤٨٨ ، ونودي في جنازته الصلاة على الغريب اه مختصرا من ابن خلكان

نحو اثنى عشر ميلا . كذا ذكره صاحب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق »
قال : وأغمات وريكة أسفل جبل درن (١) من شماليه في فحص أفيح طيب
التراب كثير النبات والاعشاب والمياه تخترقه يميناً وشمالا ، وتطرد بساحتها
ليلا ونهاراً وحولها جنات محدقة وبساتين وأشجار ملتفة ومكانها أحسن مكان
من الارض منفرجة الارجاء ، طيبة الثواء ، عذبة الماء ، صحيحة الهواء ، وبها
نهر ليس بالكبير يشق المدينة ويأتيها من جنوبيها فيمر الى أن يخرج من شماليها
وعليه أرحاؤهم ـ آلات يطحنون بها الحنطة ـ وهذا النهر ، يدخل المدينة يوم
الخميس ويوم الجمعة والسبت والاحد ، وباقي الجمعة يأخذونه لسقي جناتهم
وأرضهم ويقطعونه عن البلد فلا يجري منه اليها شيء ، يكتنفها جبل درن فاذا كان
زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بجبل درن فيسيل ذوبانها الى مدينة أغمات ،
وربما جمد به النهر في وسط المدينة حتى يجتاز الاطفال عليه وهو جامد فلا ينكسر
لشدة جموده

وأهلها هوارة من قبائل البربر المتبربرين بالمجاورة ، وهم أملياء تجار مياسير
يدخلون الى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة اقناطير الاموال من النحاس
الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من
الزجاج والاصداف والاحجار ، وضروب من الافاوية والعطر وآلات الحديد
المصنوع . وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله الا وله في قوافلهم المائة جمل
والسبعون جملا كلها موقورة .

ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا ،

(١) ودرن هذه موضع بالمغرب في مراكش ، ولما مر بها المعتمد وهو اسير انشد لنفسه :

هذي جبال درن مخذوة بالدرن
ياليتني لم ارها وليتها لم ترني

و بأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم . وذلك أن الرجل منهم اذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه و أربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عمودين من الارض الى أعلا السقف و بنيانهم بالآجر والطوب و الطين ، فاذا مر الناظر بدار و نظر الى تلك العمد مع الأبواب قائمة وعدها علم من عددها كم مبلغ مال صاحب الدار ، لانه قد يكون من هذه العمد خلف الباب أربع و ستٌ مع كل عضادة اثنتان أو ثلاثة الى آخر ما ذكره

ولم يزل المعتمد بها مسجوناً الى أن توفى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة

وكان المعتمد من محاسن الدنيا كرماً وعلماً وشجاعةً ورياسةً تامة ، وأخباره مدونةٌ وآثاره مشهورةٌ ، وله أشعارٌ حسنة ، فمنها ما قاله لما أُخذ ملكه وحبس :

سلّت عليَّ يد الخطوب سيوفَها فجذذن من جسدي الخصيب الأمتنا
ضربت بها أيدي الخطوب وإنّما ضربت رقاب الآملين بها المنى
أمؤمّلو العادات من نفحاتنا كُفوا فان الدهر كفّ أكُفنا

و له من قصيدة يصف القيد في رجله :

تعطّف في ساقي تعطُّف أرقم يساورها عضّاً بأنياب ضيغم
و إني لمن كان الرجالُ بسيبه ومن سيفه في جنةٍ وجهنّم (١)

وله في يوم عيد اذ جاءته بناته حافيات عليهن ثياب مهنة إذ كن لضيق العيش يغزلن للناس بأجرة حتى أن إحداهن كانت تغزل لبنت صاحب شرطة أبيها اذ كان في سلطانه :

[فيامضى كنت بالاعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا]

(١) وتألم المعتمد يوماً من ضيق قيده وثقله فقال :

تبدلت من ظل عز البنود بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا ادهماً يعض بساقي عض الاسود

ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعةً أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدامُ حافيةٌ كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لا خد إلا تشكى الجدب ظاهره وليس الا مع الأنفاس ممطوراً[(١)]
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا فردك الدهر منهياً ومأموراً
من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغروراً

وله لما وفد عليه بأغمات شاعره أبو بكر بن اللبانة حين أنشده القصيدة الفائية التي أنشأها فيه الآتي ذكرها وعزم على الانفصال عنه بعث اليه بعشرين ديناراً وشقة بغدادية :

اليك النزر من كف الأسير فان تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياه وان عذرته حالات الفقير

وكانت الشعراء يكاتبونه وهو في السجن بالنظم والنثر يتوجعون له ويذمون الزمان وأهله حيث مثله منكوب

قال شاعره أبو بكر بن اللبانة زرته بعد أسره بأغمات وقلت أبياتا عند دخولي اليه منها :

لم أقل في الثقاف كان ثقافاً كنت قلباً به وكان شغافاً
مكث الزهر في الكمام ولكن بعد مكث الكمام يبدو قطافاً
وإذا ما الهلال غاب بغيم لم يكن ذلك المغيب انكشافاً
إنما أنت درة للمعالي ركب الدهر فوقها أصدافاً
حجب البيت منك شخصاً كريماً مثل ما يحجب الدنان سلافاً
أنت للفضل كعبة ولو اني كنت أسطيع لالتزمت الطوافا

(١) روى ابن خلكان هذا البيت هكذا : لا خد الا ويشكو الجدب ظاهره وليس الا مع الانفاس ممطورا

وممن كاتبه عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور بأبيات يذكر فيها مسيره عن أشبيلية الى أغمات تعريضاً وهي جواب عن قول المعتمد: « تعطف في ساقي » البيتين المتقدمين وهي هذه:

جرى لك جدٌّ بالكرام عثور   وجار زمان كنت منه مجير
لقد أصبحت بيض الظبا في غمودها   إناثا لترك الضرب وهي ذكور
أتيأس من يوم يناقض أمسه   وشهب الدراري في البروج تدور
ولما رحلتم بالندى في أكفكم   وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت   ألا فانظروا كيف الجبال تسير

ورثاه أبو بكر بن اللبانة عند حادثته بعدة قصائد منها قوله:

تبكي السماء بمزن رائح غاد   على البهاليل من أبناء عباد
عريسة دخلتها النائبات على   أساود منهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها   فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ   في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنه   خف القطين وجف الزرع بالوادي

الى أن قال:

حط القناع فلم تستر مخدرةٌ   ومزّقت أوجهٌ تمزيق ابراد
حان الوداع فضجّت كل صارخة   وصارخ من مُفدّاة ومن فاد[1]

ولما قتل ولدا المعتمد بين يديه حين أخذ أسيراً صبراً ، وهما: أبو الفتح الرشيد ، ويزيد أنشد:

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر   سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
[هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه   يزيد فهل بعد الكواكب من صبر]
أفتح لقد فتّحت لي كل رحمةٍ   كما بيزيد الله قد زاد في أجري

(١) هذه الابيات من قصيدة عدة ابياتها ٩٩ بيتا في وصف آل عباد وكيف سيقوا الى المنفى بعد ان دالت دولتهم وهي مذكورة في قلائد العقيان

هوى بكما المقدار عني ولم أمت ... فأدعى وفيًّا قد نكصت إلى الغدر

ولو عدتما لاخترتما العود في الثرى ... إذا أنتما أبصرتماني في الأسر

أبا خالد أورثتني البثّ خالداً ... أبا النصر مذ ودّعت ودّعني نصري(١)

وكان ابنه الرشيد جرت له حادثة قبل أخذ المرابطين اشبيلية شبيهة بحادثة الأمين بن هارون الرشيد . قال أبو بكر بن عيسى بن اللبانة الداني : كنت يوما عند الرشيد بن المعتمد في مجلس أنسه سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، فجرى ذكر غرناطة وملك أمير المسلمين بن تاشفين لها . قال فلما ذكرناها تفجّع وتلهّف واسترجع وذكر قصريها فدعونا لقصره بالدوام ، ولملكه بتراخي الأعوام ، فأمر عند ذلك أبا بكر الاشبيلي بالغناء فغنى :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالفُ الأمد

قال فاستحالت مسرّته ، وتجهّمت أسرّته ، ثم أمر بالغناء من وراء ستارة فغُنّي :

إن شئت أن لا ترى صبراً لمصطبر ... فانظر إلى أيّ حال أصبح الطلل

فتأكّد تطيّره واشتد اربداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى بالغناء فغنّت :

يا لهف نفسي على مال أفرّقه ... على المقلّين من أهل المروآت

إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي من إحدى المصيبات

قال ابن اللبّانة فتلافيت الحال بأن قمت فقلت :

محل مكرمة لا هد مبناه ... وشمل مأثرة لا شتّت الله

البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفاً ... أن الرشيد مع المعتمد ركناه

ثاوٍ على أنجم الجوزاء مقعده ... وراحل في سبيل الله مثواه

(١) هذه الابيات من قصيدة عدة ابياتها ١٦ بيتا ذكرت في قلائد العقيان ايضا وكلها تثير الاحزان وتهييج الشجون

حتمٌ على الملك أن يقوى وقد وصلت بالشرق والغرب يمناه ويسراه

فلعمري لقد بسطت من نفسه وأعدت عليه بعض أنسه ، على أني وقعت فيما وقع فيه الجميع بقولي : البيت كالبيت الخ وأمر إثر ذلك بالغناء فغنّي :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ولم يبق إلاّ أن تزمّ الركائب

قال : فأيقنّا أن هذه الطيرة تعقبها الغيرة ، فلم يمض إلا قليل من الدهر حتى حاصر اشبيلية عسكر أمير المسلمين وضيق عليها فقاتل أهلها قتالا شديدا وظهر من المعتمد ما ذكرنا ، وانقضت أيامه فسبحان من لا يحول ملكه ولا يزول

ولنرجع لذكر ابتداء دولة الموحدين لدخول طرابلس تحت بيعتهم فنقول :

ظهور دولة الموحدين

كان ابتداء دولتهم سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وأول من أقامها المهدي أبو عبد الله محمد بن عبد الله تومرت[1] العلوي الحسني المصمودي الهرغي نسبة الى هرغة[2] فخذ من المصادمة[3] كانوا يسكنون جبل السوس من بلاد المغرب نزلوه لما فتحه المسلمون مع موسى بن نصير وكان قد رحل في شبيبته الى بلاد المشرق لطلب العلم فتفقّه ، وكان فقيهاً عالماً فاضلا حافظاً للحديث عارفاً بأصول الدين والفقه متحققاً بعلم العربية ، وكان ورعاً ناسكا ، ووصل في رحلته الى العراق فاجتمع بالغزالى

(١) كانت بالاصل محمد بن عبد الله ابن تومرت . وقد قال ابن خلدون محمد بن تومرت — وابوه يسمى عبد الله وتومرت . قال ابن خلكان وتومرت بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وفتح الميم وسكون الراء بعدها تاء مثناة من فوقها وهو اسم بربري

(٢) كانت بالاصل : الهرغي نسبة الى هزعة والتصحيح من ابن خلدون وابن خلكان وقال ابن خلكان : وهرغة بفتح الهاء وسكون الراء وبعدها غين معجمة قبيلة من المصامدة

(٣) المصامدة من ولد مصمود بن يونس ، وهم اكثر قبائل البربر واوفرهم

والكيا وأبي بكر الطرطوشي بالاسكندرية . وقيل إنه جرى له حديث مع الغزالي فيما فعله بأرض المغرب من التملك ، فقال له الغزالي إن هذا لا يتمشى في هذه البلاد ولا يمكن وقوعه لأمثالنا ، هكذا قال بعض مؤرخي المغرب ، والصحيح أنه لم يجتمع به فحج من هناك وعاد الى المغرب ، ولما ركب البحر من الاسكندرية مغربا غير المنكر في المركب وألزم من به باقامة الصلاة وقراءة القرآن حتى انتهى الى المهدية سنة خمس وخمسمائة وبها حينئذ يحيي بن تميم فنزل بمسجد قبلي مسجد السبت وليس معه سوى ركوة وعصا وتسامع به الناس فقصدوه يقرأون عليه أنواع العلوم وكان اذا مر به منكر غيره وأزاله فلما كثر ذلك منه أحضره الامير يحيي مع جماعة من الفقهاء فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه واحترمه وسأله الدعاء ورحل عن المهدية وأقام بالمنستير مع جماعة من الصالحين مدة وسار الى بجاية ففعل فيها مثل ذلك فأخرج منها الى قرية بالقرب منها اسمها ملالة فلقيه بها عبد المؤمن بن علي [1] فرأى فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم والقيام بالامر ، فسأله عن اسمه وقبيلته فأخبره أنه من قيس عيلان ثم من بني سليم فقال ابن تومرت هذا الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : «ان الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس فقيل من أي قيس فقال من سليم» فاستبشر بعبد المؤمن وسر بلقائه وكان مولد عبد المؤمن بمدينة تاجرا من عمل تلمسان [2] . وهو من بني عامر قبيلة من كومة نزلوا بذلك الاقليم سنة ثمانين ومائة ولم يزل المهدي ملازما للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه الى أن وصل الى مراكش دار أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فرأى

(١) زاد ابن خلكان : القيسي الكومي ، وقال : الكومي بضم الكاف وسكون الواو نسبة الى كومة وهي قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من اعمال تلمسان اهـ . وقد لقيه في طريقه الى الحج فاعجب بعلمه وانتهى عزمه من وجهه ذلك واختص به وتشمر للاخذ عنه

(٢) قال ابن خلكان : قيل ان ولادته كانت سنة ٥٠٠ وقيل سنة ٤٩٠ .

فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقه فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فكثر أتباعه وحسنت ظنون الناس فيه فبينما هو في بعض الايام في طريقه إذ رأى أخت أمير المسلمين (١) في موكبها ومعها من الجواري الحسان كثير وهن سافرات وكانت هذه عادة الملثمين تسفر نساؤهم عن وجوههن وحزب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها فرفع أمره الى امير المسلمين فأحضره وأحضر الفقهاء ليناظروه فأخذ يعظه ويذكره ويخوفه فبكى أمير المسلمين وأمر أن يناظره الفقهاء فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلتـه في الذي فعله . وكان عند أمير المسلمين بعض وزرائه يقال له مالك بن وهيب فقال والله يا أمير المسلمين هذا لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانما يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلدني دمه فلم يفعل ذلك فقال ان لم تقتله فاحبسه وخلده في السجن والا أثار شراً لا يمكن تلافيه فأراد حبسه فمنعه رجل من أكابر الملثمين يسمى بيان بن عمر ان فامر باخراجه من مراكش فسار الى أغمات ولحق بجبل درن وسار فيه حتى لحق بالسوس الذي فيه قبيلة هرغة وغيرهم من المصامدة وكان ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة . فاتوه واجتمعوا حوله وتسامع به أهل تلك النواحي فوفدوا اليه وحضر أعيانهم بين يديه فجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله ويذكرهم شرائع الاسلام وما غير منها وما حدث من الظلم والفساد وأنه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عما هم فيه وأقام على ذلك نحو سنة وتبعه على ذلك هرغة وسمى أتباعه الموحدين وأعلمهم أن النبي ﷺ بشر بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلا وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الاقصى فقام اليه عشرة رجال منهم عبد المؤمن

(١) واسمها الصورة

ابن علي فقالوا لا يوجد هذا الا فيك فأنت المهدي فبايعوه على ذلك وانتهى خبره الى أمير المسلمين فجهز جيشاً من أصحابه وسيرهم اليه فلما قربوا من الجبل الذي هو فيه قال لاصحابه إن هؤلاء يريدونني وأخاف عليكم منهم والرأي أن أخرج بنفسي الى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة هل تخاف من السماء شيئاً ؟ فقال لا بل من السماء تنصرون فقال له ابن توفيان فليأتنا كل من في الارض ووافقته قبيلتهم جميعها فقال المهدي أبشروا بالنصر والظفر بهذه الشرذمة وبعد قليل تستأصلون دولتهم وترثون أرضهم وديارهم ، فنزلوا من الجبل ولقوا جيش أمير المسلمين فهزموهم وأخذوا أسلابهم وقوى ظنهم في صدق المهدي حيث ظفروا كما ذكرهم ، وأقبلت اليه حينئذ أفواج القبائل من الجبال التي حوله شرقا وغربا وبايعوه ، وأطاعته قبيلة هنتاتة وهي من أقوى القبائل فأقبل عليهم واطمأن لهم ، وأتته رسل أهل تينمل بطاعتهم وطلبوه اليهم فتوجه الى جبل تينمل (١) وبنى له مسجداً خارج المدينة واستوطنه وألف لهم كتابا في التوحيد (٢) وكتابا في العقيدة ، ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض ، وأمرهم بالاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن وحرضهم على قتال عدوهم واخراج الاشرار من بينهم . ولما رأى كثرة أهل الجبل وحصانة المدينة خاف أن يرجعوا عنه فامرهم أن يحضروا بغير سلاح ففعلوا ذلك عدة أيام ثم أمر أصحابه

(١) بعد بيعته بثلاث سنين وتينمل بكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون ثم ميم مفتوحة ولام مشددة

(٢) من مؤلفاته المرشد في التوحيد وكان على راى الامامية في القول بالامام المعصوم والف في ذلك كتابه اعز ما يطلب وهذه الجملة افتتح بها كتابه هذا فسمى بها . وكان يسمي اصحابه القراء وسمى اتباعه الموحدين وكان على مذهب الاشعريين في القول بالتاويل فلذلك سمى اصحابه الموحدين تعريضا بالملثمين في اخذهم بالعدول عن التاويل وميلهم الى التجسيم وكان حصورا لاياتي النساء وله قدم فى التقشف والعبادة ولم تحفظ عنه فلتة في البدع الا ما كان من وفاقه الامامية من الشيعة في القول بالامام المعصوم وكان يسمى الامام وبعد بيعته سمي المهدي — ابن خلدون ٦ : ٢٢٩

بقتلهم ففعلوا وهم غارون فقتلوهم في ذلك المسجد ، ثم دخل المدينة فقتل وأكثر ونهب الاموال وسبى الحريم ، فكان عدة القتلى خمسة عشر ألفاً وقسم الارض والمساكن بين أصحابه.

ولما خاف أهلَ تينمَلّ على نفسه لما فعل أراد أن يوقع بينهم وبين المرابطين فتنة فنظر في أولادهم فإذا الغالب عليهم الشقرة والزرقة ، وعليهم السمرة . فقال مالي أراكم سمراً وأولادكم شقراً زرقا ، فقالوا كان لأمير المسلمين عدة مماليك من الافرنج والروم ، وكانوا يصعدون الجبل في كل عام يأخذون الأموال المقررة لأمير المسلمين عليهم ، وكانوا يسكنون بيوتنا مع الحريم ويخرجوننا منها . فلما أخبروه بذلك قبّح لهم الصبر عليه وأزرى عليهم ، وعظم الامر عندهم ، فقالوا له كيف الحيلة في الخلاص منهم وليس لنا بهم قوة . فقال إذا حضروا عندكم في الوقت المعتاد وتفرقوا في مساكنكم فليقم كل رجل منكم الى نزيله فليقتله ، واحفظوا جبلكم فإنه لا يرام ولا يقدر عليه . فلما حضر عندهم العبيد قتلوهم ، فخافوا على أنفسهم من أمير المسلمين فامتنعوا في الجبل وسدّوا ما فيه من طرق تسلك إليهم ، فقويت نفس ابن تومرت بذلك وأرسل اليهم أمير المسلمين جيشاً قوياً فحاصروا الجبل وضيقوا على أهله ، وقلت عندهم الميرة حتى عدم الخبز رأسا وكان يطبخ لهم ابن تُومرت كل يوم من الحساء ما يكفيهم ، وكان قوت كل واحد منهم أن يغمس يده في ذلك الحساء ويخرجها بما علق فيها ويقنع بذلك في يومه . فلما اشتدّ بهم الأمر أراد أهل تينمَلّ اصلاح حالهم مع أمير المسلمين ، وبلغ ذلك ابن تُومرت وكان معه انسان يقال له أبو عبد الله الوَنْشَريسي ملازما لقراءة القرآن وطلب العلم سراً بحيث لم يعلم به أحد

فلما كانت سنة تسع عشرة وخمسمائة خاف المهدي خروج أهل الجبل عليه فأمر الوَنْشَريسي بأمور دلت على زندقته ليخدع بها العوام . وذلك

أنه أمر الوَنشريسي بالحضور بازائه عند المحراب ، وأن يتطيب وأن يظهر أنه لم يعرفه وهو لا يعرف قراءة القرآن ففعل ، فلما صلى والناس حوله سأله من أنت ؟ فقال : أبو عبد الله الوَنْشَريسي ، فقال المهدي : إن أمرك لعجب ، ونادى في الناس فحضروا فقال : هذا الرجل يزعم أنه الوَنشريسي فانظروه وحققوا أمره . فلما أضاء النهار عرفوه . فسأله المهدي ما قصتك ؟ فقال اني أتاني الليلة ملك من السماء فغسل قلبي وعلمني القرآن والموطأ وغيرهما من العلوم ، فبكى المهدى بحضرة الناس ثم قال له نحن نمتحنك فقال افعل وابتدأ بقراءة القرآن فقرأ بقراءة حسنة من أى موضع سئل . ثم قال ان الله قد أعطاني نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار ، وآمركم أن تقتلوا أهل النار وتتركوا أهل الجنة ، وقد أنزل الله ملائكة الى بئر بموضع كذا يشهدون بصدقي . وكانوا وضعوا فيها رجالا . فسار اليها المهدى والناس ، وصلى المهدى عندها وقال : ياملائكة الله إن أبا عبد الله الوَنشريسى قد زعم كيت وكيت ، فقال من بها : صدق . وكان أمرهم بالشهادة له . فلما قيل ذلك من البئر قال : إن هذه البئر مطهّرة مقدسة قد نزل اليها الملائكة والمصلحة أن تطم لئلا تقع فيها نجاسة أو ما لا يجوز ، وألقوا فيها من الحجارة والتراب ماطمها بمن فيها ، وفعل بأهل الجبل من حضورهم بغير سلاح وقتلهم بعد ذلك مادل على تزندقه . ووقائعه مع أمير المسلمين كثيرة

ولما بعث جيشه وكسر سأل هل مات عبد المؤمن ؟ فقيل : لا . فقال : إن الأمر باق . وهو الذى فتح البلاد ووصى أصحابه باتباعه ، وكان إذ ذاك مريضا وحرضهم على اتّباعه وتسليم الامر اليه . وتوفى سنة أربع وعشرين وخمسمائة

ولاية عبد المؤمن بن علي

واستقرّ الامر لعبد المؤمن ورجع بعد اللقاء لتينملّ وأقام بها يتألّف القلوب ويحسن الى الناس . وكان جواداً ، مقداما في الحروب ، ثابتا في الهزاهز ، الى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة فتجهز وسار في جمع كثير الى أن وصل الى تادلة فمانعه أهلها وقاتلوه ، فقتلهم وقهرهم وفتحها وسائر البلاد التي تليها ، وسار في الجبال يفتح ما امتنع عليه ، وأطاعته صنهاجة ، ووقعت بينه وبين أمير المسلمين حروب فتارة له وتارة عليه ، الى أن نزل مراكش سنة احدى وأربعين وخمسمائة وبها يومئذ اسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وهو صبيٌّ ، فضرب خيامه في غربيّها على جبل صغير وبنى عليه مدينة صغيرة له ولعسكره ، وبنى فيها جامعا ، وبنى له بناء عاليا يشرف منه على مدينة مراكش ويرى أحوال أهلها وأحوال المقاتلين من أصحابه . وقاتلها قتالا شديدا وأقام عليها أحد عشر شهرا وافتتحها [في أوائل [1]] اثنتين وأربعين وخمسمائة[2] وقتل أعيان دولة المرابطين .

ولما استولى على اسحق بن علي أخذ يرتعد ويسأل العفو رغبة في البقاء ، ويدعو لعبد المؤمن ، فقام اليه سير بن الحاج الامير ـ وكان الى جانبه مكتوفا ـ فبصق في وجهه وقال : تبكي على أبيك وأمك ، اصْبِرْ صَبْرَ الرجال ، فهذا رجل لا يخاف الله تعالى ولا يدينه بدين . فقام الموحّدون اليه بالخشب فضربوه حتى قتلوه . وكان من الشجعان المعروفين بالشجاعة ، وقدم اسحق على صغر سنّه وضربت عنقه . وقيل إن استيلاء عبد المؤمن عليها سنة ثلاث وأربعين من التاريخ المذكور

(١) الزيادة من ابن خلكان

(٢) قال ابن خلدون : افتتحها في اخريات شوال سنة ٥٤١

وبموت اسحق انقرضت دولة الملثمين . وكانت مدة ملكهم سبعين سنة ، وولي منهم أربعة : يوسف ، وعلي ، وتاشفين ، واسحق .

ولما فتحها عبد المؤمن أقام بها واستوطنها واستقر بها ، وأمر بهدم الجامع الذي بناه يوسف بن تاشفين . وبنى بالقصر جامعاً كبيراً وزخرفه فأحسن عمله . ولقد أساء يوسف بن تاشفين في فعله بالمعتمد بن عباد وارتكب سجنه على الحالة التي ذكرنا أقبح ارتكاب ، فلا جرم أن سلط الله سبحانه وتعالى على أعقابه من أربى عليه وزاد ، فتبارك الحي الدائم الملك الحق الذي لا يزول ملكه ، وهذه سنة الدنيا فأف لها ثم أف ، نسأل الله تعالى أن يختم أعمالنا بالحسنى ، ويجعل خير أيامنا يوم لقائه بجاه محمد ﷺ وآله

ولما استقر وأخذ بلاد بني حماد اجتمع العرب : بنو هلال ، والاثبج ، وعدي ، ورياح ، وزغب ، وغيرهم من العرب من أرض طرابلس والمغرب ، وقالوا : ان جاوزنا عبد المؤمن أجلانا من المغرب ، وليس الرأي إلا لقاء الجد معه واخراجه من البلاد قبل أن يتمكن ، وتحالفوا على التعاون والتضافر وألا يخون بعضهم بعضا ، وعزموا على لقائه بالرجال والاهل والمال ليقاتلوا قتال الحريم ، واتصل الخبر برجار الافرنجي صاحب صقلية ، فأرسل الى أمراء العرب وهم : محرز بن زياد ، وجبارة بن كامل ، وحسن بن ثعلب ، وعيسى بن حسن ، وغيرهم يحثهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم أن يرسل اليهم خمسة آلاف فارس من الافرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا اليه الرهائن ، فشكروه وقالوا : مابنا من حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين . وساروا في عدد لا يحصى

وكان عبد المؤمن قد ارتحل من بجاية الى بلاد المغرب ، فلما بلغه خبرهم جهز جيشاً من الموحدين يزيد على ثلاثين الف فارس ، واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاتي ، وسعد الله بن يحيى ، وكان العرب أضعافهم ، فاستخرجهم الموحدون

وتبعهم العرب الى أن وصلوا الى أرض سطيف بين جبال . فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن فجأة والعرب على غير أهبة ، فالتقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال وأعظمه ، فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين . وترك العرب جميع مالهم من أهل وأثاث ومال . وأخذ الموحدون جميع ذلك ، وعاد الجيش الى عبد المؤمن بجميعه فقسم جميع الاموال على عسكره وترك النساء والاولاد تحت الاحتياط ، ووكل بهم من الخدم والخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وأمر صبيانهم . فلما وصلوا معه الى مراكش أنزلهم في الاماكن الفسيحة ، وأجرى لهم النفقات الواسعة وأمر ابنه محمداً أن يكاتب أمراء العرب وأن يعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة ، وأمرهم أن يحضروا ليسلم اليهم أبوه ذلك جميعه ، وأنه قد بذل له الأمان والكرامة . فلما وصل كتاب محمد الى العرب سارعوا الى مراكش ، فلما وصلوا اليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن اليهم وأعطاهم أموالا جزيلة ، فاسترق قلوبهم بذلك واقاموا عنده وكان بهم حفيا ، واستعان بهم على ولاية ابنه محمد ، وكانت بيعة محمد سنة احدى وخمسين وخمسمائة

وفعل لذلك عبد المؤمن حيلة عظيمة ، وذلك أن الامر كان بيد عبد المؤمن وعمر الهنتاتي يلي الأمر من بعده ، فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده أحب أن ينتقل الملك اليهم ، فلما حضر أمراء العرب من هلال ، وزعب ، وعدي وغيرهم اليه ، ووصلهم وأحسن اليهم ، ووضع عليهم من يقول لهم : أطلبوا من عبد المؤمن وقولوا له : نريد أن تجعل لنا ولي عهد من ولدك ترجع اليه الناس بعدك ، ففعلوا ذلك ، فلم يجبهم اكراما لعمر الهنتاتي لعلو منزلته في الموحدين ، وقال لهم : ان الأمر لابي حفص عمر ، فلما علم عمر بذلك خاف على نفسه ، فحضر الى عنده عبد المؤمن وأجاب الى خلع نفسه ، فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد وكتب الى جميع بلاده بذلك ، وخطب له في جميعها ، وأخرج عبد المؤمن في ذلك اليوم

من الاموال شيئا كثيرا

وفي هذه السنة استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد ، وشيوخ الموحدين المشهورون من أصحاب المهدي بن تومرت [موجودون في مناصبهم] فكان يتعذر عليه عزلهم ، فأخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون بالعلوم ، فلما مهروا فيها وصاروا مقتدى بهم قال لآبائهم : اني أريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصدده ويكون أولادكم في الاعمال لانهم فقهاء عقلاء، فأجابوا الى ذلك وهم فرحون مسرورون ، فولى أولادهم ثم وضع عليهم من يعتمد عليه ، فقال لهم: اني أرى أمراً عظيما فعلتموه قد فارقتم فيه الحزم والأدب ، فقالوا ماهو؟ فقال : أولادكم في الاعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء ، مع ماهم فيه من العلم وحسن السياسة ، واني أخاف أن ينظر من هذا فتسقط منزلتكم عنده . فعلموا صدق القائل ، فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا : نحب أن تستعمل على البلاد السادة أولادك ، فقال : لا أفعل ذلك . فلم يزالوا به حتى فعل ذلك بسؤالهم ، فاستعمل ابنه أبا محمد عبد الله (١) على بجاية وأعمالها ، واستعمل ابنه أبا حفص على مدينة تلمسان ، واستعمل ابنه أبا الحسن علياً على مدينة فاس وأعمالها ، وولى ابنه سعيداً على سبتة ، والجزيرة الخضراء ومالقة ، وكذلك غيرهم . واستولى على أرض افريقية ، وطرابلس والمغرب ، والاندلس ، وأزال منها دولة الملثمين . وتوفي [في العشرة الاخيرة من جمادى الآخرة (٢)] سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكانت وفاته بسلا لانه سار من مراكش الى سلا فمرض بها ومات

ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم : قد جربت

(١) قال ابن خلكان وقد عهد له ابوه بالامر بعده ، ولم يتم له الامر لما كان عليه من الطيش وادمان شرب الخمر وجبن النفس ، وخلع في شعبان سنة ٥٥٨ . وكانت مدة ولايته خمسة واربعين يوما . وتولى بعده الامر اخو يوسف وهذا خلاف ماسذكره المؤلف

(٢) الزيادة من ابن خلكان

ابني محمداً فلم أره يصلح لهذا الأمر وانما يصلح له ابني يوسف فهو أولى به ، فقدموهم له ووصاهم به وبايعوه ودعي بأمير المؤمنين . وكتموا موت عبد المؤمن ، وحمل بصورة أنه مريض الى أن وصل الى مراكش ، وكان ابنه أبو حفص في تلك المدة حاجباً لابيه ، فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس أمر أمير المؤمنين بكذا ، ويوسف يقعد مقعد أبيه ، الى أن كملت له المبايعة في جميع البلاد واستقرت قواعد الأمر له ثم أظهر موت أبيه

وكانت ولاية عبد المؤمن ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً ، وكان عاقلا ، حازما سديد الرأي ، حسن السياسة للأمور ، كثير البذل للاموال ، سفاكا للدماء على صغير الذنب ، وكان يعظم أمر الدين ويقويه ، ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلوات ، ومن رؤي في وقت الصلاة غير مصل قتل ، وجمع الناس بالمغرب على مذهب الامام مالك في الفروع ، وعلى مذهب أبي الحسن الاشعري في الاعتقاد وأصول الدين . وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين ، والمرجع اليهم والكلام معهم ولهم ، واستقر الملك بيد يوسف ، ووقع له من الاتراك ماحكينا في شأن قراقش ، وكذا من علي بن اسحاق [١] ثم توفي يوسف سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة وشهورا ، وكانت وفاته بمدينة شنترين [٢] بعد أن حاصر أهلها الافرنج شهراً ثم مرض فمات في ربيع الاول وحمل في تابوت الى اشبيلية [٣]

(١) انظر صفحة ٥٩ — ٦٤

(٢) شنترين بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوقها وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون اه من ابن خلكان. قال الحموي : وهي تقع في غربي الاندلس بينها وبين باجة اربعة ايام ، وهي مدينة حصينة ملكها الافرنج سنة ٥٤٣

(٣) قال ابن خلكان : فلما وصلوا به الى اشبيلية صبروه ونقلوه الى تينمل ودفن هناك عند ابيه والمهدي ابن تومرت . وكانت وفاته يوم السبت لسبع خلون من رجب سنة ٥٨٠ وذكر في محل آخر انه مات في ربيع الاول من هذه السنة ، وهو مخالف لما ذكره المؤلف في تاريخ وفاته

ولاية المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف (١)

وتولى ابنه المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في الوقت الذي مات فيه أبوه ، فقام بالأمر أحسن قيام وأقام راية الجهاد ، وأحسن السيرة في الناس وكان ديناً مقيما للحدود في الخاص والعام . فاستقامت له الدولة ، وانقادت اليه بأسرها مع سعة أقطارها ، وكان أبو يوسف حسن السيرة ، وكانت طريقه ألين من طريق أبيه مع الناس ، يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم ، وهم أهل خدمته وخاصته ، وأحبه الناس ومالوا اليه وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه ، وسلك في جباية الاموال ما كان أبوه يأخذه ولم يتعداه الى غيره

وقام على يعقوب محمدُ بنُ عبد الكريم بالمهدية وهو رجراجي الاصل ، وقبض على واليها من قبله وهو الشيخ أبو علي يونس ابن الشيخ أبي حفص بن عبد المؤمن ، وكان ذلك سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وأخذ يحيى بن اسحاق الميورقي طرابلس ، وقابس ، وتونس ، فاتفق أن قتل بعضهم نفسه لما فعل بهم ابن اسحاق من تغريم المال والتعذيب عليه ، ورأى ذلك أروح له ، وقد ذكرنا تاريخ ذلك

ولما بلغ الناصر بن يعقوب مادهم أهل افريقية من الميورقي ، وابن عبد الكريم امتعض لذلك وأخذ في الحركة اليها ، وكان يبلغ الميورقي ذلك فيدفع خبرها ، الى أن وصل الناصر الى بجاية ووصله رجاله وأخبروه معاينة ، فوجه ذخائره وأمواله الى المهدية لتكون تحت يد ابن عمه علي ابن الغازي ، وخرج من تونس وتوجه الى القيروان ثم الى قفصة واجتمع بالعربان وأخذ رهائنهم وأخذ مواثيقهم معه على الخدمة ، ثم الى بلاد نفزاوة . وأطلق فيهم أيدي الجند فقتلوا كثيرا من

---

(١) ولد ليلة الاربعاء رابع شهر ربيع الاول سنة ٥٥٤ وتوفى سنة ٥٩٥ بمراكش وقيل بمدينة سلا واتسع ملكه حتى لم يبق بجميع اقطار بلاد المغرب من البحر المحيط الى برقة الا من هو في طاعته وداخل في ولايته وهو الذى بنى مدينة رباط الفتح على هيئة الاسكندرية

أهلها ونهبوا أموالهم وأطلقوا النار في بعض دورها . وذلك لما كان بلغه عنهم من المخالفة

ثم انتقل الى مطماطة ، وبلغه أن الناصر نكَبَ عن طريق تونس وأخذ عن طريق قفصة في اتباعه ، فانتقل الى جبل دمر متحصناً به . ووصل الناصر الى قفصة مستفهما عن أخبار يحيى ، فعرف انتقاله الى جبل دمر ، ورجع الى تونس . وولى على البلدان حفاظاً من الموحدين . وقدم في رجوعه على قتال يحيى الشيخ المقدس أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، ووجه جيشاً عظيما ضخما . فأحب يحيى الفرار من الجبل الى الصحراء . فشجعه أصحابه وحرضوه على الثبات فالتقيا فكانت الوقعة المعروفة بتاجرا للشيخ أبي محمد عليه[1] . فاستأصل فيها كثيراً من أصحاب يحيى . وفر يحيى في شرذمة قليلة وكان قدم ولده وأهله أمامه بنحو خمسة فراسخ . فلما فرّ أخذهم ولولا ذلك لسُبوا . واستنقذ الشيخ أبو محمد من يده السيدَ أبا زيد حياً بعد أن ضربه الموكل به ضربات بسيف قصد بها قتله ، فاعجل عن الاجهاز عليه . واستنقذ جماعة من الموحدين كانوا في يده ، وأخذ رايته السوداء وأحاط الموحدون بجميع مافي عسكر يحيى من الأموال والابل فانتهبوها . ورجع الشيخ أبو محمد بجميع ذلك الى الناصر وهو محاصر للمهدية وبها على بن الغازي[2] الميورقى . وأركب الأمين الموكل بالشيخ أبي زيد على جمل شهره له وبيده الراية السوداء فطيف به على المهدية وكانت الهزيمة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة اثنتين وستمائة . وكتب حماد المالقى المشهور بالابداع في قطعة ورق هذين البيتين مقطعَين في الورق يهجو بهما يحيى ويذكر الهزيمة وهما :

رأى يحيى امام الخلق يأتي ففرّ أمام من وافى إليه

(١) قال ابن خلدون : وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ٨١ الفا من احمال المال والمتاع والآلة

(٢) قال ابن خلدون : وهو المعروف بالحاج الكافر

فشبهت اللقى باللام يفرى ولام الأمر داخلة عليه[1]

وعرضت الغنائم على الناصر على ملاحظة من المحصورين بالمهدية وهم مع ذلك مكذبون بهزيمة يحيى مفحشون بالسب . وألحّ الناصر في قتالهم ، ونصب عليهم المجانيق على جهة واحدة في السور حتى كثرت الموتى والجراحات . وتحقق انهزام يحيى فسُقط في أيديهم وطلبوا الامان فأسعفوا به . ونزل عليّ بن الغازى وأتباعه وشيعته على أن يخلوا سبيلهم ، ويسلموا البلد ويكونوا فى أمان الموحدين الى أن يصلوا الى يحيى بن غانية . وكان ذلك في السابع والعشرين من جمادى الاولى فكان بين هزيمة تاجرّا وفتح المهدية أربعة وسبعون يوما : وخرج على ابن الغازي عن المهدية وجملته وحاشيته فضرب أخبيته بقصر قراضة فبات هنالك تلك الليلة . ثم دعته نفسه إلى الدخول في طاعة الموحّدين وقال : أطعت بعد أن كنت في حكم نفسي . فاستحسن ذلك منه الناصر واستدعاه وأحسن إليه . ووافق ذلك وصول مملوك الناصر ناصح صاحب ديوان سبتة بالهديّة العظيمة التي جمعها في المدة الطويلة . وكان فيها ثوبان قد نسجا بأنواع الجواهر وجعلت فيهما أعلام من اليواقيت والحجارة النفيسة . فأمر الناصر بحمل جميع الهدايا إلى على بن الغازي . فمات ناصح من أثر ذلك كمدا

ثم انتقل الناصر عن المهدية في عشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستمائة . وأراد النقلة لأرض المغرب . فحينئذ أخذ يتحدث مع أشياخه ومدبري أمر دولته فيمن يترك بأفريقية فأجمع رأيهم على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص ولم يختلف في ذلك اثنان ، وكأنهم رأوا بذلك بعده عن الخلافة . فأمر الناصر بعض خدمه في الحديث معه في ذلك استحياء من مواجهته به فامتنع ولم تسمح نفسه بمفارقة وطنه ، ففاوضه الناصر في ذلك بنفسه فاعتذر له ببعد الشقة عن خلفه

(١) هكذا بالاصل ، ومعناها غير واضح

بمراكش من أهل وولد وبما استلزم ذلك من مفارقة الخليفة والبعد عنه ، ونظر السلطان فلم يجد عوضاً عنه ولم يرد إكراهه عن المقام ، وعظم عليه أمر شرقي البلاد وما ناب أهلها من بُعده عَنْهم ، فأرسل إليه ولده ومعه ولد الشيخ أبي محمد من ابنة المنصور ، وهو المعروف بالسيد أبي الحسن ، وكان الناصر خاله قد رباه مع ولده يوسف المنتصر ولي عهده . واختصه كولده ، فوجهه مع ولده في طرف من حاشيته ليلا فدخلوا عليه . فقام الشيخ أبو محمد لولد الناصر وأجلسه معه وقال ما حاجتك أيها الطالب . ولو كان عندي غير نعمتكم لقابلتكم به ، فأجابه الحاشية : كرامته قضاء مصلحته ، فقال نعم تقضى . فقال الولد : ان مولانا وسيدنا يخصكم بالسلام ، ويقول لكم هذه البلاد من أول هذا الأمر العزيز وهي مع هؤلاء الثوار في أمر عظيم ، وتحت ليل بهيم . وقد وصل اليها سيدنا عبد المؤمن ، وسيدنا أبو يعقوب ، وسيدنا الناصر ، وما منهم إلا من أنفق أموالا ، وأفنى في الحركة اليها رجالا . والمشقة شديدة ، والشقة بعيدة ، وما عاد واحد منهم إلا وعاد الويل وأظلم ذلك الليل . وهذه الدعوة كما يجب علينا القيام بها والذبّ عنها ، كذلك يجب عليكم ، وقد طلبنا في جميع اخوانكم السادة وأعيان أهل الجماعة من ينوب عنا في هذه البلاد فلم نجد عنك معدلا . فانحصر الامر الينا وإليكم ، فإما أن تطلع الى حضرة مراكش فتقيم هنالك مقامنا ونقيم نحن بهذه البلاد ، أو نطلع نحن الى حضرتنا . فقال الشيخ : يابنيّ أما القسم الأول فما لا يمكن ، وأما القسم الثاني فأجبت إليه على شروط . فسرّ الولد بذلك . وقبل يد الشيخ ، وقبل الشيخ رأسه . وانفصلوا كأنما عندهم تلك الليلة فتح جديد بالسرور الذي عمّهم ، والطمانينة مما كان أهمهم . ثم خلا الناصر به مستفهما عن شروطه . فاشترط ألا يتولى إفريقية إلا بقدر ما تصلح أحوالها ، وينقطع طمع الميورقي منها ، ويتخير الناصر في رجاله من يوجهه عوضاً عنه ، وجعل الغاية في ذلك ثلاث سنين ، وانه يعرض عليه الجيش

فيبقى معه من يقع اختياره عليه ، وانه ان فعل فعلا كائناً ما كان لا يسأل عنه ، ولا يعاتب فيه . الى آخر الشروط ، ومن رامها فليراجع محالها . وكل ذلك والناصر مقبل عليه قابل للشروط .

وخرج الناصر متوجهاً لأرض المغرب . وكان لسبع خلت من شوال ، وصحبه الشيخ أبو محمد ثلاثة أيام ثم رجع ، واستقر ملكها وملك طرابلس في يده وفي يد بنيه من بعده الى أن اختلفوا واستعان بعضهم بالافرنج

استيلاء صاحب جنوة على طرابلس

وأخذ صاحب جنوة طرابلس سنة ست عشرة وتسعمائة وأخذ حلق الوادي صاحب صقلية ، ومكثت طرابلس تحت يد النصارى ثلاثة وأربعين عاماً وقيل خمساً وأربعين سنة (١)

وسبب أخذهم لها أن أهلها بعد دخولهم في طاعة الموحدين كثرت أموالهم وتجاراتهم واطمأنوا ولم يشتغلوا بالحرب حتى لم تكن لهم به خبرة ، فقدمت عدة سفن للعدو موسوقة بأنواع البضاعة وفيها من كل نوع كثير فتقدم اليهم تاجرٌ من تجار المدينة فاشترى جميع ما فيها من سلع ونقد لهم ثمنها . واستضافهم رجل آخر وصنع لهم طعاماً فاخراً وأخرج ياقوتة ثمينة فدقها دقاً ناعماً بمرأى منهم وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك فلما فرغوا قدم اليهم دلاعا « بطيخا » فطلبوا سكيناً لقطعه فلم يوجد في داره سكين وكذا دار جاره الى أن خرجوا الى السوق فأتوا منه بسكين . فلما رجعوا الى جنوة سألهم ملكهم عن حالها فقالوا : ما رأينا أكثر من

(١) ذكر بالاصل بعد قوله خمسا واربعين سنة : فيكون احذهم لها سنة واحد وسبعين وثمانمائة او ثلاث وسبعين وثمانمائة ، وهذا الكلام غير ظاهر لان النصارى احذوا البلد في التاريخ المذكور ، وسيذكر المؤلف ان طورغود باشا اخرجهم منها سنة ٩٥٨ فتكون مدة اقامتهم فيها ٤٢ سنة وانما يصح كلام المؤلف لو كان تاريخ دخولهم الذى ذكره هو تاريخ خروجهم ، لذلك حذفناه من الاصل وبهنا عليه

أهلها مالا وأقل سلاحاً ، وأعجز أهلا عن دفاع عدوّ . وحكوا له الحكايتين . فتاقت نفسه لاخذها وجهز لها أسطولا فأخذها في ليلة واحدة بلا كثير مشقة واستولى عليها . ولم ينج من أهلها إلا من تسوّر ليلا . وانحاز المسلمون إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة . وصارت المدينة للنصارى

وقيل ان دخولهم لها كان بموافقة البعض من أهلها . والله أعلم أي ذلك كان

ولما انحاز المسلمون انتدب جماعة من أهل تاجوراء ركبوا شينيًّا وتوجهوا لصاحب القسطنطينية[1] يطلبون منه إعانة ، وكانوا لاخبرة لهم بلغة الترك ، فلما حضروا الى القسطنطينية استغرب أهلها زيّهم وسألوهم من أي البلاد أنتم ؟ فأخبروا أنهم من طرابلس الغرب قدموا لحضرة السلطان مستغيثين به ، فأحضروا بين يديه

وكان مراد علجاً خصياً للسلطان ربي بأرض المشرق وتعلم العربية فكان يعرب للسلطان عنهم . فأخبروه عن حال بلادهم وأخذ النصارى لها وتضييع ملوكهم دولهم ، وأنهم يريدون منه إعانة على افتكاك بلادهم وواليًا يلي أمرهم

ولاية مراد أغا[2]

فاستعمل عليهم مراداً وقدموا به لبلادهم ودانوا له وبايعه أهل غريان سنة ثلاثين وخمسين وتسعمائة . وبايعه أهل ريفها كلهم . قيل وراسلته خودة بنت شرومة بن محمد الفاسي صاحب فزان فأرسل اليها طائفة من جنده سنة ست وخمسين وتسعمائة فملكوا أرض فزان . والصحيح أن أخذ فزان إنما كان سنة خمس وثمانين وتسعمائة بعد فتح طرابلس وموت طورغود باشا بأيام ، إذ كان أمر الجند شورى بينهم وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر ذلك ولم يزل يوالي الغزو على

(١) وكان ذلك سنة ٩٢٦ ، وكان صاحب القسطنطينيه اذ ذاك السلطان سليمان الاول

(٢) وهو اول وال تركي في طرابلس الغرب

طرابلس ويضيق على من بها من الروم ومن ظهر منهم اختطفه المسلمون ، وبنى بعضهم قصراً بين البلدين لاختطافهم الى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة

فمرّ أسطول السلطان سليمان بالمدينة المذكورة مدداً لقلج على باشا إذ كان محاصراً لحلق الواد وبه طورغود باشا وهو قائده فخرج اليهم مراد ومعه أعيان بيعته من أهل تاجوراء[1] في شيني وطلبوا منه الاعانة فأبى عليهم وتعلّل بأنه لم يؤذن له فيها فهونوا عليه أمرها وصغروها بين يديه فأجابهم إلى ذلك بشرط أن يعطوه حجة على أن لا يكون عليه درك من السلطان لمخالفته أمره وأنهم المؤاخذون بذلك فأعطوه بذلك حجّة . وحاصروها براً وبحراً فأخذوها قيل عنوة وقيل طلب أهلها الأمان لأنفسهم فأجابوهم لذلك وخرجوا عنها

ولاية طورغود باشا

وتسلم طورغود باشا البلد وكاتبوا السلطان بذلك فسرّ به سروراً عظيما . وكتب له بولاية البلد وبايعه أهل جربة وقابس وأهل عمالتها . وقيل كان فتحها زمن ولاية سليم بن بايزيد . والصحيح ما ذكرناه من أنها زمن السلطان سليمان [الاول بن السلطان سليم الاول [2]] بن السلطان بايزيد [الثاني بن السلطان محمد الفاتح[2]] بن السلطان مراد الثاني بن السلطان محمد [جلبي بن السلطان بايزيد الاول بن السلطان مراد الاول [2]] بن أورخان بن عثمان بن ارطغرل بن سليمان . وكان سليمان ملكا في المشرق في بلاد ماهان بقربة من بلخ . واختلف في نسبه فقيل من التركمان الرحالة النزالة من نخذ التتر منهم ويتصل نسبهم بيافث بن نوح عليه الصلاة والسلام . كذا ذكره القطبي

(١) بلد شرقي مدينة طرابلس بنحو اثنى عشر ميلا بى بها مراد اغا جامعا ومدرسة كبيرة لاتزال تعرف باسمه الى اليوم

(٢) الزيادة من تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك

وقال صاحب درر الأثمان في منبع ملوك بني عثمان : إن أصلهم من عرب الحجاز وزاد جماعة من المؤرخين أنهم من أهل المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وعلى أنه من التركمان كان سبب خروجه من بلاد بلخ الى بلاد الروم تخريب جنكيز خان بلاد بلخ ، فتوجه سليمان شاه هذا وصحبه في خمسين ألف بيت الى أرض الروم فلما جاوز الفرات غرق سليمان فدخل ولده أرطغرل أرض الروم فأكرمه السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان الروم . ومات بالروم وخلف عدة أولاد أنجاد أشدهم بأساً وأعلاهم همّة عثمان ، نشأ مولعاً بالقتال وجهاد الكفار ، وأعجب ذلك السلطان علاء الدين السلجوقي سلطان الروم فأرسل اليه الراية السلطانية والطبل والزمر فلما وصلته تلك الآلة وضربت بين يديه قام تعظيما لامر السلطان وفرحاً بإقباله فصار شعاراً لآل عثمان ومن بايعهم من المستحقين لذلك الوقوف عند ضرب ذلك إلى وقتنا . ثم مات عثمان وانتقل الملك لبنيه

وقيل ان أصل عثمان هذا من عرب الحجاز وهاجر منها لغلاء كان بها واستقرّ ببلاد قرمان واتصل بأتباع سلطانها . وكانت رحلته لأرض الروم سنة خمسين وستمائة وتزوج من قرينا فولد له سليمان وتسلطن وهو الذي فتح (بروسا) في حدود الثلاثين وسبعمائة . ثم ملك بعده ابنه عثمان جواي الاصغر . وقيل هو الذي افتتح (بروسا) وهو الذي استقل بالأمر بخلاف آبائه فانهم كانوا من أتباع السلاجقة ، ولم يزل الملك يتداوله بنوه الى أن انتهى الى بايزيد وكان له عدة أولاد وكان يعدل بالملك لاكبر ولده أحمد ، والعسكر يميل الى سليم ويدعو الى الخروج عن الطاعة وخلع البيعة لما رأى من فعل أبيه بالعهد لأخيه عن مال اليه من العسكر فتحاربا ووقعت بينهما مقتلة ثم آل الأمر بينهما الى أن كتب العهد له لما رآه من ميل العسكر ، فتولى الملك واتسعت مملكته بملك مصر والشام وسائر ممالك

العرب . وتولى الملك سنة عشر وتسعمائة فأقام في الملك تسع سنين وثمانية أشهر وتوفي سنة ست وعشرين وتسعمائة وتولى ابنه سليمان في السنة المذكورة وعمره حينئذ ست وعشرون سنة ولبث في الملك تسعاً وأربعين سنة وتوفي سنة خمس وأربعين وتسعمائة وهو الذي أفتك ممالك بني حفص من أرض افريقية : طرابلس وتونس لابنه سليم خلافا للشيخ مرعي مؤرخ ملوك بني عثمان وأبي سالم العياشي ، وذلك أنه اتفق على أن فتح طرابلس كان سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وفي ذلك كان الأمر لسليمان وقد ذكر غير واحد أن أخذها كان من المدد الآتي لحلق الوادي نصرة وهو يقتضي حصر الجيش له . وقد ذكر الشيخ مرعي أن المحاصر لذلك قلج علي باشا وسنان ولم يل قلج علي الوزارة لسليم انما وليها لأبيه سليمان وكانت ولاية سليم بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين وولاية قلج علي باشا الوزارة لسليمان سنة ست وخمسين وتسعمائة (٩٥٦) وأقام بها أربع سنين وستة أشهر

وكان سليمان بن سليم سعيداً فاضلا جواداً ممدوحاً مجاهداً في سبيل الله ناظراً الى الرعية بالعدل لم يل الأمر من بني عثمان قبله أو بعده مثله . وصلت سراياه الى أقصى المشرق والمغرب وغزا بنفسه ثلاث عشرة غزوة عظيمة وكان مفتوحاً على يديه أيان سلك ملك ، وأنى توجه فتح وفتك مؤيداً في حروبه مسدداً في رأيه ، مسعداً في وقائعه ، ولم يزل مذ وَلي قائما بأمور الدين واظهار العدل وتأييد الشريعة وتجديد الأمة في القرن العاشر الى أن توفاه الله . وكانت أيامه من غرر الزمان

وقتل أول أمره أولاده خوف الفتن والخروج عليه ، خنق ولده مصطفى بعد توجيهه الى تبريز لأخذ العجم ، وتحيل في تحصيل ولده بايزيد فلم يمكن بعد ذلك إلا بعد فتن قتل فيها نحو الخمسين ألفا وحصل بقية أولاده محموداً وعبد الله

وعثمان وبذل مالا كثيراً حتى ظفر بهم فخنقهم وخنق أولادهم . ولما مات رثاه الشعراء بكل لسان ومنهم أبو السعود المفتي صاحب التفسير رثاه بقصيدة قال رحمه الله تعالى :

أصوتُ صاعقة أم نفخة الصور ... فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهيٌ وداهية ... وذاق منها البرايا صعقةَ الطور
تهدمت بقعةُ الدنيا لوقعتها ... وانهد ماكان من دور ومن سور
فمن كئيب وملهوف ومن دنف ... عان بسلسلة الاحزان ماسور
فياله من حديث موحش نكر ... يعافه السمع مكروه ومنفور
تاهت عقول الورى من هول وحشته ... فاصبحوا مثل مجنون ومسحور
تقطعت قطعاً منه القلوب فلا ... يكاد يوجد قلب غير مكسور
أجفانهم سفن مشحونة بدم ... تجري ببحر من العبرات مسجور
أتى بوجه نهار لاضياء له ... كأن غاراته شنّت به يجور
أم ذاك نعيُ سليمان الزمان ومن ... قضت أوامره في كل مأمور
وقى ومن ملأ الدنيا مهابته ... وسخرت كل جبار وتيمور
له وقائع في الاكناف شائعة ... أخباره وجدت في كل طامور
وراية رفعت للمجد خافقة ... تجري على علم بالنصر منشور
يا نفس مالك في الدنيا مخافة ... من بعد رحلته من هذه الدور
وكيف تمشين فوق الارض غافلة ... أليس جثمانه فيها بمقبور
فللمنايا مواقيتٌ مقدرة ... تأتي على قدر في اللوح مسطور
وليس في شأنها للناس من نظر ... ومدخل مّا بتقديم وتأخير
يانفس فاتئدي لا تهلكي أسفاً ... فأنت منظومة في سلك مقدور
إذ لست مأمورة بالمستحيل ولا ... بما سوى بذل مجهود وميسور

إن المنايا وان عمت محرمة على شهيد جميل الحال مبرور
مرابط في سبيل الله مقتحم معارك الحتف بالرضوان مأجور
ما مات ، بل نال عيشاً باقياً أبداً عن عيش فانٍ بكل الستر مغمور

ولم يزل طرغود باشا والياً بها ومراد آغا بتاجوراء محبوساً مكفوف اليد عن التصرف الى سنة سبع وستين وتسعمائة فتوفي مراد ، وفي مدة طرغود اشتغل بغزو أرض الروم وعمارة السّواني (١) وجلب الناس من أطراف البلاد لعمارة المدينة فعمرت

وقصده أسطول النصارى سنة ست وستين ليفتك البلد فرجع خائباً ، ولم يزل منصوراً مؤيداً في حروبه ناظراً للرعية بالعدل لم يفرض عليهم خرْجاً ولم يطالبهم بشيء الى أن دخلت سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة . فوجه السلطان سليمان أسطولاً كبيراً لأخذ جزيرة مالطة لأنه بعد أخذه جزيرة رودس استأمنه أهلها فأمنهم ، وخرجوا منها وعمروا جزيرة مالطة ولحق المسلمين منهم أذى كثيرٌ الى وقتنا هذا ملكها الله للاسلام آمين

فلما بلغه ذلك ندم على تركهم وأمانهم ووجه اليهم الاسطول سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة فلما حاصروها أرسلوا الى طرغود يطلبون مدداً فخرج اليهم في اثنى عشر شينياً (٢) فلما حاصروا بعض قلاعها أصابته رحمه الله كورة (٣) قيل لم يصبه جسمها وانما أصابه حرها ـ فنزل من حلقه دم كثير حتى استفرغ فمات ، وقيل أصاب جسمُها جوفَه فقطعت أمعاءه فدفنت هنالك ، وصبّر عليَّ قائدُ الاسطول باقيه وأرسله الى طرابلس ، فدفن بها ، وقبره الآن مشهور بمقربة من البحر بازاء مسجده الذي ابتناه بها بنكباء شرقيها والشمال . ولما أرساه وقع بين أهل الاسطول

(١) السواني (٢) الشيني اسم لنوع من السفن البحرية (٣) قنبلة

خلف أدى الى انكسارهم فأقلعوا عنها ولم ينالوا المراد منها

ولما بلغ الخليفة سليمان ابن سليم الخبرُ اغتم لذلك ، وعزم على تجهيز جيش عرمرم لها ليريح المسلمين منها فعاجله داعي الموت

ولاية يحيى باشا

ولما مات طرغود أرسل الى طرابلس الخليفة سليمان والياً من قبله يقال له يحيى يلي أسطول شوانيها وتدبير أمرها وأمْرَ الجند الذين بها ، فأقام بها الى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة فمات ودفن خارجها بقصر قراقش الارمني [1] وهو [غربيّ طرابلس] على نحو ستة أميال أو أقل من ذلك

وتغلب الجند على أمر البلد فلم يكن لواليها من قبل السلطان تصرف [2] ، واضطرب أمرها وفسد نظام الملك وكثر الهرج في الرعية فتغلب على غريان رجل يقال له حجاج سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ومنعها الطاعة . فلما كانت سنة خمس وثمانين وتسعمائة راسلت خودة بنت شرومة بن محمد الفاسي زوج المنتصر صاحب فزان العسكر بمدينة طرابلس أن يقدموا عليها لتملكهم البلد ، ووعدتهم بالعطاء الجزيل إن وصلوا اليها [3]

وسبب ذلك أنها كانت تحت ابن عمها المنتصر بن الناصر بن محمد ، وكانت له زوجة أخرى من أهل مرزك ولم يكن له منها سوى ابنة ، وكان له من المرزكية

(١) هذا القصر لا تزال أطلاله موجودة وهو مبني بالحجر المنحوت وتحته مغارات ، وكان اسمه قراقش لما كان حاكما على طرابلس ، والقرية التي بها القصر تسمى قرقارش ، وهي محرفة عن اسم قراقش

(٢) الذي يظهر بمقتضى ترتيب النائب في تاريخه ان هذا الوالي اسمه مصطفى ، وقد ذكر بين ولاية يحيى باشا وولاية سليمان ذاي ثلاثة ولاة . مصطفى باشا ، ولم يذكر له من الاعمال الا ما كان من نجدته لعامل القيروان لانتزاع تونس من يد الاسبانيول ، وتوفي سنة ٩٨٢ ، ومحمد باشا وجعفر باشا ، وهما اللذان ذكرهما بعده

(٣) وكان الوالي اذ ذاك « محمد باشا التركي » ولم يذكره المؤلف ، وكانت ولايته سنة ٩٨٢ ، وكان سيء الخلق جائرا في حكمه وهو الذي ولى مامي على فزان ، وتوفي سنة ٩٩٠

عدة أولاد ، وكان أكثر اقامته بمرزك ، وكانت تسكن القصر الاحمر بسبهة ، وكان قصراً منيعاً ، فداخلها ما داخل النساء من الغيرة ففعلت ذلك ، فوجهوا اليها طائفة ، واتفق أن قدم عليها المنتصر من مرزك ، فسدت أبواب القصر عنه وأحسنت لحاشيتها وقاتلته ، فحاصرها ثلاثة أيام فمات كمداً ودفن بجامع الحديد. فلما مات زال ما بها من الحقد وحدثتها نفسها بالملك فندمت على مراسلة الترك بالقدوم ندامة كسعية ، وفكرت في نفسها حيلة تستعد بها لهم إن قدموا عليها ، ففاجأها قدومهم بالقرب من موته ، فلما رأتهم قصدت الى حجارة على جبل بمقربة من القصر فألبستها أقبية الرجال وعمائمهم حتى ظنوا أنها رجال ، وانقطعت بهم الارض فراسلوها أن تفي بما وعدت بعد أن سدت القصر بغلق أبوابه وامتنعت تظن أن ذلك يقيها . فلما أيقنوا أن تلك الحيل حجارة هجموا على القصر فملكوه وأخذوها وعذبوها عذاباً شديداً ثم حرقوها . وتوجهوا الى مرزك بعد أن ملكوا سبهة ، وكان بمرزك الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي وكان أكبر أولاد المنتصر فلما بلغه الخبر وتيقن ألاّ طاقة له بقتالهم لعدم استعداده لهم فرّ بخزائنه وإخوته ومن تبعه من أعوانه لأرض كاشنه من أرض السودان واستقر بمدينة كاشنة ، وملك الترك البلد وجعلوا عاملا عليها منهم يقال له مامي وأقاموا معه طائفة من الجند ورجعوا قافلين . فلما قفلوا من أرض فزان وبلغوا البلد ودخلت سنة تسعين وتسعمائة قام أهل البلد على مامي ومن معه من الجند فقتلوهم عن آخرهم (١) ، ولم يفلت منهم الا طائفة من أولاد علوان كانوا عوناً للجند وأرسلوا الى الناصر بأرض السودان فقدم عليهم وبايعوه واستقر بهم الى سنة ثمان وألف فمات بها مريضاً

واشتغل جند البلد (٢) بما لا يعنيهم وجاروا على الرعية فقدم رجل من أهل

(١) كان قتل مامي ومن معه في زمن ولاية « جعفر باشا » ولم يذكره المؤلف وكانت ولايته سنة ٩٩٠ وفي زمنه كثر البغي والفساد وقطعت السبل ، وكثر جور الجند والعمال . وثار عليه الجند سنة ١٠١٣ فخانوه

(٢) اى طرابلس

المغرب يقال له يحيى بن يحيى السويدي وأظهر العلم والورع . وفي نفوس الرعية من جور الجند ما الله به عليم

وحكى أن رجلا من الجند كانوا نفوه لأرض الجزائر اذ كانت لجند طرابلس وهم الذين افتتحوها . فقدم مع رجل له قدمٌ في الولاية والصدق مع الله فاستشارهم على أن يمكث بالبلد ويمشي صحبته للحج ، فامنوا عليه وأمروه بادخاله فادخله ، فلما نزل الركب تاجوراء قتلوه فبلغه الخبر بذلك مع شكاية الرعية جورهم وفسادهم فدعا الله عليهم ، فانتدب لذلك يحيى بن يحيى السويدي فدعا الله أن يذيقهم على يديه الحتف

فقام يحيى عليهم سنة ست وتسعين(١) وبايعه أهل تاجوراء سراً وخرج ونزل بمسلاته . وكان لسناً فصيحاً جواداً مقداما فأكرمه أهلها وبايعوه ، وتسامع به الناس فأتاه حاضر الوطن وباديه ، فخرج الجند اليه وهو بها فالتقوا بمسلاته فكسر الجند وقتل منهم نحو الالف ، وأكثر من قتلهم أهل بزليتن ومن حولهم وقويت نفوس الناس معه ، ودها الجند ومن تابعهم بداهية لم يسمع بمثلها . ثم جند وقدم تاجوراء ، وانتقل منها وحاصر المدينة حصاراً شديداً حتى قارب الاستيلاء عليها فخذله شيخ العرب ابن نوير(٢) ومن تابعه وقاموا عليه ومسكوه وأمكنوا الجند منه فقتلوه سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأرسلوا الى السلطان مراد وأخبروه بما فعل ابن نوير ، فكتب لهم في خراج البلد وجعل لهم منه سهماً وافراً وأمر بتعظيمهم حين القدوم لدار الملك بطرابلس ، فلم يزالوا عليها وفيهم بقية من ذلك الى وقتنا هذا . ولم تزل طرابلس لتولي جندها الامر وطرحهم له شورى بينهم في تضعضع وتعب شديدٍ والثورة قائمة في كل ناحية

---

(٢) كان قيامه في زمن ولاية جعفر باشا وحاصر المدينة سنتين

(٣) اولاد نوير فخذ من قبيلة المحاميد يعرفون بهذا الاسم الى اليوم

فقام بعد يحيى سنة اثنتي عشرة بعد الالف في تاجوراء رجل يقال له نَيَّال وقام بعده عبد الصمد وخلع البيعة سنة تسع وألف

ولاية سليمان داي

ثم بايع الجند رجلا منهم يقال له سليمان داي [سنة ١٠١٢] وتسميه العوام صفرداي ليتولى أمر الخزانة والخراج فاحسن السيرة في ذلك وتقوت شوكته وقتل بعض رؤساء الجند

وفي سنة خمس عشرة والف خلع بيعته أهل تاجوراء وبايعوا رجلا يقال له أويس وتبعهم على ذلك بنو رُقيعة ونزلوا حوالى بلد تاجوراء بأهاليهم وخرج لهم سليمان داي براً وبحراً وقاتلهم فلم يفد فيهم شيئاً لقوة الاعراب وشجاعتهم فاتفق ـ لارادة الله تعالى خراب تاجوراء ـ أن وقعت دابة لبعض رؤساء بني رقيعة في زرع لبعض أهل تاجوراء فقتلها وأثار أهل تاجوراء ـ لبخلهم ـ لبني رقيعة مخاصمة أفضت الى ملاكمة ، فارتحل عنهم بنو رقيعة فدخل الجند البلد وقتلوا كثيراً من أهلها ، وهتكوا الحريم ونهبوا الاموال ، وزادت بذلك شوكة سليمان داى فتجاوز الحد في الجور على الرعية وأطلق يد الجند ، ولم يزل على ذلك الى سنة عشرين وألف فتاقت نفسه لطلب المنصور بن الناصر بن المنتصر بن محمد الفاسي صاحب فزّان بالاتاوة فراسله بذلك فامتنع عليه فوجه اليه جنداً فلما بلغ المنصور ذلك جند قومه واستعد للقائهم ، فجمع عشرة آلاف مقاتل ولقيه بمحل يقال له كنير (١) بين أم العبيد (١) والرملة (١) خارجا عن أرض فزان من جهة الشمال على مسيرة يوم من قرية الزيغن (١) فالتقوا هناك واقتتلوا

(١) هذه القرى معروفة بفزان

قتالا شديداً ظهرت فيه شهامة المنصور وشجاعته حتى هزم عسكر سليمان وأكثر فيهم أهل فزان القتل . ثم ردوا بعد الهزيمة وكسر المنصور واثخن بالجراح ، ولما علم عدم سلامته بعث رسولا الى أخيه الطاهر ليفر بالحريم والخزانة ففر لارض السودان كما أمره ، ومات المنصور من جراحته وقتل أكثر عسكره واستولوا على أثاث العسكر وسلاحه ، وتوجهوا الى أرض فزان فملكوها وجعلوا عليها عاملا تركياً يقال له حسين النعّال ومكث بها الى سنة اثنتين وعشرين والف ، وجعلوا معه طائفة من الجند فقام أهل البلد عليهم فقتلوهم عن آخرهم واستأصلوهم وراسلوا الطاهر بأرض السودان فقدم عليهم وبايعوه

ولما رجع جند سليمان من أرض فزان أمر بخراب قرية تاجوراء لما كان يبلغه عنهم . ثم رفع أهل تاجوراء به الشكاية بواسطة الجند للسلطان أحمد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن سليم بن سليمان وأخبروه بما فعل فأشكاهم منه [١] وأرسل أسطول شوانيه فدخلت طرابلس سنة ثلاث وعشرين وألف فاحتال قائدها في أخذ سليمان داي فأرسل اليه حتى أتاه داخل السفينة فصلبه في محل القلع من السفينة

واختلف فيمن تولى أمرها من جهة السلطان أيام سليمان داي : قيل الشريف باشا وقيل بصدرمج باشا واتفق على توليهما أمر البلد من جهة السلطان وبصدرمج ـ بباء موحدة مفتوحة بعدها صاد ثم دال مهملتان ثم راء ثم ميم وجيم ـ لقب له وهو اسم القديد بلغة الترك ، غلب عليه اللقب حتى لا يعرف الا به . وسبب تغلبه عليه كثرة مهاداته السلطان بقديد الغزال

---

(١) في اساس البلاغة : وشكوت اليه فلانا فأشكاني منه اي اخذ لي منه ما ارضاني به

ولاية شريف باشا

ثم بعد موت سليمان داي بايع الجند رجلا شريفاً كان من أهل القسطنطينية قدم طرابلس زمن سليمان داي حكيما يداوي المرضى ، ثم انتقل منها الى تونس وانتقل منها الى الجزائر وأقام بها مدة ، ثم أناب الى طرابلس فوجد سليمان داي قتل وكان معه لطافة وظرف فولاه العسكر أمر البلد وبايعوه على ذلك ولم يزل والياً لامرها وتفريق رزق الجند وضبط الخراج الى سنة خمس وثلاثين والف وقيل الى سنة أربعين والف فقام عليه الجند فلما أحس بذلك أغلق القلعة واستعد لقتالهم بمن معه فيها فكبر عليهم ذلك فاستنزلوه منها بحيلة وذلك أنه كانت له عقيدة بالغة في الشيخ العارف بالله سيدى محمد الصيد اليحياوي نسبة ليحيى بن محمد من بني رقيعة القبيل المشهور بالبلد : وقد كان فاضلا متنسكا منقطعاً لله تعالى عارفا به دالا عليه ، له كرامات ظاهرة ، كان في ابتداء أمره في ديوان الجند فبعثوه في بعض الخدم الى جهة الشرق ، فلما مر بقرية الفواتير وجد بها رجلا مهدويا منجذباً فلحظه فانتقل عن حالته وتوجه بكليته الى الله تعالى . توفى رحمه الله تعالى لست بقين من رمضان سنة خمسين والف . فألبس الجند بعضهم شبه الشيخ واستنزلوه عن إذن الشيخ فامتنع الا أن يرى الشيخ فلما رأى من ألبس شبهه لم يشك فى أنه هو ، فألقى السلم ونزل اليه فقطعوه قبل أن يصل الارض . فسبحان من لا يحول ملكه ولا يزول

ولاية رمضان داى

ثم بعد موته بايع الجند رجلا منهم يقال له رمضان داي يدبر أمرهم ، وكان ضعيف النكاية وبذلك تقوت شوكة الاعراب حتى أرادوا أهل البلد على الاتاوة

وكانوا يأخذون اللحم من الجزرة اذ كانت خارج باب هوارة من جهة الغرب ، وفي أيامه قدم محمد باشا الساقسلي ـ نسبة لساقس وهي جزيرة مشهورة من جزر الروم ومنها تجاب المستكى البلدي وهي على دين النصرانية ـ نوتياً في بعض سفن النصارى فحضر مجلس أخذ الفأل بالحصباء خارج باب هوارة فأخبره الآخذ أن ملك البلاد يصير اليه فأعادها فاخبره بذلك فعجب في نفسه من ذلك وهو على دين النصرانية وهي قضية اتفاقية كقضية عمرو بن العاص رضى الله عنه حين قدم الاسكندرية في جاهليته مع بعض أساقفة النصارى بسبب معروف كان صنعه فيه عمرو لما قدم الشام تاجرا ، وكان عليه رعي الابل ، وكان الاسقف من العباد فأصابه العطش واشتد به ، فمرّ بعمرو فاستسقاه فسقاه ، ثم نام بازائه فجاءته حية لتنهشه فقتلها عمرو دونه ، فلما أفاق وشاهدها سأل عمراً عن ذلك فأخبره الخبر ، فقال كم دية الرجل عندكم معشر العرب ؟ فقال مائة بعير ، فقال كم يساوي البعير عندكم؟ فقال عشرة دنانير ، فقال هل لك أن تقدم معي الاسكندرية فأعطيك ديتين لاحيائك لى مرتين ؟ فأجابه عمرو إلى ذلك ، وقدم على أصحابه فأخبرهم بذلك ووعدهم إن انتظروه إلى قدومه أعطاهم إحدى الديتين ، فأجابوه إلى ذلك وانتقل معه حتى وصل الاسكندرية . فبينما هو بها اذ وافى مجلساً يلعب فيه أولاد الملوك بكرة يترامونها بينهم فمن خرجت من كمه تولى أمر مصر فرموها بحضر عمرو فأصابت كمه فخرجت منه فتعجبوا من ذلك ، فأعادوها فأصابته ، فكان أن تولاها عمرو في خلافة عمر رضي الله عنهما ففتحها وكتب له العهد عليها

ثم انتقل محمد باشا الى الجزائر وهو على دين النصرانية فأقام بها ثم أسلم ، وعمّر شينيا واشتغل بغزو أرض العدو ، ثم قدم بشينيه على طرابلس وأحب الدخول في جندها فأتى رمضان المذكور وأعلمه أنه يحب الدخول في جنده فرتبه في ديوان رؤساء السفن فغزا أرض العدو وأصاب غنائم : ثم تاقت نفسه لمصاهرة

رمضان فعقد له على ابنته مِنًا ودخل بها

وكان الغالب على دولة رمضان امرأة يقال لها مريم بنت فوزالشبلية لنفوذ كلمتها عند الاعراب الغالبين على أمر البلد ، وهي التي تتوسط بينهم وبين الجند بالخير ، فلذلك عزت كلمتها وارتفع كعبها في البلد حتى كان الديوان يأتيها لبيتها وكانت تحت بعض رؤساء الجند

فلما رأى محمد ساقسلي ذلك وضعف رمضان وخوره راوده على تسليم الامر اليه فأجابه إلى ذلك ، ودبّر حيلة في ذلك خشية ألا يرضى الجند ، فأمره أن يخرج غازيا وأن يعلم طائفته بذلك ويدخل ليلا ويستأذن في دخول القلعة ، ففعل ودخل البلد ليلا واستأذن في الدخول فأبى عليه الجند المرتب بها للحراسة حتى يستأذنوا له ، فاستأذنوا رمضان فأذن في دخوله فدخل بمن معه ، فلما استتموا بالدخول بطش بمن بالقلعة من الجند ، واستولى على الخزانة وأصبح يبايعه الناس

ولاية محمد باشا الساقسلي

فلما تمت له البيعة وظف على دور البلد في كل شهر شيئاً لضعف الخزانة ، وأجرى بالباب مكساً على الخارج من المدينة والداخل اليها ، وكان عدة ما يأخذ من استلزام البابين في كل سنة ألفين وخمسمائة ريال وقدّر على الشجر من النخل والزيتون وظيفاً قليلا يعطونه في كل سنة

حكي من يوثق بخبره قال حدثت ممن أدرك ذلك أنه كان يأخذ على النخلة الواحدة بيضة ، وكانت جباية ذلك عند تمام السنة

وكان عثمان الساقسلي ملجا لبعض الجند وقيل للشريف داي الذي تقدم ذكره فاستعمله قائداً بساحل آل حامد لأخذ العشر وما فرضه على الشجر ، وكان

اكتسب من أخلاق العرب وشجاعتهم فظهرت منه نجابة ، وكان محمد المذكور أراد أن يبطش بمريم بنت فوز ، فمرض زوجها فأتاه يعوده واستصحب معه دواء مسموماً ودفعه له ، فلما تناوله خرج محمد من عنده فما بقي الا يسيراً حتى قضى نحبه ، ولما خرجت مريم من العدة خطبها قيل لنفسه وهي رواية الاكثر ، وقيل لبعض علوجه وأمر بدخولها للقلعة فهيء لها بيت ، ورفعت ما كان بيدها له ، فلما استقرت بها أمر بها فقتلت واستولى على ما بيدها

ثم دبّر مع أحمد بن رقيمة حيلة في قمع محاربي الاعراب فأشار عليه بترتيب جند بريّ وأن يركبهم الخيل ، فرتب جنداً وأركبهم الخيل وولى قيادة جيشهم عثمان الساكسلي لما ظهر منه من نجابة وشجاعة وصار يغزو أهاليهم فيأخذهم ، ويحتال على رؤسائهم فيأخذهم بالامان فيقتلهم ، حتى كسر شوكتهم وضرب الخراج على من استضعفه ودان له منهم

ولم يزل هذا دأبه معهم (١) الى أن دخلت سنة تسع وخمسين وألف ، فمات في ذي القعدة ليلة الجمعة لليلتين خلتا منه وقيل سنة ستين وألف والاول أصح . وكانت ولايته سنة أربعين وألف وقيل سنة اثنتين وأربعين وهي رواية الاكثر وكان موته بسمٍّ سحق له ووضع في تفاحة وأعطاه إياها طبيبٌ افرنجيٌّ كان أسيراً عنده — كما تدين تدان — ولما أكل التفاحة اشتد به الألم وصاح بخازن داره رمضان حتى أحضره بين يديه فلم يسمع منه كلمة سوى لفظة « أوغلم أولدم » ومات ، ومعنى هذه اللفظة التركية يا ولدي متُّ

ولما مات أغلق رمضان المذكور دونه باب الدار ولم يدع أحداً من الغلمان الحاضرين يخرج إلا غلاما له يقال له محمد أرنورت ، وأوصاهم بعدم الصياح وألا يخبروا أحداً من الخارج ، ونزل فأرسل خلف محمود كيخية

(١) اى دأب محمد باشا الساكسلي مع الثائرين عليه

فحضر فأخبره بموت الباشا واستفهمه عن وجه الرأي في ذلك ، فأجاب محمود: الرأي عندي أن تلي الامر أنت وأبايعك على ذلك وأنا بمحلي ، وعليّ ضبط البلاد أحسن مما كانت في مدته ، ولا أدع مشوشاً عليك بشيء . فقال لا طاقة لي بهذا ولا أتحمل هذا الخطب العظيم ، والرأي أن تتولى أنت مكانه إذ كذلك القانون ، فقال محمود لا أفعل . وكل هذا وليس معهم إلا غلامان أو ثلاثة لها ، فلما تطارحا الأمر بينهما وأباه كل منهما قال رمضان : كان الباشا يقول في حياته : سئمت من هذا الأمر وكبر سنّي ومات ابني وأريد أن أسلم لعثمان باي وأستريح ، وكان ابنه مات ليلة السابع والعشرين من رمضان من سنة موته ، فلم يكن بينهما إلا نحو الخمسة والأربعين يوماً، هكذا سمعت منه، فلما سمع ذلك محمود كيخية نهض لنداء عثمان باي لذلك الأمر ، واستصحب معه محمد أرنورت تابع رمضان خازندار ، فلما أتيا داره وصاحا به أشرف عليهما وسأل ما الخبر ؟ فأخبروه فامتنع قليلا ، فأقسما له ، فلما تحقق نزل وسار معهما إلى القلعة ، ففتح لهم رمضان خوخة الباب وأدخلاه وحده ، ومنعوا الاربعة نفر الذين أتوا معه من الدخول وأغلقوا الباب دونهم ، فلما استقر بهم المجلس قال لرمضان : تولّ الأمر وأنا خادمك كما كنت مع سيدنا لأني أعرف محبة أهل البلد لكم ، وكذا رعيتها وحاضرها وباديها ، وأعلم ثناءهم الخير عليكم ، فامتنع وقال لاطاقة لي بهذا الخطب ، فرغبه عثمان ومحمود في هذا الامر كثيرا وتكفلوا له بتمهيد البلد وضبط خراجها وجندها وحالفاه على ذلك ، فأبى عليهم وقال : سمعت من الباشا في حياته يريد تسليم الامر إليك

دولة عثمان باشا

فأخذه محمود كيخية وأجلسه على الكرسي وبايعه ، وتبعه على ذلك رمضان

الخازن ، ثم أرسلوا خلف مصطفى شلبي وأحضروه وأخبروه الخبر فرضي وبايع وأرسلوا الى محمد باي فأحضروه فرضى وبايع ، وجعلوا يصيحون بأهل الحصار فرداً فردا وكل من أتى أخذوا بيعته حتى بايع أهل القلعة كلهم ، واشتغل بعد ذلك بالكتب للعمال وأهل الطاعة يخبرهم بموت محمد وتوليه ويهنئهم . فلما أصبح فتح القلعة والمدينة وأمر المنادي بالنداء للأول بالرحمة ، وللثاني بالنصر . فلما سمع أهل البلد ذلك دخلوا فبايعوا كلهم ولم يختلف عليه أحد من أهل البلد والعسكر فأقبلت الرعية للبيعة أفواجا ، وفرّق في العسكر لكلٍّ عشرة ريالات ثم أخرج محمد باشا ودفنه بازاء تربة رمضان داى على السكة النافذة للبحر من شرقي المدينة ، وبنى عليه بناية عظيمة ووقف عليه أوقافا ، وغرس في التربة غرسة كرم ألبست المحل أنساً وبهاءً ، وأسقط عن دور البلد الوظيف الذي كان وضعه عليها محمد باشا تؤديه كل سنة للحراسة . وأسقط عنها وظيف القضاة الذين كانوا يأخذونه من الميت

كان القضاة إذا مات الميت أرسلوا لوارثه وطالبوه بدفع سدس ماله ، وسموا ذلك فريضة ، وهو ظلم وجور لم يقل به مسلم ولا ملة من الملل إلا ما حكى بعض الاخباريين عن فرعون في ابتداء أمره من أخذه مكساً على الميت ، فإن عنوا بالفريضة فريضة فرعون فالاسلام نسخ ماقبله ، على أن ذلك لم يكن شريعة وانما هو ظلم ، وان عنوا أنها فريضة اسلامية واعتقدوا احلها فهم كفار ملحدون ، إذ الاجماع والكتاب والسنة على حرمة مال المسلم ودمه بغير حق شرعي ، أما الكتاب فقد قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » عطفاً على ماقبله من تبيين حدود الله فهو منها والآية محكمة ، وأما السنة فحديث الصحيح : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » والاجماع على ذلك . وكانوا من حرصهم على هذا السحت يقوّمون على وارثه جميع ما خلفه من عقار وغيره

باغلى ثمن ويأخذون سدسه ، وزيادة فوق ذلك ، فحمده أهل البلد على ذلك وأثنوا عليه الجميل

ثم راسل السلطان محمداً الرابع في طلب الإمارة فكتب إليه السلطان بذلك وولاه أمر طرابلس وعملها وعمارة السفن والغزو في البحر فغنم من الكفار سفناً كثيرة وأموالا غزيرة ، وكان جمّاعا للاموال بكل وجه أمكن واستمر على ذلك ، وفي كل سنتين يجدد له السلطان تشريفاً وكلما جاءه رسول من قبل السلطان أحسن إليه الاحسان الكلي

فلما تمكن اشتد ظلمه ومنع التجار المسافرين لارض فزان من التجارة في النحاس والخرز والكاغد ، ونادى ألا يتجر بذلك أحد غيره ، وحجر على الناس شراء السلع المهمة القادمة من البحر ، وأقام رجلا لشرائها ، ودفع لرجل مالا يشتري كل سلعة تأتي من بلاد النصارى أو غيرها ، ولا يستطيع أحد أن يشتري سلعة من أربابها غيره وهو يبيع لأهل السوق ، فبذلك ضعف تجار أهل البلد والمسافرون لارض فزان ، وضعف الجالبون حيث لم يصادفوا ربحاً بسبب الحجر عليهم

قال حسين بن أحمد البهلول فيما كتب ومن خطّه نقلت : كان ذا حزم وعزم وشجاعة ، طالت دولته واشتهر خبره في مشارق الارض ومغاربها ، وكان قبل ولايته وهو قائد الجيش عند محمد باشا له فتكات في مغازيه وأحواله قل أن توجد في الاكثر من أمثاله ، وكان شديد العزم في غزوه على الاعراب ، وربما بقي الستة الايام والسبعة لم يترجل عن فرسه إلا لضرورة ليلاً ولا نهارا ، وربما علق على الفرس العلف وركب فرساً آخر غيره

وكان في أيام محمد باشا خلع بيعته جبر بن موسى التاورغي ولم يدخل يداً في الطاعة واجتمعت عليه قاوب أهل تاورغاء لكرم كان فيه لم يسمع بمثله الا لحاتم وأحبه الأعراب

يحكى أنه نحر في عيد أربعين جزوراً وثلاثمائة شاة ، ومدحه الشعراء .
فوجه محمد باشا اليه عثمان بك في جند لحصره بتاورغاء بلده ، وهو بلد وخيم له حمى شديدة الحر على مسافة ست ساعات من مصراته أو أزيد بقليل ، وبه عين ماء عذب يشبه النيل ماؤها في الغزارة ومنه تنفجر الأنهار والجداول الجارية في البلد لسقي النخل، وبها من شجر النخل وضروب أنواعه ما لا يحصى كثرة ، وأرضها سبخة ينقلب بها طعم الماء الى الملوحة فاذا كدّ تمرر. صعبة المسالك لا يكاد يهتدي لمنازلها الخبير من صعوبة ذلك ، فحاصره بها ودخلها وقطع نخل بعض جهاتها ، فالتقى الفريقان فوقعت الهزيمة في جند عثمان ، فلما رأى ذلك ترجل عن فرسه وأسند ظهره الى نخلة واخترط سيفه وأقسم لا يزول من محله الا أن تكون الكرة عليهم أو يموت ، وصاح بالجند وهو يحرضهم على الثبات ويقلل القوم في أعينهم ويقول : اثبتوا وأنا أكفيكم حتى ردعليه الجند، فوقعت الهزيمة على جبر وانهزم بمن معه وخرج من البلد واستولى عثمان على حريمه وبعض أولاده ، فاستصحب الأولاد والحريم حتى نزل مصراته فترك الحريم بها وقتل أولاده بمحل السوق القديم بالبلد بقرية أولاد شوشان ، وهي قرية صغيرة غربي مدفن الشيخ زروق ، دفنوا بموضع يقال له مسيد بن دخان - بميم وسين مهملة بعدها مثناه تحتيه ودال مهملة آخر الحروف - خارج البلد بنحو ميل عنها لجهة الشمال ، ولم يتركهم يدفنون بمقابر المسلمين .

قال وكان مؤيداً بالنصر والظفر ، ما توجه لناحية إلا ظفر بها ، وكان في عداد جند محمد باشا وصهره رمضان .

وكان أهل فزان قتلوا حسيناً النعال كما ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وألف وبايعوا الطاهر ولم يزل بها معتدل الحال الى سنة اثنتين وثلاثين والف فطغى الطاهر وتجبر وزاد في الخراج على الخرمان أهل وادي الآجال[1] وهو واد متسع

(١) قال الشيخ فالح في حواشيه على تاريخ النائب : وهم امم من البربر يعرفون بالخرمان

كثير النخل وبه من شجر العنباء كثير، وعرضه نحو الثمانية عشر ميلا ، تكتنفه من جهة الغرب رمال ، ومن القبلة والشرق جبال شواهق ، وفيه مراتع الابل قل أن توجد ، وأهله يشربون من الآبار ، وماؤه عذب فرات ، وهو واد مخصب في الزرع والثمر وكل الفواكه ، وأهله من الشمال الخرمان ، ومن الجنوب طائفة من العرب يسمون الحجاج واليه يأوى التوارق ، وأكثر أهله بيض ، وبالرملة التي غربيه قطع ماء يكتنفها الرمل من كل جهة وهو ملح أجاج أشد ملوحة من البحر ونتنه يشبهه ، ولا يعلم له عمق ، وقد عرف والرمال تنهال فيه ولم يظهر لها فيه أثر وأعظم تلك القطع القطعة المسماة بقبرعون[1] يسكن حولها قوم من أهل الوادي يسميهم أهل تلك البلاد الدوادة لاصطيادهم من ذلك البحر ديدانا طوالا حمراً تشبه الدود الكبير وأكثر ما يمكن اصطياده زمن الربيع والخريف ويقل في الصيف ، ولا يمكن اصطياده في الشتاء لصعوبة البحر، وهو مسهل نافع جداً مخرج للصفراء ، وهي من أطيب البلاد هواء وأهلها لا أرض عندهم تزرع لاستيلاء الرمل عليها ولهم غرس نخل بجنب البحر ، وبازائه أحساء ماء عذب لا نظير له ، ويأتي لذلك البحر من به علة فينغمس به فيبرأ بحول الله وقوته كائنة ما كانت علته ، وماؤه ساخن ، وأهل تلك النواحي يستشفون به ، وهو على مسيرة نصف يوم من الوادي

والقطعة الأخرى تسمى مندرة وهي مثل الاولى في النتونة والملوحة ، وليس بها من الديدان شيء ، ويكتنفها من كل جهة النخل ، وبها أنواع عجيبة وثمرتها قتباطاً بالطيب ، الباكورة منه تكون بآخر الخريف وباقيه يكون في الشتاء ،

(٢) قال الشيخ فالح . تسمى بحيرة قرعون

وبه رجل صالح يسمى زائد بن رزق يقصده أهل تلك النواحي بالزيارة وحوله ناس ، وبينها وبين قبرعون نحو الستة الاميال

والقطعة الأخرى تسمى الاطرون لاستخراجه منها زمن الصيف

فانتقلوا فارين الى طرابلس ، فأحس الطاهر بخبرهم فراسل مرابطي سبهة بالتعرض لهم وارضائهم فتعرضوا لهم واسترضوهم فلم يرضوا ، وراسل عامله على سوكنة أبا نوح المصراتي بالتعرض لهم فلم يقدر ، فقدموا على رمضان داي وصهره محمد الجزائري وهو الغالب على أمره ، فأكرمهم ووجه معهم جيشاً لارض فزان ، فلما سمع الطاهر بذلك فرّ الى أبي نوح وكان ملكه إذ ذاك الامير عمر المقدسي[١] وكان في نفسه من الطاهر شيء بسبب سَمْله عَيْنَيْ ابنيْ أخيه محمد المنصور : المنتصر ومحمد وإرسالها لدار ملكه ، وكان ذلك سبب تغير المقدسي عليه . فنفر نفيراً شديداً حتى عزم على التوجه إليه ، فأخبره بعض منجميه بأن سيقدم عليك الطاهر أرضك ، فلما فرّ هو وأعوانه وبلغوا قرية يقال لها بلد المرأة ـ اومنها افتراق طريقي السودان وابن نوح[٢] ـ ولم يكن لارض السودان طريق الا من هنالك ، والطريق المارة عليه على قرية غات[٣] حديثة عهد . فلما بلغوا تلك القرية أراد أعوانه التوجه لارض السودان ، وأراد هو ابن نوح ، فافترقوا من هنالك بعد أن كابد أعوانه معه شدة في عدم التوجه اليهما فأبى عليهم إلا التوجه ، فتوجه وكان معه اثنا عشر حملا ذهباً . فلما بلغ الأمير عمر خاط عليه وعلى من معه من أولاده ومن توجه معه من أعوانه شكاير[٤] وأغرقهم في البحر[٥] وتولى العسكر البلد وجعلوا أحمد بن هويدي الخرماني عاملا

(١) هذه العبارة غير واضحة ، وهي في الاصل كما ترى

(٢) هكذا بالاصل ولعله يريد « والطريق الموصلة الى بلد ابن نوح »

(٣) غات ، ويقال لها رات : مدينة بربرية قديمة بالصحراء على نحو ٣٩٥ كيلو مترا الى الجنوب والغرب من مرزوق ، وحولها سور ، وطرقها مقفولة لا يدخلها الضوء الا من فتحات صغيرة ، وحولها قرى ونخل كثير . والماء فيها كثير . واهلها الطوارق ، ويتكلمون البربرية ويباشمون . دخلها الحكومة العثمانية سنة ١٨٧٤ م ، واخرجها الطوارق منها سنة ١٨٨٦ واستردتها بعد ذلك بسنة

(٤) غرائر (٥) يعني مستنقعاً

عليه ، وأبقوا معه طائفة من الجند لحراسة البلد وضبط خراجها ، فلم يزالوا بها الى سنة ست وثلاثين وألف ، فتوجه اليهم الامير محمد بن جهيم ابن أخي الطاهر وكان قد فرّ معه ، فلما توجه عمه لارض ابن نوح كره ذلك وتوجه لارض كاشنة ومات ولده جهيم بها ، فراسل ولده محمد أهل فزان خفية فتوجه اليهم بمن معه

فلما سمع بذلك الخرماني جند من معه ومن وافقه وخرج للقائه فالتقيا بحمّيرة[1] ــ بلد بين زويلة وتراغن ــ وأوقع محمد بهم ففروا الى مرزك[2]، فقفا أثرهم وحاصرهم بها حصاراً شديداً حتى فني طعامهم وأكلوا ما معهم من الدواب حتى أكلوا الحمر ، وراسلوا ــ وهم محصورون ــ محمد باشا يطلبون المدد فوجه اليهم مدداً ، ولم يكن للامير محمد بن جهيم علم بالمراسلة

وكان سلطان بن مرعي الفيباني ــ نسبة الى قبيل الفيبان فخذ من بني مقرح ــ محصوراً معهم وكانت له صداقة مع عبد الله دباش الحسناوي ، وكان عبد الله المذكور مع الامير محمد بن جهيم وكان مواصلا لصديقه سلطان المذكور وهو محاصر وكان يضع له الطعام بمخلاة ويأتي به قبالة القصر فما يستطيع أحد أن ينزل اليها غير سلطان ، فاذا جن عليه الليل نزل اليها وأفرغ مافيها ووضعها محلها ورجع ، فكان هذا دأب عبد الله معه ، فلما جاءهم الخبر أن المدد قرب منهم أراد سلطان ابن مرعي مكافأة صديقه باعلامه به خوفا أن يستولى عليه إذ لاعلم للأمير محمد ومن معه بهم ، فأعلمه تلويحاً بأن خاطبه : بأن العَوْدة ولدت مهراً ، فكنى عن

(١) بكسر الحاء المهملة وتشديد الميم

(٢) مرزك ، ويقال لها مرزوق : قاعدة بلاد فزان وهي على نحو ٧٧٥ كيلو مترا الى الجنوب والشرق من مدينة طرابلس ، وحولها سور من الطين ، وعليه ابراج ، واغلب ازقتها ضيق متعرج ، وهي مقر موظفي الحكومة العثمانية ، وسكانها خليط من كل امم افريقية وغيرهم ويتكلمون اللغة العربية ويعرفون البربرية والتركية والسودانية ، وتكثر بها حمى الملاريا في الصيف لوقوعها بين مستنقعات ، وتبلغ درجة الحرارة فيها في الصيف الى ٤٥ درجة في الظل ، والى ٩٠ درجة في الشمس ، وفيها عيون عذبة . وبواحة مرزوق اكثر من ثلاثين نوعاً من التمر . والنخل فيها كثير جدا ، يزيد ما تأخذه عليه الحكومة العثمانية من الضريبة على المليون اه مختصرا من التبيان لراوة بك

أنفسهم بالعودة وهي المسنة من إناث الخيل لأنها لاتقدر على الكر و الفرّ ، كما أن المحصور كذلك ، وعن المدد بالمُهْر وهو الصغير من ذكور الخيل لقوته على الكر والفر ، ففهم عبد الله أنه أتاهم مدد فأخبر محمد بن جهيم بذلك فأفرج عليهم الحصار وانتقل عنهم ، وفر أمامهم متقلباً في أرض فزان اذا دخل أرضاً دخلوا عليه فيقاتلهم حتى سئم الجميع من ذلك

فحضر مرابطو فزان من كل قطر[1] وعقدوا بينهم صلحاً على أن يكفوا عن بعضهم و يقفوا عن القتال الى أن يراجعوا محمد باشا ، فراجعه سيدي علي الحضيري المعداني الفقيه الشهير وأخوه كلالة سيدي حامد الحضيرى وجعلوا صلحاً بينهم على أن يخرج الترك من أرض فزان ويدعوها بيد صاحبها ، ويؤدي اتاوة كل سنة أربعة آلاف مثقال ذهباً : ألفين منها تبراً وألفين يعطون قيمتها عبيداً وإماء ، وجعلوا ثمن كل عبد ذكر خمسة وعشرين مثقالا ، وثمن الأمة ثلاثين مثقالا ، وثمن الخصي ثمانين ، وتحملوا بنفقة الرقيق ، وان من مات منهم عليهم الى أن يبلغوا سوكنة ، ومنها الى المدينة على السلطان ، وكراء رواحل الرقيق على السلطان صاحب طرابلس وكل ما ذكرنا للخزانة . واشترطوا لآغة العسكر ثلاثة عشر مثقالا وثلثاً ذهباً ، ولكتبة دار الملك سبعة مثاقيل الا ثلثاً ، ولسمي النوبة وألي أمرها[2] ثلاثاً وثلاثين مثقالا وثلثاً وخصيّا ، وانعقد الأمر بينهم على ذلك ، وبعث محمد باشا لجنده بالانتقال ان التزم محمد بن جهيم بذلك . فلما بلغ محمداً مافعل الشيخان التزم بذلك وسلم له الجند في بلده . وانما ذكرنا القصة هنا مع مافيها وان كان محلها عند ذكر محمد باشا لما اشتهر من أمر كبير جنده البرّي عثمان المذكور فلعله يُظن أنها كانت على يديه ، ولم أقف على من ذكر أنها كانت على يديه ، ولم يزل محمد بن جهيم متولياً أرض فزان الى أن دخلت سنة تسع وستين فتوفي

(١) المرابطون باللغة الدارجة عندنا هم الاشراف وطلق على ارباب الطرق (٢) كذا بالاصل

وتولى ابنه جهيم موضعه بعهد منه

قال حسين بن أحمد فيما كتب في شأنه : كان عثمان هذا داهية حازماً له من الرأي والتدبير وكتمان السر ما لم يكن لغيره ، كان اذا ورد عليه كتاب قرأه بنفسه ثم وضعه في جيبه ، واذا أمر بكتاب كتب ثم عرض عليه فقرأه بحيث لا يستطيع أحد الزيادة عليه ، وكان ذا مكر وخداع لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة

ولما عقدت له البيعة رآه بعض الاعراب مشرفا من أعلى برج القلعة فقال : الآن استراحت الاعراب واطمأنت وحق لها السرور حيث سجن هذا الرجل نفسه ، فقال من معه : الرجال كثير غيره يقومون مقامه . فقال : ما أظن أحداً يقوم مقامه ، هيهات هيهات أن يكون أحد مثله

ولما كان في خدمة محمد باشا كان أحمد بن عبد الهادي صاحب اوجلة [1] له نحو العشرين رامياً بالبندق أتى بهم من مصر ملك بهم الجبل الاخضر كله ودان له بذلك أهله ، فأتى عبدُ الله بن سيدى أحمد بن حوده عثمان وكانت بينهما صداقة وأخبره بذلك وهوّن عليه أمر أوجلة والجبل ، فعرض ذلك على محمد باشا وطلب منه الاذن فاذن له في ذلك ، فخرج بطائفة من الجند معه في البر وأمده محمد باشا بطائفة أخرى من البحر . فلما بلغ عثمان باي أوجلة خرج اليه أحمد بن عبد الهادي وجنده وأهل البلد في قوة عظيمة لا يقدر عليها ، فلما رأى ذلك

---

(١) اوجله : واحة على نحو ستين ساعة الى الجنوب والشرق من بنغازي وطولها من الشرق الى الغرب يوم تقريباً وحولها سور من الطين — لم يبق منه الآن الا آثاره — واوجله اسم للبلاد ، واسم المدينة ارزاقية . وسكانها بربر ولغتهم البربرية . اه مختصرا من التبيان لرافة باك

وفيها قبر عبد الله بن سعد بن ابي سرح احد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ارضعت امه سيدنا عثمان فهو اخوه لامه ، وولاه مصر سنة ٢٥ ففتح الله على يديه افريقية وكان فتحا عظيما كان سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف مثقال ذهبا ، وسهم الراجل الف مثقال ، قال في اسد الغابة : توفى بعسقلان وقيل بافريقية سنة ٣٦ وقيل سنة ٣٧ اه

والناس عندنا لا يشكون في وجود قبره باوجله لانهم توارثوا هذ الرواية صغيرهم عن كبيرهم منذ اجيال

ذهب الى الخديعة على عادته ، فاظهر لهم الاسف والندم على تعبه اليها ، وقال لو علمت أن أوجله هكذا بليدة في صحراء ليس لها ضياع تقوم بسا كنها ولا كثرة نخل ولا مياه ولا غيرها لما كنت قدمت اليها ، ولا جبرت هؤلاء المساكين ، والله ما بي الا ذلك ، وأما أنا فلا يهمني التعب لان خادم السلطان معد لذلك ، وجعل يتأسف ويتأوه ويظهر الندم على ما فعله مع هؤلاء الفقراء المساكين المنقطعين في هذه الصحراء ، حتى لم يشك أحد منهم في ندمه

وأخذ يقول لهم : ضعوا سلاحكم أيها الفقراء[1] وأريحوا أنفسكم واجعلونا في حل مما نالكم بقدومنا عليكم ، وانا ان شاء الله أستريح يومين هنا وأرتحل عنكم ولن تراعوا بعد اليوم إن شاء الله ، فرجعوا الى بلدهم ووضعوا سلاحهم واطمأنوا ، ولم يبق في قلب أحد منهم شك أنه نادم على صنيعه . فلما كان الغداة أتاه كبراؤهم وسألوه أن يأخذ له من البلد شيئاً يعوض عنه ما صرف على جنده ، فقال : الامير غني عنكم لا يطمع فيكم ، وانا ان شاء الله أمضي اليه واخبره بحالكم غير أني أطلب منكم أن تجعلوه في حل من فزعكم وروعكم بسبب قدومنا عليكم ثم التفت الى الشيخ وقال : يا أحمد يا مسكين استوص بهؤلاء المساكين خيرا وأما أنا فلا أطمع فيكم ، ثم سألهم أن يتركوه يدخل البلد يصلي الجمعة ، وعلل لهم ذلك بأن قال أراها وأخبر الامير بحالها داخلا وخارجا ، وانقطاعها في الصحراء وقلة نخيلها وعمارتها وحالها ، لانه سمع بها وربما ظن أنها من امهات الضياع ، وليس الخبر كالعيان ، فاجابوه : حباً وكرامة ادخل ، فدخل وصلى بها الجمعة وادخل معه بعض أصحابه ، وأمر الباقين بالاحداق بها فأحدقوا . ولما استتم أصحابه بالدخول وجلس شكى اليه أهل البلد حالهم مع شيخهم وظلمه لهم وأخذه أموالهم ، فقبض عليه وسجنه وجعل يتقمم تجار البلد ويسلب أموالهم ويسجنهم ويسجن

(١) تطلق كلمة « الفقراء » عندنا على ارباب الطرق ، وتطلق على الذين لا شوكة لهم وليسوا اهل عصبية

من النساء كل من لها مال حتى تؤديه، وبالغ في نهب أموالهم حتى نهب أقراط الصبيان من آذانهم وهي لا تزيد وزن الواحد منها على مثقال ، ولم يترك فيها ذهباً ولا فضة إلا أخذه ، وجمع ما فيها من رقيق ، وقيد الشيخ أحمد وأتى به وبنسائه وحريمه وبنيه واخوته ومن له به تبع الى حضرة محمد باشا . وكان ما جمعه منها من فضة شيئاً كثيراً فضرب ذلك محمد باشا سكة زنة كل قرميل نصف درهم وأجراه في الصرف بأربعة طرانش ، واستمرت تلك السكة بطرابلس الى أن ضرب خليل سكة ، وكانت لم تستمر في غير طرابلس وعملها من البلدان ، وكان له من الرأي وكتمان السر ما لم يكن لغيره ، وكان اذا أتاه كتاب لم يأمن عليه كاتباً

قال البهلول : ومن عظيم ظلمه الفاحش انه كان اذا باع أحد الشركاء عقارا ولو جزأ لا يتجزأ أغرم البائع وغير البائع مكس العقار كله ولو بيع قيراط واحد أخذ صاحب المكس مكسه كله ممن باع ومن لم يبع ، وربما كان من لم يبع يتيما أو أرملة فظلمهم بأخذ المكس ، وهذا شيء لم يسمع به في ملة من الملل ، فلذلك كان المكس أولا ثلاثة من المائة فترقى الى أن بلغ مكس العبد عُشْرَ ثمنه وأكثر ، وجعل على مطلق العبد القادم من فزان ريالا وثمناً ، وسمي ذلك غفراً وان كان الآتي به لم يَسْلَم له إلا هو ، أو كان ضيفاً ، ولم يزل يترقى المكس بسبب ذلك الى أن بلغ استلزام البائعين أربعة وعشرين ألفاً بعد أن كان ألفي ريال وخمسمائة

وكان جباراً على الرعية لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة ، زاد في الخراج على القانون القديم شيئاً كثيراً ، وسلط عليهم القواد ولم يقبل منهم شكوى ، فان كثر عليه اللوم قال : ان القواد استلزموا بكذا فهل لكم أن تتحملوا بذلك ولا أخرج لكم قائدا فيتحملون بذلك لضرر القواد وسماع قولهم في الاهالي وعدم سماع شكوى الاهالي فيهم . فبذلك لزم البلد الذي كان وظيفه أربعة آلاف عشرة

آلاف : أربعة في الخراج المعهود وستة استلزام القواد ، حتى أضر الرعية وأجلاهم وشتت شملهم ، ومن فر منهم لم يتعرض له ولم يُرضه بشيء ، ومن بقي منهم يغرمه ما لزم البلد كله ، اذ عنده ما ذكر عليهم بدفتره آية محكمة لايجوز عليها النسخ ، حتى أنه يوجد بدفتر تونس من الطرابلسيين المؤدين للخراج شيء كثير

وكان اذا أتاه شيخ كبير هرم لا يستطيع خدمة ولا مال له ولا ولد يطلب ازالة ما فرضه عليه ألزمه ، ولم يقبل منه في ذلك . وكان يأتيه أهل القرى ويتحملون باستلزام القواد ، فاذا دفعوا ذلك أمهلهم عاما ثم باعهم من قائد آخر وسلطه عليهم ، ولا يقبل منهم فيه قولا ولا حجة ، وكان ما فرضه مَنْ قبله من العشور على أهل الفلاحة ومن أجرى عليهم الخراج مضبوطاً ، على كل بلد قدر معلوم يأخذون ذلك بمكيال مراد لا يزيدون شيئا ولا ينقصون من ذلك . فجعل هو كل سنة يزيد في المكيال ويرسل لكل بلد كيلا يكيلون به الوظيف وكل سنة يزيد المكيال حتى بلغ كيله ثلاث كيلات بالمرادي ، واحتال في زيادة الخراج عليهم من جهة العشر ليضعف أهل الاسلام ويهدم أركانه ، ففرض عليهم المطيرة [1] زيادة على العشر وعم بها كل أهل البلد من عليه ضريبة الخراج ومن لم تكن عليه من أجنبي وغيره . وجعل هذه المطيرة في القدر تعدل السكة [2] القديمة ، وربما أعطى الرجل في المفروض الذي زعم أنه عشر جميع ما بيده ويبقى هو وعياله يسألون الناس ، حتى أضر بالخلق الضرر الشديد

---

(١) المطيرة عندنا هي ان يعطي شيئا من البذر لمن يبذره له ويحصده في وقت الحصاد ويأتي له بما تحصل منه

(٢) السكة عندنا هي السهم في شركة الحرث الذى تكون القسمة بنسبته . فاذا اشترك اثنان فى الحرث وحرثا على جملين فيقال عندهما سكتان لكل واحد منهما سكة ، فاذا كان معهما ثالث واخرج حصته من البذر واجرة الارض واقام بما ينوبه من العمل يقال عليهم : عندهم ثلاث سكاك ولولم يكن لهذا الثالث حيوان ، وعلى هذه النسبة وتطلق على قدر مخصوص من الارض

ولم يول من حاشيته متأصلا في الاسلام منصباً ، وانما يُولي المناصبَ : مثل قيادة الجيش ومنصب الكاهية أحداثَ العهد بالاسلام : ولى قيادة الجيش ابن أخته رجب بك ، وولى الكاهية أولا محمد بن أخته ، ثم مات بالطاعون فأقام بعده ابن بنت أخيه سليمان ، وكان قدم عليه أبناء ابن أخيه وهم على دين النصرانية فختنهم[١] كرها وقيدهم على البلدان فظلموا ظلماً شنيعاً ولم يستطع أحد أن يشكوهم ، وتعدى ظلمهم الى أن أحيوا سنة عملوق بن طسم ، فكان أحدهم اذا زفت عروس الى بعلها بدأ بهـا ظلماً وافتض بكارتها ثم يتركها لزوجها . واذا أخبر بامرأة جميلة في بلده الذي هو به قائد أرسل اليها وأتى بها كرهاً وفعل بها ما أراد ، ولا يستطيع زوجها ولا غيره دفعاً ولا منعاً ، ومن أراد الشكوى منع الدخول الى الأمير عثمان ، وهذا شيء لم نسمع بمثله الا عن عملوق الاكبر ابن طسم الحميري

فقد ذكر المؤرخون أن قبيلتي طسم وجديس – وكانا أخوين – لما كثر عددهما أجمع رأيهم على أن يجعلوا ملكا منهم يرجعون اليه في مهمة أمرهم فملكوا عليهم عملوقاً واتخذ قبيله أعواناً وحاشية ، ولم يزل يأخذ من جديس الاتاوة ويقوي بها قومه ويزيد في الظلم الى أن وقع لهزيلة بنت مازن الجديسية واقعة ، وذلك أنها كانت تحت ابن عم لها ولها منه ابن طلقها قبل فطامه ، فلما تم فطامه أراد أخذه منها فأبت عليه ذلك فحاكمها الى الملك عملوق ، فلما حضرت بين يديه قالت أصلح الله الملك إن هذا الولد حملته تسعاً ووضعته دفعاً ، وأرضعته شفعاً ، ولم أنل منه نفعاً . فلما اشتدت أوصاله وحان انفصاله أراد أخذه مني كرها ليتركني برهاً – أي ذاهبة العقل – . وقال الرجل أيها الملك أخذت مني المهر كاملا ، ولم تنلني طائلا ، إلا ولداً جاهلا ، فافعل ما أنت فاعل : فأمر بالرجل فبيع وأعطى المرأة عشر ثمنه وباع المرأة وأعطى الرجل خمس ثمنها واسترق الولد ووضعه في جملة غلمانه ،

---

(١) كانت بالاصل : ختنهم

فأنشدت هزيلة أبياتاً :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا فأنفذ حكماً في هزيلة ظالماً
لعمري لقد حكمت لا متورّعاً ولا فهما عند الحكومة عالما
ندمت ولم أقدر على متزحزح وأصبح زوجي عاثر الرأي نادماً

فلما بلغت عملوقا الابيات أقسم ألا تدخل امرأة على رجل في جديس إلا أن يبدأ بها قبل زوجها ، فان كانت بكراً افترعها او فضّ بكارتها و بعث بها الى زوجها و إلا أمسكها ثلاثة أيام ، وصبيحة الدخول يعمل الولي الوليمة ويحضرها بين يدي السلطان ويقف على رأسه ليعلم من يحضرها أنه الولي زيادة في النكال لهم ، ولم يزل على هذه الحالة الى أن تزوجت سعدي بنت غفار أخت الأسود بن غفار ابن عمها وكانت يقال لهـا الشمس لفرط حسنها ، فلما سمع عملوق بذلك أرسل اليها قينات زيادة في التعظيم ، وكانت تظن أن فعله ذلك بعامة جديس لا يخاصتهم فأحضروها بين يديه فافترعها وكانت تزعم أنه زوجها فلما فضّ بكارتها أمرها باللحاق بزوجها ، فقالت ألست زوجي فقال بلى أنا الملك عملوق ، فلطمته وشقت ثيابها وخرجت على أخيها وقومها وهم على باب الملك ينتظرون هل وجدها بكراً أولا ، ويتشاورون في شأن الوليمة وما هو اللائق بها ، ففاجأهم أن خرجت عليهم ثيابها مشقوقة ودمها على فخذيها وأنشدت :

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس
يرضي بهذا يا لقومي حر أهدى وقد أعطى وسيق المهر
لأخذة الموتة للعروس أجمل مما حل بالعروس

فلم يأخذ فيهم ذلك ، فلما استقرت بالبيت أنشدت لهم قصيدة وهي هذه :

أيجمل أن يؤتى على فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد النمل
وتمشي سعاد في الدماء غريقة سفاحا وقد زفت عروسا الى بعل

فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء نائلات من الكحل
ودونكم طيبَ العروس فانما ... خلقتم لأثواب العرائس والغسل
فلو أننا كنا رجالا وكنتم ... نساء لكنا لا نقر بهذا الفعل
فقبحاً وشيكاً للذي ليس دافعاً ... ويختال يمشي بيننا مشية الفحل
فموتوا كراماً واصبروا لعدوكم ... بحرب تلظى بالضرام من الجزل
وإلا فخلوا ظهرها وتحملوا ... الى بلد قفر وهزل من الهزل
فلَلبين خير من مقام على أذًى ... والموت خير من مقام على الذل
ولا تجزعوا قومي من الحرب إنها ... تقوم بأقوام كرام على رجل
ويهلك فيها كل نكس مواكل ... ويسلم فيها ذو النجابة والفضل

فأخذتهم الحال وشق أخوها الاسود ثيابه حنقاً وساعده قومه فيما أراد ، فغدروا بطسم بعد أن حشتهم سعاد على ذلك ولم يفلت منهم الا رباح بن زيد الطسمي لحق بحسان بن تبع مستغيثاً فأغاثه وظفر بجديس وقصتهم مشهورة

وزاد ذلك الأمر حتى اشتغل به أكثر قواده لمّا رأوا تماميه على ذلك حتى تعدوه الى الفاحشة اللوطية . فقد ذكر البهلول أن أحد قواده بساحل آل حامد جمع الرعية لخدمة بستان له هنالك فاجتمع أهل البلد كلهم فرأى فيهم غلاماً أمرد جميل الصورة فقبض عليه بمرأى من الناس وفعل به على أعين الاشهاد الفاحشة العظمى وكان أبوه من أعيان البلد فجعل يستغيث ويصيح ، فأمر القائد المذكور غلمانه فقبضوا عليه وصرعوه وما زال يضربه بالسياط الى أن مات في موضعه ذلك ، وحملوه ميتاً ودفنوه ، ولم يستطع أحد رفع شكاية لعلمهم المنع من الوصول وعدم قبولها إن وصلوا

وكان الامير عثمان لم يدخل يداً في الصلح في أكثر الاوقات مع أجناس النصارى ، وكان مفتوحاً على يديه وأبلى في جميع أجناس النصارى بلاء لم يعهدوه من مثله ، وأخذ أساطيل غزوهم المعدة له ، وسنذكر

ذلك عند ما يناسبه من أبيات القصيدة ان شاء الله تعالى

وكان إذا غنم غنيمة وبها بضائع رمى تلك البضائع على التجار بأغلى ثمن بل ولحق التجار والفقراء وغيرهم من أهل الصنائع حتى أن ما قيمته أربعون باعه مَن أخذَه بثمانية عشر ، وكل من أتته غنيمة بهـا بضائع فعل بها ذلك ، وعمم حتى لحق ذلك الحطابين والبقالين والحجامين والنساجين وغيرهم ، ولحق بعض أئمة المساجد ، وكان بعد فعله بأهل البلد ذلك أراد نهب أملاكهم فصار اذا سمع بملك بيع بعث إليه وأخذه ، حتى اذا دفع إليه وضع ـ بعد أن يشهد العدول بالقبض ـ عليه[1] من يأخذ منه الثمن

ولم تكن أملاك أهل تلك المدينة تؤدي خرجاً إلا زكاة ماعمر من السواني[2] فان عليه نصف العشر ، وأكثر أهل البلد لا يؤدي شيئا ، وربما لم يأخذ محمد باشا ممن له نحو القفير عشرا

ولما رأى محمد باشا تكاسل أهل المدينة على تعمير أرضهم أحصى سوانيهم وترك العشر وفرض على كل سانية أربعة ريالات وربما كانت كبيرة أو صغيرة فليم على ذلك فأجاب : فعلت ذلك ليشتغل الناس بخدمة سوانيهم فيحصل النفع لأن أكثرهم يترك سانيته من غير عمارة كسلا فيضر بنفسه ، واذا كان عليها شيء للمخزن لا يتركها دامرة بل يعمرها وينتفع وتكثر العمارة والغلة

وقد أحصى محمد باشا النخيل وفرض على كل نخلة عشرين عثمانيا في العام وفرض عل أجنة العنب شيئا خفيفا . فلما تولى عثمان أعاد الزمام في الجميع فزاد شيئا كثيرا في النخيل والآبار والاجنة ، ولم يترك لاحد شيئا ، وكذلك أجنة العنب حتى ربع الجابية[3] في سانية أو غيرها كتبه . وجعل الاجنة صنفين سمى صنفاً مرصدا وهو القوي الشجر ، وسمي الضعيف غير مرصد ، ووظف على

(١) اى على البائع (٢) البساتين

(٣) المراد بالجابية هنا مقدار من الارض . كالفدان عند المصريين . والسانية البستان

كل جابية ريالين الا ربما وعلى غيره نصف ذلك ، وربما كان المرصد في بعض السنين لا يفي بما عليه ، وربما أعطى صاحبه الوظيف ولايبقى له شيء . واحترق العنب في بعض السنين بحيث استأصله الحر ولم يبق منه كثير ولا قليل ، وطمع الناس ألا يطالبهم بذلك فاخرج لهم شاوشا لاخذ الوظيف قبل الا بان تأييساً لهم من الطمع فرفع اليه بعض الناس الشكاية فلم يقبل شكوى شاك ولا عذر معتذر وزاد على الزيتون النصف على ما كان موظفا عليه ، اذ كان وظيفه قبل ذلك في العام قرميلا فانهاه الى قرميلين ، وألزمهم ذلك أثمرت أولم تثمر ، وربما بقيت الخمس سنين والست سنين والسبع لم تثمر شيئا . وكل سنة يغرمون خراجها بلا وجه ولا شبهة في كل ثلاثة أشهر ولم يضع عنهم شيئا ، وأعاد احصاء النخيل الذي أحصاه مَن قبله وظهرت له الزياة الكثيرة ، بحيث لم يترك حُبسا لمسجد ولا لغيره . فبذلك كثرت الزيادة ومن علم أنه نقص من شجره شيء أقره ولم يحصه عدا ولم يلتفت لمدعي النقص ولو نقص نصف شجره وأدى ماتناوله الزمام القديم رغما عن أنفه ، وكان نخيل تاجوراء لم يؤد خراجا لان أهلها كانوا يرون تَحمّل ما طولبوا به من الخراج على الرؤوس أولى منه على النخيل فكانوا يفعلون كذلك ، ويرون أن في ذلك صلاحهم . كذا قال البهلول

قلت : وهذه نزعة يهودية إذ لا تضرب على الرقاب الا الجزية ولا يرضى بها الا يهودي

وقال البهلول : وكان نظرهم في ذلك أن الرجل منهم اذا مات وترك أولادا صغارا أكلوا ملكهم بلا خراج حتى يبلغوا مبلغ الحلم وليس عليهم حرج في ذلك فاذا بلغوا حسبت رقابهم وأدوا عليها ما كان مفروضا ، واذا أراد الرجل النقلة باع ملكه بأعلى قيمة لسلامته من الخراج ، فهذا نظرهم الذي لم يره عاقل الا استقبحه لشبهه في الصورة بالجزية بل هو أخوها أو هو هي ، فلم يزل عثمان

يحتال عليهم الى أن أحصى نخلهم كله وفرض على كل نخلة في العام قرميلا ونصفا نكالا لهم وأبقي رقابهم ملزمة بما كان مفروضا عليها، ومفروض النخلة في غيرها قرميل سنويا لا غير فضعف بذلك أهلها وتفرقوا في الاوطان شذر مذر

وكانت له عدة سفن معدة للجهاد في غاية من الاتقان والقوة والسلاح، ولم يضعْ منها شيء مدة ولايته ـ وكانت أربعاً وعشرين عاماً ـ سوى سفينة غلبها الريح وهي بأرض العدو فانكسرت وأسروا من كان بها حياً . وكانت سفنه لاهلها اليد الطولى في الغنائم بحيث لم تخرج سفينة إلا أتت بغنيمة أو غنائم وقل أن رجعت بغير غنيمة، وكلما أتته غنيمة حصلها في حواصل وبيوت وأعطى للمجاهدين ما أراد ولم يبال بهم الى أن أوغر بفعله ذلك صدورهم، وسعى بذلك على حتفه بظلفه وكل ذلك من عظيم ظلمه الذي لم يسمع بمثله إلا منه . قال ولو تتبعنا ذكر ظلمه ونوادره لجمعنا من ذلك شيئاً كثيرا

فلما أراد الله سبحانه وتعالى انقضاء دولته خرجت سفن الغزو للجهاد فغنمت أربع سفن وفيها من الأموال والجواهر شيء كثير، فأجرى ذلك على عادته السابقة معهم فلم ترض نفوسهم بذلك، فأجمع رأيهم على خلع بيعته فخلعوها أول يوم من شعبان سنة ثلاث وثمانين وألف

وكان سبب ذلك السفن الأربع المذكورة، فان الجنود الذين أخذوها اتفقوا وهم بالبحر على أنه ان أعطاهم خمسة ريالات لكل واحد منهم والا حاصروه وخلعوا بيعته، فلما دخلوا بها وطلبوا ذلك أبى عليهم وأعطاهم ريالا لكل واحد في حصته، ولهم حصص يختلفون فيها على ما اصطلحوا عليه في البلد في تقسيم الغنائم على خلاف ما هو مقرر عند الفقهاء في قسم الغنائم، وكان قبل خروجهم لهذه الغزوة وهم في الاهبة لها أعطاهم ريالين لكل واحد للاستعانة، فلما أتوا وأراد محاسبتهم على ما فرض لهم مما ذكرنا أمر الكاتب أن يقاصّهم بما دفعه لهم قبل الغزو وهم مختلفون في السهام، فمنهم من له عشرة ومنهم من له اثنا عشر ومنهم من له ثمانية وغير

ذلك ، فصار لصاحب العشرة ثمانية بعد المقاصة في الريالين وجعله السهم ريالا فأخذ البعض وأبى البعض ، فأخبر بذلك فبعث للكاتب من أخذ فذاك ومن أبى فائتني بسهمه وليمدد بسبب الى السماء ، وما عساه أن يفعل ؟ فلامه بعض الحاشية على صنيعه ذلك وعلل ذلك بأنك أوغرت صدور الجند عليك فأبى ، وراجعه رجب بك فأبى ، فكان من جوابه لهم : وما عساهم يفعلون

فلما كانت العشي من ذلك اليوم وهو يوم السبت التاسع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وألف ملأ أحدهم بندقيته وأطلقها بفم القهوة بسوق الترك وهي ملأى بالخلق ، فراجعه عثمان وكيل خرجه وأخبره بما شاهد ، وأنه تفرس فيهم أنهم خالعون بيعته وأنهم مثيرون فتنة بهذه الليلة وان أثاروها عسر ردها ، فلما تحقق ذلك أمره بالمسير الى الفندق المعروف بسكنى عزاب الجند وأن يأتيه بمائة منه يبيتون معه ، فأتاهم وكلمهم في ذلك فلم يجبه الا نحو الثمانية ، فرجع اليه وأخبره فأمره بالرجوع إليهم ووعدهم بالعطاء فلم يجبه أحد وكان ذلك قبل الزوال ، فغلق باب الحصار واختفى عثمان الوكيل في الفندق ، وبذلك كانت سلامته وسلامة عياله واخوته من المصائب النازلة بالامير عثمان

ولما مضى طرف من ليلة الثالث من الشهر المذكور خرج مصطفى بهلوان چلبي في سبعة نفر ولبسوا آلة حربهم وطافوا على محل سكنى عزاب الجند من الفنادق وتبعهم من أجابهم الى أن انتهى بهم الأمر الى الفندق المعروف بفندق الباشا ، فاجتمع به نحو الأربعين واتفقوا على خلع بيعته وخرجوا وأطلقوا بنادقهم تجاه الحصار ليظهروا له ما عزموا عليه ، وخرجوا من الفندق وأتوا دار علي قبطان فأخرجوه ، وذهب جميعهم الى دار عثمان رئيس المرسى فأخرجوه ، وجعلوا يطوفون على بيوت الاكابر والرؤساء من الجند المتأهلين ، وأخرجوا القاضي وقرعوا باب سيدي أحمد بن مقيل لتولية الفتيا يومئذ فاختفى عنهم بحيلة ، فلما استتموا أمرهم أتوا الى السوق وأمروا بإيقاد الشمع والقناديل وفتحوا الحانوت

الذي بازاء فندق الباشا وأجلسوا القبطان ورئيس المرسى بها وجعل الجند وأهل البلاد كلهم يأتون لذلك الامر ، فلما أحسّ عثمان بذلك وتحقق خلعهم له خرج الى الرحبة خارج باب القلعة ومعه كاهيته وجماعة ، وأمر الكاهية بالمضي الى رجب بك اذ هو بيته الذي هو برأس شارع البلدية الكبير بازاء المدرسة العثمانية فذهبوا ، فلما حاذوا حوانيت الطباخين وسمعوا كلام القوم وكثرتهم رجعوا للامير ودخلوا الحصار وأغلقوا الأبواب

ولما أصبح جعل يرمي على البلد الكور والرصاص من الابراج والحرائق ، فهدّ غرفة عثمان رئيس المرسى ، واستعد القائمون للرمي على القلعة فرتبوا بالبرج المعروف ببرج التراب مدافع ورئيساً ، وجمعوا من البارود ما يكفيهم ، وكذلك كل برج ، وجعلوا يرمونه ، فلما رأى ذلك أمسك عن الرمي ، ولما أمسك أرسلوا عثمان رئيس المرسى المذكور الى رجب يطلبون منه أن ينزل على الامان ووعده القبطان أن يلي الامر ، فلم يتركه علي الجربي ينزل اليهم وخاطبهم : لا ترفعوا أصواتكم فقد أرعبتم الباي بعلوصوتكم ، فرجعوا من عنده وأوعدوه شرًّا ، فلما أصبح تعلقت العساكر بجدران بيته وصعدوا فوق أسطحة الدور التي بقرب دار رجب وجعلوا يرمون دار رجب بالرصاص ، فمات من حاشيته نحو الخمسة ومات من الجند رجل ، ثم مضوا فرتبوا مدافع تجاه دار الباي من ناحية الكنيسة وضربوها فانفلق بعضها وقتل رجل بالقرب منها وانهد ركن كشك رجب ، ثم رتبوا مدافع أخرى من ناحية طرغود فلم يمكنهم ذلك ، فأتاهم بعض الاسارى من الافرنج وحفر لغا حتى قرب من الدار فأحس به علي الجربي فحفر حتى لاقاه فهرب الافرنجي وبطل صنيعه ، ولما ضاق به الحال راسلهم بطلب الامان فأتاه بعض الفقهاء وغيرهم فأنزلهم على الامان ، وهم رجب وحرب الزياني وابراهيم چلبي وأحمد السعد وعلي الجربي فقتلوهم عن آخرهم ، وجعلوا كل اثنين بسلسلة وتركوا جثثهم تأكلها الكلاب ، وأخرجوا محلة للقساء محلته فهزمتها محلة الجند . فلما عاين عثمان ذلك شرب سما فمات تاسع شعبان سنة ثلاث وثمانين وألف . قال البهلول : ولو استقصينا ظالمه لجمعنا من ذلك شيئاً كثيراً . انتهى باختصار

ولاية عثمان ريس الشوهلي

ولما مات عثمان خرج من القلعة حسين ريس وأخبر الجماعة بموته، فلما أصبح قاموا ذاهبين الى القلعة وقدموا عثمان ريس أميراً ، وجعلوا على قبطان كاهية وأجلسوا عثمان ريس على تخت الملك وبايعه الحاضرون . وكان ابراهيم بن المصري المسمى مصرلي اوغلي في المحلة يقاتل ، فلما دخل بمن معه من الجند لم يرض ببيعة عثمان وقال إنما قاتلنا لنزع الملك من أيدي الروم وتمكين الترك منه ، فتابعه على ذلك كور محمد وأجمعوا على بالي شاوُش والياً وبهلوان مصطفى كاهية ، وكان ذلك لعشر مضت من شعبان سنة ثلاث وثمانين وألف ، فمضى كور محمد ومعه طائفة من الترك وأخرج عثمان وقتله وأجلس بالي موضعه

وعثمان هذا شوهلي نسبة لشوهلة جزيرة منقطعة في البحر تجاه خانية ، ثم قتلوا عثمان هذا ونفوا كاهيته على قبطان الملقب قريقوا في سفينة كانوا أعدوها لاستبدال من بدرنة[1] من الجند عند الحاج محمد باي ، ثم بدا لهم فبعثوا له رسولا فقتله بالجزيرة التي بالمرسى

ولاية بالي شاوش

ولما استقر بالي على تخت الملك وقعت بينه وبين سيدي عبد الحفيظ بن سيدي محمد الصيد وحشة كان سببها كثرة توجه الشيخ اليه في الشفاعة فيمن يريد البطش بهم فاتهمه ، فخرج الشيخ من محله إلى جربة . ولما تم له الأمر جهز أسطولا نحو خمس سفن إلى الجهاد وكان قائده مصطفى الكبير الاستنكولي نسبة الى

---

(١) درنه معربة عن « درنيس » مدينة بساحل برقة وتقع في الجنوب الشرقي من بنغازي على مسافة ٣٣٣ كيلو مترا يفصلها الجبل الاخضر وحولها سور ومنظرها جميل جدا وضواحيها غاية في الخصوبة . وبها عين ماء غزير عذب تسقى بساتينها ، وفيها من الموز والبرتقال والعنب اجوده وقدم الاميرال الفرنسوي غنتوم بان ينزل فيها جنوده وقت ان اغار الفرنسويون على مصر فلم ينجح . وقد احتلتها الممالك المتحدة بامريكا في القرن الماضي ثم اضطرت لاخلائها لرداءة مناخها . اه من التبيان

استنكوي-وابراهيم مصرلي أوغلي وعمر قازداغلي ، وأحمد ريّس درغتلي فأخذت سفنهم سفينة حرب لبعض أجناس النصارى على جزيرة كاربة - وهي جزيرة بين رودس و(١) ورجعوا قافلين ، و كان ذلك سنة ست وثمانين وألف فلما دخلوا مرسى قصر أحمد من مصراته (٢) أخبروا أن بالي شاوش توفي مريضاً وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة ست وثمانين وألف.

ولاية مصطفى بهلوان

وتولى موضعه مصطفى بهلوان وجعل كاهيته سليمان توكتيلي - نسبة لتوكاة بلد كبير من عمل قاردنقز-تحت ولاية صاحب القسطنطينية به من أنواع الخيرات والشجر والحيوانات ما لا يحصى ، جمع من أنواع بني آدم أصنافاً مختلفة الأديان وشيئاً لا يحصى كثر من كل ، ومنه يجلب الساج والخيرات الى القسطنطينية . ومنها يتفرق الى سائر البلاد - فلما سمعوا بذلك أضمر الرؤساء عدم بيعته ، وكان قد مضى لبيعته قبل دخول السفن عليه خمسة عشر يوماً وقيل أربعة عشر يوماً ، فلما دخلوا أظهروا خلع بيعته في ليلتهم.

ولاية ابراهيم مصرلي أوغلي

وبايعوا ابراهيم مصرلي أوغلي على تولى أمر المسلمين والخزانة وتفريق رزق

---

(١) بياض بالاصل يسع كلمتين

(٢) مصراته مدينة من مدن طرابلس الكبيرة ، وهي ذات اهمية في التجارة منذ عهد قديم ، واهلها مشهورون بالعمل والنشاط ، وقد اصبح لها عند الطرابلسيين من الاهمية ما يغنى عن التعريف بها ، وتقع شرق مدينة طرابلس على نحو ١٩٠ كيلو مترا . ولها ثلاثة مراس : « ابو شعيفة - او قصر احمد » . و « الجزيرة » بالتصغير ، و « الهوينية »

الجند ، وجعلوا كاهيته عبد الفتاح الرميلي . وكان بينه وبين بالي شاوش قرابة . وكان بالي في حياته نقض ما كان من صلح بين الانكليز والأمير عثمان . ولما تولى ابراهيم المذكور الامر استمر على ذلك الفساد ، وجهز من أسطوله ست سفن وتوجهت نحو الاسكندرية فأصابوا ثلاث سفن للانكليز موسوقة ببضاعة ثمينة . فدخلوا الاسكندرية وباعوا غنائمهم وأظهروا ما للسلطان على حدة ، وكان ابراهيم مصرلي أوغلي ألزم العسكر أموراً شرعية ضيق بها عليهم ، منها عدم حلق ذقونهم تشبهاً بالمجوس ، ومنها عدم لبسهم الحرير والذهب ، ومنعهم من المجاهرة بالزنا والخمر ، فاضطغنوا ذلك عليه فظن بهم شراً ، فأرسل معهم طليعة يأتيه بخبرهم وهو أزن حسن شاوش الرميلي .

ولما قفلوا من ذلك وأجمعوا على خلع بيعة ابراهيم مصرلي أوغلي وبايعوا مصطفى الكبير الاستنكويلي ــ نسبة لاستنكوي ــ جزيرة بها عدة قرى تجاه كارباغ لار ومعناه بالتركية البساتين السود ــ سميت بذلك لكثرة ما بها من العنب والاشجار ، وهي على ساحل الاناضول ، ومعناه بر الاسلام ، كما أن الروميلي أرض الروم ، وكتب الطليعة كتاباً لابراهيم المذكور يخبره بما فعل الجند من خلع بيعته وأرسل به رسولا في البر ، فقدم عليه في مدة قليلة فقرأه وعزم على الخروج من البلد ، وكان له ابن ولاه أمر المرسى فاستشار كاهيته في أمر الخروج فأشار به ، فدبر لذلك حيلة . فأظهر ابراهيم أن ابنه فسق وارتكب ما لا يليق من الزنا والظلم مما نهى عنه غيره وأظهر للجند أنه يريد نفيه ، فاجتمعوا بمحل الندوة ــ وهو بيت معد لسكنى الجند تجاه الداخل من باب هوارة يمني قفاه (١) ومفتحه تجاه القلعة لناحية الشرق بسوق الخضرة ، وقد بني الآن جامعاً على يدي أحمد

(١) يريد خلف الباب ، ويقتضى وصفه انه يقع على شمال الداخل

باشا قرملي ويسميه الجند : الاوض لار ، ومعناه بالتركية جمع الديار ، فراسلوه يشفعون عنده في عدم نفيه فأبى ، فأجابه الجند لذلك وأرسلوا من أخذه وبلغه لسفينة بالمرسى لعمر المرتشو المصراتي كانت بالمرسي متوجهة الى الاسكندرية . وأخذ في بعث أثاثه من داخل القلعة ، ويخرج الصناديق مملوءة مالا والقلال شبه العوين (١) وهي مملوءة نقداً حتى أفرغ الخزانة وأوصل ذلك للسفينة والناس في غفلة من هـذا ، وكان يومئذ مشتغلاً ببناء البرج الشرقي الذي بساحل البحر المعروف ببرج الشعاب اليوم وببناء المرسى ، فلما قضى وطره من الخزانة أظهر أنه يريد النظر في بناء البرج ، فأعد خيله وأسرجها وخرج براً وأمر الكاهية ان يركب شينياً ويأتيه في البحر ففعل ، فلما اجتمعا بالبرج لامه الحاشية على ما فعل بابنه فأبى عليهم ، ثم ركب الشيني ومعه خاصته ، فلمـا دخل السفينة أمرها بالاقلاع فأقلعت وأخبر نوتية الشيني بما فعل الجند من خلعهم بيعته بالاسكندرية ومبايعة مصطفى الاستنكويلي وكان ذلك ضحوة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقين من المحرم سنة سبع وثمانين وألف ، فرجع الشيني وأخبر بذلك فغاظ ذلك أهل البلد والجند وتكدّر عيشهم

ولاية ابراهيم شلبي انبلي

ثم أجمع الجند على بيعة ابراهيم شلبي أنبلّي ـ نسبة لأنبل مدينة بأرض المورة كثيرة الخير واسعة الخصب ـ وجعل كاهيته أحمد باي أندرلى ـ نسبة لباي أندر قرية من عمل أزمير ـ فما مضت على بيعتهم الا خمسة أيام حتى قدمت السفن ، وكانت تلك السفن جمعت جلّ العسكر فراسلهم الجند الذين بها بأن ابراهيم مصرلي

---

(١) زاد المسافر ، كانه مأخوذ من المعونة ، لاستعانة المسافر به ، ومعناه انه يخرج القلال موريا ان بها زاد السفر وهي مملوءة ذهباً وفضة

أو غلى هرب و فعل ما فعل فكذبهم أهل السفن وأرسلوا رسلا من جهتهم ليعاينوا الامر ، فلما عاينوا صدق الخبر نزل العسكر على عين الفضة[1]، فقال مصطفى البلد بها وال غيري بايعه أهلها وأنا لا أريد شغل الناس ، فأجبره الجند الذين معه على ذلك ، فاشترط عليهم شروطاً إن التزموا بها أسعفهم و إلا فلا ، منها تنقيص رزق الجند الثلث وكان رزق الجندي في كل يوم نصف ريال فنقص له ثلث ذلك ونصف سدسه وهو قرميلان ونصف القرميل ، والتزموا بذلك ، فصار رزق أعلى الجند أربعة قراميل في اليوم لا يزاد عليها وان علا ، وكل قرميل عشرون ثمانياً فلوساً صغارا من نحاس إلا رئيس كبيرة السفن المسمى قبطانا فان له ريالا وربعاً في اليوم رزقا ولمن تحته المسمى بترونة ريالا كاملا ولمن تحتــه ريالا الا ربعاً ، وهذا بشرط أن تكون سفنهم أسطولا لاشوانيَ ، فوافقوه على ذلك ودخلوا البلد وأخرجوا الأنبلي والاندرلي من التخت وأبقوهم في مناصبهم لكبر سنهم واستقر عليه مصطفى لسبع بقين من المحرم سنة سبع وثمانين وألف

ولاية مصطفى الكبير الاستنكولي

ولما استولى على البلد والخزانة وفوائه بما شرط وكان من شرطه عليهم أن يتصرف في مفسد الجند من غير تروٍّ ولا مشورة في شأنه فتصرف في الكثير منهم بالقتل ، ولم تكن له عشيرة يأوى إليها ، وعظمت هيبته على الجنـد حتى إنه يبعث للعصابة من الجند رجلا من طرفه وهم بأسلحتهم فيأخذهم وينفيهم حتى نفى منهم في يوم واحد ثلاثمائة . وكان مصطفى هذا رءوفا بالرعيـة محباً لاهل البلد لا يحب من يسعى إليه بشر في الخلق . أسقط عن الرعيـة بعض الوظيف

(١) انظر هامش صفحة ٧

المخزني المرتب من عشور وغيرها

ولما عاد ابراهيم المصرلى أوغلي الى البلد من القسطنطينية صحبة محمد بن مراد الحفصي والياً على البلد من قبل السلطان محمد وصحبته ثلاثة مدافع نحاس ، خرج الرعية وأهل البلد لرسول السلطان وكادوا يمزقونه محبة فيه ، وأخذوا المدافع وتركوه رجع مع الحفصيّ لتونس . وكانت ولاية مصطفي عاما كاملا وثمانية أيام وكانت وفاته غرة صفر سنة ثمان وثمانين وألف مريضاً بالطاعون

ولاية عثمان وكيل الخرج

ولما مات بايع الجند رجلا كبير السن يقال له عثمان علجاً لبعض الجند الجزائري كان بيده تفريق عيش الجند المفروض لهم ، وبينه وبين الاسطى مصطفي العلج قرابة ، واستقرّ أمره بالبلد عاماً ثم مرض فمات في ربيع الاول سنة تسع وثمانين وألف

ولاية آق محمد الحداد الاناضولى

وبايع الجند آق محمد الحداد الاناضولي في الشهر المذكور . وآق لقب بالتركية معناه الابيض ، واستقر على تخت الملك سنة وستة أشهر ، وكان سيء الخلق رديئا ، راكبا هواه جبارا ، وفي أيامه كان بالبلد باشا من قبل السلطان يقال له خليل أرنؤود نسبة للقبيل المشهور بأرض الروم ، وهم عرب في الاصل من غسان تروّموا بالمجاورة

وسبب نقلتهم من أرضهم على ما ذكر غير واحد أن ملكهم جبلة بن الايهم وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خمس مائة فارس من قومه بالخيل المسومة والعدد الثمينة والسلاح العظيم وأسلم بمن معه، وسر بهم عمر رضي الله عنه سروراً

كثيراً . واتفق مع ذلك أن خرج أمير المؤمنين للحج فخرج معه جبلة بمن معه وقدموا على مكة وتمم المناسك فطاف فزاحمه رجل فزاري فيه ، فوطئ الفزاري برده فلطمه جبلة بكف ، فرفع الفزاري به الشكاية الى أمير المؤمنين ، فأحضره وأخبره بما قال الفزاري فأقرّ به وطلب أن يرضى بما أحب ، فأبى عليه الفزاري إلا القصاص ، فقال : أتستوي يا عمر ؟ فقال الاسلام سوى بينكما فطلب الامهال فأمهله عمر برضاء خصمه ففر بمن معه من ليلته ولحق بقيصر وتنصر وأقطعه وقومه أرضهم المعروفة بهم الآن بالروميلي ، وأقام قيصرُ جبلة بالقسطنطينية ، وأجرى عليه جرايات واسعة وأتحفه بتحف لم يُر مثلها ، ولم يزل بها الى أن قدم رسول عمر يدعو قيصر الى الاسلام ، فأدخله قيصر عليه فرأى ملكا عظيما ، وسأله جبلة عن عمر وحسان بن ثابت ومن له به معرفة من الصحابة ، فلامه الرسول على مافعل فأظهر له الندم عليه وأنشده لنفسه :

تنصرت الاشرافُ من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
يعنفني فيها لجاج ونخوة ... وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت الى القول الذي قاله عمر
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي فاقد السمع والبصر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر
أدين بما دانوا به من شريعة ... وقد يصبر العود الكبير على الدبر

فقال له الرسول هل ترجع ، فقال بشرط أن يزوجني عمر ابنته وأن يكتب لى العهد من بعده ، فرجع الرسول وأخبر عمر بذلك فالتزم عمر بالشرط فلما عاد مات يوم دخوله مدينة قيصر وبقي قومه بارضهم . ومنهم اليوم مؤمن وكافر

وقد طالت أيام خليل في البلد وليس له تصرف بسبب حجر ولاة العسكر على واليها من قبل السلطان ، فتاقت نفسه الى القيام ليستقل بالتصرف ، وكانت بينه

وبين ازن احمد كاهية آق محمد الملقب الدباغ وعلى قبطان منيكشالي ـ نسبة لمنيكشة بالتصغير قرية صغيرة على شاطىء البحر من أرض المورة قد أحاط البحر بها من ثلاث جهات ويدخل لها على قناطر ، وأهلها يشربون من ماء السماء ولا الآبار بها وانضم اليهما محمود خازن دار كان علجاً بلنسيان أسلم وحسن اسلامه ، دلت على ذلك آثاره ، بنى من المساجد نحو الخمسة بداخل المدينة وخارجها منها المسجد الذي بقصر أحمد بالشرق منها وهو مسجد حسن متقن الصنعة ، ومنها المسجد الذي غربي الزندانة الكبرى بقربة منهـا بحومة أولاد نوير ، وسليمان داي المعروف بصفر داي ومصلى العيد الذي بازائه وغيرها ، ودبروا حيلة جمعوا بهـا الناس عليهم ، فجمع كل منهما من يأوى اليه من أولاد البلاد ، فاتفق معهم جماعة منهم ومعهم ولد الفقيه الصالح سيدي احمد بن عيسى وتعاقدوا على ليلة يكون بها قيامهم ووافقهم الجند على ذلك ، فاتفق رأيهم على عقد مجلس بمحل ندوتهم الاوضلار وأن يبعثوا لآق محمد ليحضر عندهم ويعقبه خليل على القلعة ، فلما خرج ليحضر صاح به أحد الناس إن خليلا سيعقبك على تختك ، فرجع بمن معه وضرب بعض الجند خليـلا بحجر كاد أن يرميه من على فرسه ، فرجع خليل واتصل آق محمد بالقلعة واجتمع اليه أكثر الجند ، وفشى أمر قيامهم بالبلد ، ووشى بمن فيها من أولاد البلد لآق محمد فبعث في طلبهم ابنه في جماعة ؛ فأول ما بدأ به أن هجم على بيت الفقيه سيدي احمد بن عيسى يطلب ابنه وكان ذلك بعد أذان الفجر ؛ فوجدوا الفقيه أخذ الابريق يتوضأ ، فنزلوا من سطح البيت وبحثوا على الولد فلم يجدوه ، فأخذوا الفقيه حتى أحضروه بين يدى آق محمد فوبخه وأراد البطش به ثم حماه الله فأمر بربطه فربط .

وكان محمد سيء الخلق قبيح المنطق ، وظفر بنحو الثمانية من أبنـاء البلد ممن وشي بهم اليه فقطعهم من خلاف ؛ الا اثنين احمد الحامدي ومحمد المرابط

الدمنهوري المسلاتي فانه قطع أيديهم وأرجلهم

وكان مصطفى بهلوان چلبي لما نفي لجربة خرج المحاميد وخلعوا بيعة آق محمد وظهر خلافهم ، وكان قائد جيشه حسن عبازة وفي نفسه منه شيء ، وكان بعث آق محمد بقتل مراد المالطي وكان اذ ذاك قائداً بغريان ، فلما جاءهم الرسول بذلك أخذه آفة الجند الذين بالعسكر وبطه يرجو قتله بالليل ، فاحتال حسن لما سمع ببعثه اليه في استخلاصه ليستعين به عليه ، فأشار عليه بعدم قتله فقال أخشى أن يكون فات فقال ابعث رسولا وأكد عليه في المسير فان أدركه استعنّا به والا عوّضنا الله فيه خيراً ، فبعثوا الشاويش أبا العيد المسلاتي بعدم قتله ، وكانت الاعراب تشوفت الى الخلاف ، فاحتال حتى بلغ اليهم في مدة قليلة وكان الاكثر من أهل غريان أظهر الخلاف ، وسبب ذلك اتهام مراد حتى بعث على قتله فلما بلغ الرسول القصر وجدهم أحضروا له آلة الخنق فناولهم كتاب العفو وأن يحضروا صحبته المدينة ، وانه جعل كاهية لقائد الجيش حسن عبازة فأخبروا مراداً بذلك فخشى ان خرجوا بيانا وتوجهوا الى المدينة اتبعهم من خالف من أهل غريان وظفر بهم فقتلهم فدبر لهم حيلة في خروجهم بأن يدخلوا عليه آلة الخنق قبالة من وافقهم من أهل غريان فلما فعلوا ذلك رقى بعض أهل غريان ممن معهم في القصر وصاح بأهل غريان المظهرين الخلاف بأن مراداً قد قتل . فلما سمع بذلك مراد بعث لآفة القصر يقسم على من عنده من أهل غريان أن لا يمكثوا معه بالقصر فلما خرجوا أعدوا خيلهم وساروا حتى صبحوا المدينة ومكروا بآق محمد ومن معه

ولاية حسن عبازه

وبايعوا حسناً موضعه وكان ذلك لثلاث بقين من شعبان سنة تسعين وألف وجعل مراد باي قائد الجيش وأقام حسن عبازة يدير أمر الناس والخزانة وتفريق الرزق ثلاث سنين وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً ، وكانت بيعته سنة تسعين وألف وكان في تلك المدة الغالب على دولته مراد باي ، وعظمت شوكته وتوجه

في سنة ثلاث وتسعين والف الى فزان

وموجب ذلك أن صاحبه النجيب بن محمد بن جهيم امتنع من أداء الخراج زاعماً أنه أداه ونا كره فيه متولي الخزانة وزوّر عليه بقاءه فراجع في ذلك فلم يجب اليه فتوجه اليه مراد وأظهر أنه يريد الجبل الاخضر حتى نزل بالجديد من أرض سرت ـ قَصْرٌ للحسون مستقرون به وحوله بساتين يضعون به أثاثهم وما لا يمكنهم الظعن به ـ ولم يظهر ذلك لأحد من خواصه حتى بلغ المحل المذكور فأخبرهم ، وجردت خيله فصبحت سوكنة وودان بعد ثلاثة أيام وودان هذه على خمس مراحل من مدينة سرت لجهة الجنوب ، وكان بها قصران بينهما رمية سهم ، فالذي يلي الساحل خلاء ، والذي يلي البرية عامر ، ولها آبار كثيرة يزرعون بها الذرة وبقربها غابات نخل ، وحولها من شجر التوت وشجر التين والنخل كثير ، وتمر غابتها كثير لين حلو ، وهي وإن كانت أوجلة أكثر منها نخلا فتمرها أطيب طعماً ، كذا ذكره صاحب نزهة المشتاق . وأما الآن فالقصر الاعلى منها عامر كثير العمارة يسكنه قوم من الاشراف وطائفة من البربر كالخدم لهم ، والجنات من نخيل وعنب وتين ، وليس بها من التوت شيء ، وماؤها خبيث الطعم مسهل وبينها وبين قرية سوكنة نصف يوم أو أزيد من ذلك ، وهي قرية قريبة من جبل طنطه ماؤها عذب فرات طيبة الهواء ، بها من النخل والتين والعنب شيء كثير ، يسكنها أخلاط من البربر والعرب ، يمر اليها من ودان ما بين الجنوب والغرب ، وبينهما قرية أخرى يقال لها هون متوسطة نخلها أجود من نخل البلدين وأقوى ، وهي في الكبر دون سوكنة وفوق ودان ، وماؤها خبيث مثل ماء ودان سواء ـ وخرج من أرض ودان عاجلا ولم يعلم أحد خبره حتى أتى سبهة وأحاط بها فلم يفلت منها الا فارس واحد فر منها لجهة مرزك . فلما أحسّ بذلك ارتحل من وقته ولم يبت بها ليدخل مرزكا على حين غفلة من أهلها فسبقه

الفارس اليها فأخبر أهل مرزك بدخوله سبهة فخرج النجيب بما تيسر له من الجند فالتقى الفريقان بدليم ـ قرية صغيرة بينها وبين مرزك نحو ست ساعات أو خمس ـ واقتتلوا قتالا شديداً فكانت الهزيمة لمراد عليهم وقتل النجيب واستأمن إخوته ، وقاتل ابن أخيه على عند أبيه لما أثخنته الجراح وكسر حتى ماتا ، وجرح محمد الناصر وأثخنته الجراح . وكان مراد أوصاهم عند اللقاء ألا يضروه ، وتوعد من يضره بالقتل ، فلما أثخن مسكوه ورفقوا به ، وقدموا مرزكاً واستولى على خزانتها فألفى فيها من المال كثيراً ، وطبّب الناصر وأظهر الاسف عليه ، وبعد سبع من دخوله ولاه البلد وأقام بها واحداً وعشرين يوماً ولم يغير على التجار والرعايا بشيء لامتلاء يده بالخزانة ، ثم ارتحل عنها ، وأسقط عن الناصر خراج ثلاث سنين الى أن يستقر حال البلد

ولما وفد على طرابلس من سفرته تلك وعظم أمره وكان في نفسه من حسن شيء تاقت نفسه لخلع بيعته وكان يسكن بالمنشية خارج المدينة ، فراسل العسكر الذين بداخلها بخلع بيعة حسن فأجابوه لذلك ، وراساوا حسنا بذلك وهو بالقلعة فألقى السلاح ، وكان منتصف جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وألف ونفوه الى جربة

ولاية يلك محمود

وبايعوا رجلا منهم يقال له يُلك محمود يومين ، ويلك بالمثناة التحتية المضمومة بعدها لام مضمومة وكاف بالتركية مجرى الماء

ولاية علي الجزائري

وبايعوا علياً الجزائري ـ نسبة لمدينة الجزائر بأرض المغرب لتربيته بجندها وهو روميلي الأصل ـ لثلاث عشرة بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فمكث لتدبير الأمر سنة وثمانية عشر يوماً ، والغالب على الأمر مراد باي وأحكامه نافذة في البر والبحر ، وله أعوان من الجند ورؤساء وغيرهم ، فمن الرؤساء حسين قبطان الملقب كلايجي ـ نسبة لصَنْعَتِهِ وهي تلبيس النحاس القصدير ـ وكلاي بكاف مفتوحة بعدها لام بعدها ألف لينة وياء تحتية آخر الحروف بالتركية القصدير ، ومراد الفوشلي ـ نسبة لفوشة قرية بالأناضول ، بلد فلاحة ، وبها أجنة كثيرة الخصب بينها وبين أزمير نحو العشرين ميلا ، وبها بئر ماؤها يشبه الثلج في كل الفصول بخلاف غيره من آبارها ، ويسميه أهل البلد بماء الثلج فيقولون : كرتل سُي ، وكرتل بكاف مفتوحة بعدها راء ساكنة ومثناة فوقية مفتوحة بعدها لام ، بالتركية الثلج ، وسُي بسين مضمومة وهمزة مكسورة ، بالتركية الماء ، إلا أن لغتهم تقدم المضاف اليه على المضاف ، وماؤها عذب مفرط العذوبة ـ فلما تم عامه أراد مراد وأعوانه خلع بيعته واجتمعوا ليلا على خلعه ولم يكن له علم ، وأعلموا أهل الديوان بذلك ، فلما أصبح وجلس للحكومة جاء مراد وأصحابه والديوان ومعهم عبد الله الازميرلي ـ نسبة لازمير مدينة عظيمة بالاناضول كثيرة الخصب والتجارة براً وبحراً ، ويجتمع فيها خير البرين الاناضولي والروميلّي ، وتجلب اليها الخيرات من كل الاراضي والبضاعة الثمينة والجواهر ، ومنها تجلب الى القسطنطينية ومصر ، وافريقية ، وطرابلس وغير ذلك من بلاد الروم ـ فأخذوه وهو على كرسي الحكومة ونفوه الى بلاد الترك وكان ذلك يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة خمس وتسعين وألف

ولاية الحاج عبد الله الازميرلي

وأجلسوا الحاج عبد الله مكانه وبايعوه في ذلك اليوم وتولى الخزانة وتفريق رزق الجند ، وتصرف في الولاية والعزل بمشورة مراد عامين وتسعة أشهر الا إحدي عشر يوماً ، وفي أيامه سنة ست وتسعين وألف أواخر جمادي الآخرة أتي الافرنج (١) بالبونية لأخذ البلد ورموها بالمدافع وكان عبد الله هذا ضعيف النكاية أصفر الفؤاد والغالب على تدبير أمر المدينة وعبد الله ومراد بنو فشلوم يزليتن : عمر ومحمود ، فحضر عندهم أعيان البلد : عبد الله الرجيبي وبنو المكّني وغيرهم من الاعيان ، واتفق أمرهم على أن يعطوا مالا للافرنج ويكفوا عن الرمي فردوا الامر على عبد الله فوافقهم ، وكانوا أتوا البلد على حين غفلة من أهلها ، ثم رَدوا الامر على مراد فأبى عليهم فراجعوه فردعليهم رأياً هو أنكم تتركون البلد وأنا أبني لكم مدينة بالهاني (٢) عظيمة القدر أحسن منها لا يلحقها أذى الافرنج ، وأستعمل لغزوهم أسطولا ويكون بناؤها من مالهم ، وفلتها (٣) ، فأبوا عليه وألحوا فوافقهم على ذلك وقدروا ما أعطوه على دور البلد

ولقد أخطأوا ، ومنشأ خطأهم أستبدالهم الحياة الدنيا بالآخرة فأهانوا البلد بتلك الفعلة ، فمن يومئذ تقوّى أمر الافرنج في البلد وعلا شأنهم ، واشترطوا في صلحهم ذلك أموراً لا يلتزمها مؤمن يوقن بلقاء الله ووعده ، منها دخول طاغيتهم كائناً ما كان بنعله على ملكها يطأ بها بساط ملك خليفة الله ورسوله في الارض ومشيُ كبيرهم شاهر سلاحه بين يدي الملك ، وأن لا يحاكموا مسلماً في خصومة

(١) حكومة اسبانيا

(٢) موضع يبعد عن مدينة طرابلس الى الجنوب الغربي بنحو ساعة

(٣) هذه الكلمة غير مفهومة وبعدها بياض يتسع لكلمة

الى الشريعة المطهرة وإنما تكون الحكومة بدار كبيرهم . أيقظ الله لهم ملك الاسلام وأعانه حتى يردهم الى الصغار . وكل هذا ومراد خارج المدينة

وكان مراد يستقبح فعل الاتراك وتجبرهم وأذيتهم ويكره محاربي الاعراب فلذلك كان لا يستقر بالمدينة الا قليلا ، أذهب شوكة بني محمود بن طوق بن بقية [1] ، واستعان عليهم بمنصور بن خليفة الترهوني وفرقهم في البلاد شغر بغر حتى راودوه على الاتاوة فلم يرض واستعان على طغاة الاتراك بمراد الفوشلي صهره وحسين قبطان كلايجي حتى ردهم لرجاء أمهم ، ثم أراد المكر بهما فاحتال على مراد الفوشلي وكان بترهونه ، واستعان على ذلك بحسين كلايجي وعبد الله داي وبني فشلوم وراسلهم ببعثه اليه فوجهوه اليه مع رسل منه ، فلما خرجوا به وأبعدوا قتلوه قبل وصوله اليه وكان اذ ذاك نازلا بعين تسمى عين الوزغة بأرض ترهونة ينزلها جاني عشورهم ، ماؤها عذب على مرحلة ونصف من المدينة ، ولما بلغه الرسل قتلهم مراد وراسل بني فشلوم وعبد الله في بعث حسين كلايجي ، فاحتالوا عليه حتى حضر عندهم فمكنوه من رسله بكرة وخرجوا به ، فلما مر بالمقبرة التي هي خارج باب المدينة تجاهة ، المعروفة بالشيخ حموده وجد بعض الجند بها ، على عادة أهل البلد في خروجهم ضحوة لذلك المحل يستروحون ويشترون ما يحتاجون اليه من حطب وتبن وغنم ، فصاح بهم الكلايجي مستغيثا فافتكوه من أيديهم بالحجارة وأدخلوه المدينة وغلقوا بابها وكان ذلك لخمس عشرة بقين من ربيع الثاني سنة سبع وتسعين وألف ووافقه الجند وخلعوا بيعة عبد الله وقتل ابني فشلوم : عمر ومحمود ، وأمر بوضع رأسيهما على حربتين خارج باب المدينة ليراهم نصراؤهم خارج السور فيكفوا عن نصرة مراد ، وحبس عبد الله داي وكان ذلك لست بقين من ربيع الاول من سنة ثمان وتسعين وألف

(١) انظر الكلام على محمود بن طوق في صفحة ٦٢

ولاية ابراهيم الترزي

وفي ذلك اليوم بايع الترزي ابراهيم وتبعه الناس على ذلك، وراسل المحاميد الموتورين من مراد فأصبحوا عنده يطلبون ثأرهم، وأخرج الجند لقتال مراد خارج المدينة وجعل قائد الخيل ورئيسهم محمد الملقب صكال دلسي ـ وصكال بصاد مهملة بعدها كاف مفتوحة وألف لينة بعدها لام معناه بالتركية شعر اللحية ودلسي بدال مهملة مفتوحة ولام وسين مهملة مكسورتين معناه بالتركية قلة العقل ـ والتقى الفريقان بمرقوب تاجوراء، وهو تل ينبت الديس والمرعى كثيراً به مزارع لأهل المدينة وتاجوراء . فكانت الوقعة على مراد لمحمد لخذلان من مع مراد من الاعراب له، شبليين وغيرهم، واستولوا عليه وقتلوه وأكل بعض الجند من لحمه، وبقي ابراهيم الترزي متولياً أمر الخزانة ـ والغالب على الدولة حسين كلايجي ـ سبعة أشهر فلما تمت له تلك المدة خلع حسين بيعته وتابعه الجند وكان ذلك أواخر ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وألف

ولاية محمد باشا الامام

وفي ذلك اليوم قدموا محمد الامام فبايعوه وهو قاز داغلي النسبة، وتولى الخزينة وتفريق رزق الجند والغالب على الأمر حسين، بحيث لا يُصدر تصرفاً ظاهراً أو باطنا إلا عن رأيه، وأقام على ذلك سنتين، فلما تمت سنة مائة وألف تجهز حسين للسفر مجاهداً في خمس سفن كبيرة يفضل بعضها بعضا وكان ذلك في عشرين من جمادى الآخرة سنة واحد ومائة وألف، فما مضت لهم مدة حتى التقوا بسفينة للعدو موسوقة ملحاً فأخذوها وقفلوا راجعين، فلما كشفوا بر

« بزليتن » أرسلوا طريدة (١) للبر ليأخذ لهم علم ما حدث بعدهم ، فأخبروا أن محمداً الامام استعمل كبير الخيل المسمى ببا احمد الفرطاس الاناضولي ، فوقع في نفس حسين شيء من اقدامه على ذلك من غير مشورة

وسبب اقدام محمد الامام على ذلك أنه عرضت له حاجة عند حسين قبل سفره فبعث اليه فيها فأبى عليه ، ثم راجعه فيها بنفسه فقضاها حسين حياء ، وطلب منه محمد كتابا بذلك فاستعجل عن أمر الكاتب به فدفع الختم لمحمد الامام وأمره ان يكتب بنفسه نختم الكاغد ومضى ، وكان حسين قبل أن يسافر فرق رزق الجند عليهم وأعطاهم خمسة ريالات لكل ، فطلبوا الاتمام فأبى عليهم ؛ وتعلل لهم بضيق ذات يده ، ووعدهم باعطاء ذلك ان قدم . فلما سافر كتب محمد الامام على لسان حسين فيما ختم من كاغد خطابا لمحمد الامام أن يجعل رزق أعلى الجند اثنى عشر ريالا ، فأوغر بذلك صدور الجند عليه حتى وافقوه على قتله ان قدم ، وفعل مافعل من التولية من غير اذنه ، فلما رئيت السفن بعث الى أهلها محمد الامام يطلب حسيناً كلا يجيء ومن وافقه من الرؤساء الذين معه ، فان سلموا له ما أراد والا ذهبوا أين أحبوا وكان من طلب معه مصطفى ضرك - بضاد مهملة مكسورة وراء مفتوحة وكاف - لقب لمصطفى معناه بالتركية شجر السرو لقب بذلك لطوله في استقامة ، وابراهيم صفجكلي - نسبة لصفجك بصاد معجمة مكسورة وغين مفتوحة وجيم مكسورة وكاف ساكنة - قرية على ساحل البحر بمقربة من قاراباغ لا . فاتفق الجند الذين بالسفن على تسليمهم ، وأعلموا بذلك محمد باشا الامام ، فأرسل من تولى قتلهم فمكنوهم من ذلك وقتلوا بالجزيرة التي بالمرسى (٢) وأخذوا رؤسهم ودخلوا بها المدينة ، وأمر محمد بوضعها بأزاء رأس ابن كنبانة ، وكان قد قتل يومئذ ، وكان وضعها على أعلى البرج المحاذي لباب هوارة على يسار الداخل من

(١) اى سفينة

(٢) وقد دخلت بعد الاحتلال الايطالي في مرفا المدينة ولم يبق لها اثر

جهة الغرب ، فلما ظفر بهم استقل محمد الامام بالملك ، وعزل احمد الفرطاس عن رئاسة جند الخيل وولاها الحاج عثمان الاناضولي مدة ، ثم عزله عنها وولاها كنعان ، وكان كنعان هذا علجاً يجيد العربية لانه ربي بأرض المشرق وأقام بها مدة

وبعقربة من استقلال محمد الامام بالملك حركت مصطفى شربانجي همة لخلع بيعة الامام محمد ووافقه على ذلك بعض الجند ، فلما أحس بهم خليل قازداغلي تسلح ودخل عليهم وقتل مصطفى وبعض من وافقه ، ولم يكن لمحمد الامام علم بذلك ، فلما أخبر بذلك سرّ بذلك وقرب خليلا ، وأركبه أسطولا للجهاد ، وأخذ يغزو فأصاب غنائم ، وعقد له محمد الامام على ابنته زينوبة ، وقبل دخوله بها حركت محمد الامام همتهُ لنقض الصلح الذي كان فعله عبد الله وأصهاره بنو فشلوم مع الافرنج فنقضه ، فلما بلغ ذلك ملك الافرنج وجه الى البلد أسطولا نحو الخمس عشرة سفينة كبيرة ومعهم البونية ، فأتوا البلد لليلة بقيت من رمضان سنة اثنتين ومائة وألف واشتغلوا بالرمي على البلد ، واستعد الناس لهم ، وظهرت شجاعة محمد الامام وحزمه حتى كان يطوف على الابراج بنفسه ، ولم يعتمد على أحد ويعد الرماة بالعطاء الكثير فرمى بعضهم هوان البونية بكرة فتفرقع الهوان فقتل ممن حوله من النصارى نحو الخمسة عشر وتأخروا فلم يفد رميهم فيها شيئاً ورجعوا خائبين

فلما رجعوا الملكهم وأخبروه بعدم إفادة رميهم لها جهز أسطولا كبيراً لأخذ سفن الجهاد بالمدينة المذكورة ، فاتفق أن التقى أسطوله بسفينتين من سفن الجهاد بالمدينة المذكورة رئيس إحداها خليل المذكور فجاهدتا جهاداً كبيراً لم يعهد مثله حتى لم يبق لها من الذخيرة شيء فأسروا من وجدوا بهما حيّاً ، وكان فيمن وجد حيّاً خليل مجروحاً شماله معدومة . وأقلعوا نحو بلدهم ، وراسلوا محمداً الامام بالصلح فكان أخذ خليل سبب صُلحهم ، فانعقد الصلح بينهم وبين محمد باشا على أن

جعلوا فداء كل من المسلمين والنصارى مائة وخمسين ريالا ، ويقابل الرجل بالآخر فمن زاد عنده أسير أعطي ذلك ولم ينقضوا من صلحهم الاول شيئاً . فكانوا يدخلون عليه كما كانوا يفعلون بمن قبله ، غير أنه لقوة إيمانه لم يدخلهم محلا به فراش يطئونه بأقدامهم المنعلة قط

وطالت أيامه وغلبه على أمره قواده والترك ، فكان القواد يغرونه بمنصور ابن خليفة لما كان منه من إعانة مراد ، فكان يغض من حقه ، فتوحش منصور من ذلك وامتنع من المثول بين يدي محمد الامام ، وبلغته منه أشياء استغلظها وكرهها ، فجمع أمره واستشار أرباب دولته في تجهيز جند إليه فلبوا أمره ، فشرع في تجهيز الجند ، فبعث إليه جيشاً كبيراً فيه عامة قواده ورؤساء أخبية عسكره ، وكان قائده يومئذ يوسف بك وانضم إليهم أكثر العربان لماو نفس منصور عليهم . فلما بلغ منصوراً الخبر فر أمامهم متوجهاً لأرض برقة فلحق بنجع سرت واعرابها بتاورغاء وتوجه معهم ، فلما نزل محلا يقال له أم اللجن[1] بين تاورغاء والهيشة على مسافة ساعات من كل لناحية الجنوب من تاورغاء ولناحية الغرب من الهيشة . وهما بلدان لناحية الجنوب من مصراتة وبين تاورغاء ومصراتة أقل من نصف مرحلة ، وهو بلد متسع الساحة ليس به نبات ولا شجر إلا النخل وبه منه ما لا يحصى كثرة وهو أنواع مختلفة ، وبه عين ماء عذب لا نظير له في القوة ومنه تنفجر أنهار تاورغاء . والهيشة بلد صغير بين القبلة والجنوب من تاورغاء وكل منهما في أرض سبخة لا تنبت سوى النخل ، ويسقى نخلها من العيون ، غير أن عيون الهيشة صغيرة قليلة النفع عكس تاورغاء

ولما التقى الفريقان بذلك المحل كانت الرقبة لمنصور عليهم وقتل من رؤساء

(١) وهي شعاب اذا ساء المطر يصب ما تجمع فيها من ماء في وادي زمزم بطرابلس

الجند والقواد كثير ، وفي تلك الوقعة مات رجب قصمة ، ولما وقع رجب عن فرسه أحضر بين يدي منصور ابن خليفة مكشوف العورة فاستغاث به فلم يغثه وباشر قتله بنفسه ، وهذه الفعلة منه دلت عن صغر نفس . وكان إيقاعه بهم سنة ثمان ومائة وألف بأواخر رجب أو في شعبان

ولما بلغ محمد باشا الخبر اغتم لذلك غماً شديداً وعزل يوسف عن قيادة الجند وولاها خليلا يوم الجمعة لست بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، وبنى بزينوبة ، وطغى منصورٌ وتجبر ، وأكل مواشي الرعايا وأفسد زروعهم وتوجه الى أرض برقة ، وأرسل الأمير محمد باشا الى عامله على الجبل الاخضر محمدبن محمود ليأخذه ، فجمع من جَنَّده من أهل البلدين : درنه وبنغازي ممن ولد بهما من مصراتة ويزليتن وبنى الجند المسمون القول أوغليه ، وأضاف إليهم أعرابا أطاعته من أهل الجبل الأخضر : جبارنه ، وبراغيث ، وأولاد برعوص ، وأولاد على . فاجتمع عنده اثنتا عشرة مائة فارس وتوجّه إليه ، وبعث الاعراب المذكورين طليعة ، فالتقى الفريقان ببرقة فهزمهم منصور حتى بلغت هزيمتهم أخبية محمد باى ومن معه من جند البلدين ، فردوا عليه وهزموه هزيمة منكرة حتى أفاتوه أهله واستولوا على حريمه ولم ينج منه الاّ ذودُ ابل ، فرجع الى وطنه واجتمع اليه من اخوانه وأصحابه ورجع لما كان عليه . وثارت بينه وبين عبد الله بن عبد النبي الصّنهاجي حروب أدت الى موته وذهاب شوكة أعوانه ، ومات سنة تسع ومائة وألف على يد عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي ومن انضم اليه من أولاد عبد الرحمن الجبالى وأولاد زيان وأولاد سلطان التاورغيين ، وبني معدان وأولاد الجند من أهل مصراتة في أرض تسمى « قرارة ابن جُديّ » بالتصغير محل حرث لأولاد على الهائم بين يزليتن ومصراتة ، مسافتها من كلّ نحو ثلاث ساعات ، ومن مصراتة بين الجنوب والغرب

وفي أيامه سنة احدى ومائة وألف امتنع الناصر صاحب فزّان من اعطاء الخراج وأعجب بكثرة باديه وحاضره ، فوجه إليه جنداً كبيرُه يوسف بيك ومشى على جهة تاورغاه حتى نزل على مرزك ، فخرج له الناصر واقتتلوا قتالا شديداً خارج البلد ، وكانت الوقعة ليوسف على الناصر ، وكانت في اليوم الثاني للناصر على يوسف ، وفي الثالث تكافآ

وكان بالمحلة أولادُ المكّني : علي ومحمد الفُزيّل وهم المغرون بالناصر محمد الامام والمحسّنون له الخروج إليه ، فلما فهم يوسف ذلك توعدهم بالشر ، فراسلوا خفية اخوة الناصر وأبناء اخوته وأكابر جندهم ووعدوا كلا بالملك بحيث لم يدر كل بما روسل به الآخر ، فأصبحوا بالمحلة من غير علم من أحد بالآخر . فسُقط في يدي الناصر ، وعلم ان ملكه هدّت أركانه ، فراسلهم بطلب الأمان له ولوزيره المسعودي ولمن معه من حاشيته بادٍ وحاضر . فراسل يوسف قاضي الناصر حماد بن عمران وأعطاه الامان على يديه فخرج من قصره حتى أتاهم ، فلما أتاهم دخلوا البلد وتولى يوسف خزانته ثم لم يوف للناصر وللناس بالعهد ، فعذب الناصر والقاضي وابنه والتجار ، ونهب أموال الناس وهتك حريمهم واستولى على كل من ظن به المال ليعذبه وكان من جملتهم تاجر من برنو

ووكل بتعذيب الناس مصطفى البسكري الملقب بأبي خشيم ، وكان شديد العداوة للمسلمين ، فلما رأى ذلك التاجر ما حل بالناس من العذاب بالنار سأل رجلا بإزائه مكتوفاً من أقارب القاضي المذكور يلقب « البحباح » بباء موحدة وحاء مهملة ثم باء موحدة بعدها ألف لينة بعدها حاء مهملة : هؤلاء الخلق نراهم يفعلون هذا أهم من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فزجره عن ذلك خشية أن يسمع منه ذلك من يفهم فيزيدون في العذاب . فلما سمعهم الموكل بالعذاب يتكلمون سأل البحباح عما قال فأبى أن يخبره فتوعده ان لم يخبره ، فأخبره انه

سأله عن القيامة ، وقال اني لم اسمع بهذا العذاب إلا في زبانية جهنم ، أهؤلاء الزبانية ونحن متنا ونشرنا ؟ ام الزبانية تأتي الخلق قبل موتهم ؟ فلما اخبره بذلك رفع عنهم العذاب وراجع يوسف برفعه وكانت تلك الكلمة سبب النجاة

وهذه مثل كلمة بعض أصحاب ابن الاشعث لما ظفر بهم الحجاج بن يوسف الثقفي وجعل يقتلهم عامة النهار ، ولما كان العصر أخرج بعضهم للقتل فقال : ان أسأنا ياحجاج في الذنب فما أحسنت في العفو . فعفا عنهم الحجاج وقال : أفّ لهذه الجيف ، اما فيهم من قال كهذا ؟ ولكن اين المقام من المقام ؟! ذلك رجل عربي فهم فذاق فعمل

ولما أراد يوسف النقلة عنها أراد أن يستخلف عليها محمد الملقب بالفزيّل ـ بالتصغير ـ فأخرجا له كتاب الأمير محمد الامام بتولية محمد الفزيّل أرض فزان فانكف عما أراد ، ورحل عنها واستصحب معه الناصر ووزيره المسعودي فلما بلغ المدينة سجنهما بها وأجرى عليهما من الرزق ما يكفيهما ، ومكثا بالسجن خمسة عشر شهرا ، منها خمسة [كان] محمد المكني مقيما بفزان واليا ، فلما تمت الخمسة الشهور قام عليه أهل البلد بعد أن أخرج منها من سلم من أولاد جُهيم وحاصروه بقلعتها ثلاثة أيام ثم جُرح وهو بها وأنفذت مقاتله ، فلما علم أصحابه ذلك طلبوا الامان لانفسهم فامنوا وفتحوا القلعة ودخلها أهل البلد ووجدوا بمحمد رمق الحياة فربطوا برجله حبلا وجذبوه الى خارج القلعة ، وكان وقت ولايته قطع يد رجل من أهل البلد فأحضروه وأمروه بقطع يده فقطعها ومثلوا به

وراسلوا تمام بن محمد ومحمد بن جهيم بأرض السودان فقدما عليهم وبايعوا تماما وراسلوا محمد باشا بأنهم التزموا بالخراج فخشيه أولاد المكني على الأخذ بثأرهم ، ودبروا معه رأياً وهو ان يرسل النوبة ويجعل واليها علياً المكني ، ويعين جماعة من الجند شبه تجار حتى يقدموها ويخدع من بها من أولاد محمد وأعوانهم

واستعان بأهل ابن وليد [1] من اورفلة وأتباعهم ، فلما قربوا من البلد لم تخف حيلتهم على محمد بن جهيم ومن معه من كبراء جنده ، فخرجوا وراودوا تماما على الخروج معهم فأبى عليهم اعتماداً على مراسلة علي وأخيه المصري له بانهم أتوه بالخلع والتجديد من حضرة الامير محمد باشا وبعثوا له بلقائهم بمن معه من كبراء جنده وأولاد الملوك ، وأمر أصحابه بالتأهب لهم ان قدموا ، ظناً منه أنما احتال به خاف عليهم فخرج للقائه تمام وحده ، فلما رأى ذلك سقط في يده فدخل علي وأخوه البلد واقاموا بها تماما سنة ويده مرفوعة عن التصرف

ولما بلغ محمد بن جهيم وادي الخرمان بايعه من معه على قتالهم ، وكان علي خرج في غازية في أثرهم وليس عنده خبر وصولهم الوادي . فلما نزل بازاء قلعة بالوادي هجم محمد وأصحابه عليهم وأخذوا أسلحتهم ومتاعهم وقتلوا بعضهم ولم يفلت علي الا في نفر قليل ، وخرجوا في أثرهم حتى أدخلوهم مرزكاً ، فدخلها محمد بن جهيم وأصحابه ليلا ، وأخرجوا تماماً وأحاطوا ببيت علي . فلما أصبح طلب الامان فأعطيه على شرط أن يرد ما أخذ من خزانة الناصر ، فردّ ذلك وراسل أخاه يوسف بالقدوم عليه بعد أن أخرجوه منها وأخوته الى القصر الاحمر بسبهة . وكان قتل محمد المصرى من البوادي أيامه وولوا رئيساً عليهم جبرا القلفاط السليماني فحاصروه بالقصر الى أن أدركهم يوسف في خمسمائة فارس من الجند صرف عليهم من نفسه

---

(١) ابن وليد بلد يقع في جنوبي مدينة طرابلس على مسافة ١٨٠ ميلا وهو بلد بيوته مبنية بالحجر والطين وتقع على حافتي مجرى ماء يسمى وادي ابن وليد وتسكنه قبائل ارفلة ، ولكل قبيلة فيه قصر يتركون فيه ماثقل حمله حين انتجاعهم لطلب الكلأ وهو قفر وماؤه قليل واهله يشربون من آبار لا يقل عمق الواحد منها عن ٥٠ باعاً . ولم يكن به من الشجر الا الزيتون ، ويسقى مما يجرى في هذا الوادى من ماء المطر عند نزوله وتحيط به صحراء قاحلة من جهاته الاربع على مسافة يوم تقريبا وبه قتل رمضان بك السويحلي يوم عيد الاضحي سنة ١٣٣٨

فلما قـدم بهم طرابلس استخرجوا الناصر من الحبس وكساه محمد الامام ووجهه اليها واليا ، وولى محمـد الامام قيادة جيشه خليلا قازداوغلى ، وكان ذلك يوم الجمعة لست بقين من ذى القعدة سنة ثمان ومائة وألف ، وعزل عنها يوسف وعقدله على ابنته زينوبة

ولما تولى ذلك كان عبد الله بن عبد النبي تقوت شوكته وحارب بعد أن كان متورعاً على طريقة آبائه ، وانتمى اليه أولاد سلطان التاورغيون وكل مفسد مثلهم من الاعراب ، وأغروه بخراب البلدان ونهب أموال الناس ، فحاصر تاورغاء ولم يكن من أهلها بها إلا أولاد محرز وبعض أولاد قاضى فقاتلوه قتالا شديداً نحو الستة الأيام ، وكان مع أولاد محرز بعض من بنى الجند من أهل مصراته ، وكثر عليهم الناس ممن أعانوا عبد الله بن عبد النبي على الفساد وأحدقوا بهم ، فقاتلوا قتالا شديداً وقتل منهم كثير ، وكانت الوقعه لعبد الله عليهم ، فاخرب تاورغاء ونهب حريمها ، وتوجه منها الى مصراته فخادعه صاحب أمرها يومئذ احمد بن ضيف الله وأظهر له الصداقة وهاداه [وكان] في خلال ذلك يراسل خليلا ، وكان عبد الله قبل ذلك نهب بعض بيوت يزليطن وأخرب بلد الفواتير ولم ينج الا القليل

ولما نزل بمصراته ورحل عنها خرج له خليل في شرذمة من الجند حتى نزل عليه بوادي حسّان ـ وهو محل حرث أهل تاورغاء على مرحلة منها الى جهة الغرب والشمال ـ فالتقيا فكانت الوقعة لخليل على عبد الله ، واستولى على أكثر نعمه وحريمه ، وخرج فارًّا بنفسه ومن سلم من خيله . وكان ذلك سنة أحدى عشرة ومائة والف

ولما استولى عليه عظمت شوكته وهابه أهل النواجع[1] من سكان البوادي وازدادت هيبته في أعين الجند ، ولما دخلت سنة اثنتي عشرة ومائة وألف توجه خليل في محلة جمعت راكب الجند وراجلهم الا قليلا لحراسة الجهة الغربية لما أحس من أهلها من التشوف للخلاف ، وسار حتى بلغ شكشوكاً - قرية صغيرة بسفح جبل نفوسه[2] بها قوم مرابطون وأولاد محمود و [أولاد] جارية[3] قليلة الشجر بها من النخل قليل ثم رجع حتى نزل بمحل يقال له « غدير عائشة » فأحسّ من العسكر القيام عليه فظفر بهم في ذلك المحل وقتل أكثر رؤسائهم ، وقفل منه حتى نزل - جبالة - على مسيرة ساعة ونصف من زانزور فبات هنالك ووجه أكثر الجند المدينة فلما دخلوها قاموا من ليلتهم تلك بخلع بيعة محمد الامام وراسلوا امن بالقلعة من الجند بمسك محمد باشا ان لم يجبهم الى الطاعة . فلما علم بذلك أجابهم وفتح لهم باب القلعة ، وكان ذلك ليلة الاربعاء لاحدى عشرة خلون من ذي الحجة سنة اثنتي عشرة ومائة وألف

ولاية عثمان القهوجي الدرغوتلي

وفي تلك الليلة بايعوا عثمان القهوجي الدّرغوتلي - كان يطبخ القهوة بسوق

(١) النواجع بلغة الطرابلسيين جمع نجع ، والنجع طائفة من بيوت الشعر متجاورة في مكان . وفي اساس البلاغه « النواجع : القوم المنتجعون »

(٢) نفوسة بفتح النون وضم الفاء اسم قبيلة بربرية كانت تسكن هذا الجبل وسمي بها . وهو يقع جنوبي طرابلس على مسافة ثلاثة ايام ويمد من الشرق الى الغرب على مسافة ستة ايام وعرضه نحو ثلاثة اميال ، وكان فيه مدينتان عظيمتان : احداهما « شروس » وهي تقع غرب فساطو ، وهي غير موجودة اليوم ، والثانية جادو ، وتسمى اليوم « فساطو » وهي من اكبر قرى الجبل واحسنها عمرانا وقد اخربتها قبيلة الزنتان في حروبهم مع الاباضية سنة ١٣٣٩ . قال في معجم البلدان : وجميع اهل هذا الجبل شراة وهبية واباضية . وقد افتتح عمرو بن العاص نفوسة ورجع عمرو بن العاص بكتاب ورد عليه من عمر بن الخطاب رضى الله عنه . اه . انظر الكلام على شروس صفحة ١٥ هامش ٣

(٣) انظر الكلام على اولاد جارية واولاد محمود في صفحتي ٦٢ و ٦٤

الترك ، فنفى محمد الامام وأهله وأولاده لبلاد الترك ، وتولى عثمان الخزانة وتفريق رزق الجند ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً . وكان فظا غليظاً ، وفر خليل لتونس ولحق بصاحبها يومئذ مراد بن محمد بن مراد الجبار ، واقام بها مدة ثم انتقل منها الى بلاد الترك واجتمع فيها بصهره محمد باشا ، وعمّر شينيا من نفسه وممن فر معه ، وكان من له به صداقة من الاعراب يكاتبونه وهو بتونس . وكان ممن كاتبه عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن حموده الجبالى الملقب بأبي طرطور ، فخرج بشينيه عليه

ولاية الحاج مصطفى غليبولى

وقد بايع الناس بعد أربعة أشهر من بيعة عثمان الحاج مصطفى غليبولي أول يوم من ربيع الاول سنة ثلاث عشرة ومائة وألف نسبة لغليبول مدينة على ساحل البحر الأسود من أرض الروميلي ، بلد فلاحة وبها أودية ماء يسقون منها زرعهم ان احتاج ، وبذلك إخصبت جوانبها ـ واستقر على تخت الملك أول يوم من ربيع الاول من سنة ثلاث عشرة ومائةوألف . وأقام في تدبير أمر الناس وتفريق رزق الجند أحد عشر شهراً ، وفي مدته مع أشهُر عثمان اتصل خليل بتونس وبلاد الترك كما ذكرنا وكان نادَى بجعل الريال عشرين قرميلا ليرضي الجند بذلك ، فحصل للرعية ضرر كبير وزاد عليهم في الخراج الثلث وزيادة . اذ قد كان الريال ثلاثة عشر قرميلا ، واشتد على الناس الامر . فلما بلغهم أن خليلا نزل بالزعفران وراسل أبا طرطور وبايعه تشوف الناس للخلاف . وهذا المحل الذى نزل به ، به أحساء ماء عذب لا نظير لها في المدوبة يقوم للحيوان مقام العلف . واذا خرجت الديدان بأذناب الابل [من] لسع الذباب لها أوردوها

ماءه ، فاذا شربته تساقط ما بها من دود ، وهو مشهور بذلك . [وهو] على مسافة أربعة أيام من مصراته يقصده آتيه منها بين الجنوب والشرق

ولما استقر خليل عند عبد الله راسل الرعية وأخدانه من العرب والجند فلم يختلف عليه اثنان الا ما كان من الجند الذين كانوا مع مصطفى وسعيد بن المنتصر المرموري في شرذمة قليلة كان استعان بهم غلبولي على غريان لما خرجت عن بيعته . وكانت خرجت عن بيعته بعد خمسة أشهر منها . فلما أحس سعيد ببيعة الناس خليلا واقبال الرعية عليه واعراضهم عن مصطفى اتخذ يداً مع خليل وأظهر لصاحبه الاعانة ، فلما سمع مصطفى بزحف خليل اليه جند الجند وفرق فيهم عشرة ريالات لكل ، وأبقى في البلد خليفة كاهيته مصطفى شنار ، وكانت عنده مودة لخليل يخفيها ، وظهر ليلقاه بنفسه وراسل خدنه سعيد المذكور ، وخرج الى ناحية غريان يظن أنه يأتيها لما بينه وبينهم حتى نزل « وادي الصمارة » (١)

فلما نزل الوادي المذكور بلغه أن خليلا سابقه على البلد من جهة الساحل ، وكان قد وضع بعض الجند من أعوانه بتاجوراء ، فسبقه خليل عليهم فقتل منهم من استحق القتل ودخل المدينة بواسطة كاهية البلد وأهلها ، وكان خليل قد وعد الجند باعطاء كلّ عشرين ريالا جنويا وزيادة « تركة » ، والتركة عندهم زيادة ربع قرميل كل يوم في الجند فخذلوا مصطفى ومسكوه وأعلموا خليلا بذلك فبعث به الى تاورغاء فقتل بها بعد الاهانة على يد محمد بن علاق التاورغي

ولاية خليل باشا

واستقر خليل على الملك يوم الجمعة في ربيع الثاني سنة أربع عشرة ومائة وألف

(١) بياض بالاصل يسع سطرا ونصفا

ولما تمت له الامور بعث لصهره وعياله سفينة أتت بهم من بلاد الترك فوافق دخولهم عليه صبيحة أول ليلة من المحرم سنة خمس عشرة ومائة وألف

وكان صهره محمد باشا حليما لين الجانب حسن السّيرة لم يتخذ أعوانا لخاصته غير عبد زنجي كان له قبل أن يَلِيَ الملك ، لم ير مستعملا لحرير ولا ذهب ولا مرتكبا لمحرم في غير القانون المخزني ، وأما هو فقد غلبه فيه العمال والجند حتى أنهم يغلبونه في احداث الخوارق وهو لا يريدها ، وربما صرح بذلك وتظلم ، وكان ملازما للخمس في الجماعة يؤم الناس ان غاب من عينه للامامة بالقلعة كثير التوقير للعلماء يقف لأدناهم منزلة ويتنحى لكبرائهم عن سرير ملكه ، سهل التناول ، يطرق بيته جليل الناس وحقيرهم ، ويخرج اليهم بنفسه ويسمع الشكاية من الشكل ، فاذا أتاه الشاكي وقت أكله أخرجه اليه وأكل معه جبراً لخاطره ، لم يتأنق في مأكل ولا فرش ولا بناء سوى مسجده الذي بناه بسوق الترك المعروف به ، فانه بذل فيه وسعه ، وبناه من مفروضه في الغنائم ، وكان بناؤه على يد ثقته مصطفى قاربطاق التونسي سنة عشرة ومائة وألف . وقد أشار اليه ابن سيدي أحمد الفقيه في أبيات فقال :

جامع أنس قد بنا ه ذو العطا وحبّسا
محمد الباشا كفا ه الله شر من أسا
وكان للناظم هو نا ولمن قد هندسا
ان قيل ما تاريخه قلت : بتقوى أسسا

وهو كما أشار ، انتفع الناس به انتفاعاً كبيراً جعله الله له جُنّة من النار

وفي سنة احدى عشرة ومائة وألف جدد بناء السوقين المحدقين بمسجده من جهتي الغرب والشمال بناء لم ير مثله في سعة السّاحة وحسْن الشكل . وكان في مدة ولايته وقع بينه وبين محمد باي صاحب تونس وحشة أدت الى أن محمداً الامام

راسل صاحب الجزائر شعبان خوجة ليساعده على تونس.

وسببها أن محمد بك بن مراد جند نحوا من أربعين الفاً مرتزقة من الترك ومن أبناء الترك سوى مرتزقة العرب ، فبعث الى محمد الامام يطلب منه من بطاعته من أهل الخراج ممن هو من أهالي تونس : كأهل جربة وصفاقس وسوسة وقابس وغيرهم ولو رفضوا سكنى تونس ، فأجابه لذلك مسالمة الى أن يستعد ، وراسل شعبان صاحب الجزائر يطلب منه الاعانة فأمره بالتأهب اليه واتفق معه على اللقاء بعنابة — بلد من عمل الجزائر به من أنواع الخيرات كثير — فارسل محمد الامام أسطوله ، وجهز فيه من جنده مرتزقة ألفاً ومائتين وخمسين غير النوتية . وكان ذلك في ربيع الاول سنة ست ومائة وألف .

ولما بلغوا عنابة والتقى الجندان وانضما لبعضهما كانت الوقعة للجندين : الطرابلسي والجزائري عليه وفر أمامهم ودخل تونس ، وقفوا أثره حتى نزلوا به وحاصروه حصارا شديداً . وفي مدة حصارهم له أرسلوا طائفة من الجند لمدينة غار الملح فحاصروها وأخذوها وهمّ خليل المذكور ومن معه بحصار البلد حصاراً عظيما ووقعت بينهم أمور كثيرة يطول شرحها ، وقاتلوهم قتالا شديداً لم يعهد مثله لامثالهم ، وظهر من شجاعة خليل باي المذكور وقوته مالا يوصف الى أن افتتحها قهرا

ثم أن أهل الجزائر دخلوا مدينة تونس وجعلوا بها أموراً شنيعة من القتل والنهب والفسق وغيره . ثم أن خليلا المذكور قدم تونس بمن معه وأتى بما كان من مراكب بغار الملح كالقبطانة وغيرها فأعطاه شعبان خوجة تلك السفن فشتمه لكونه لم يسهمه مما أخذ من تونس . فاحتال شعبان في قتله وأرسل يطلبه ، فعلم به خليل واقلع من حينه فرموه بالمدافع من حلق الوادي فلم يفد وقدم الى طرابلس مسروراً .

ولما استقر خليل في الملك وقدم عليه صهره وعياله من بلاد الترك وسلم لمحمد

في الأمر ولزم شأنه تشوف أهل غريان للخلاف وخلعوا بيعته فخرج اليهم ، وحشر الأعراب ، وبنى الجند الساكنين خارج المدينة في سائر المملكة وحاصر غريان وقطع شجرها ، وكان ذلك سنة خمس عشرة ومائة وألف ودخلها من وادي الأرباع ونهب أكثر بلادها وقتل منهم كثيراً

ولما دخلت سنة ست عشرة ومائة وألف قدم عليه الشريف صاحب تونس ليفتك البلد من يده واستصحب معه عثمان القهوجي وشعبان بن قاريوسف آغة الكرسي كانا نفيا عنده ظنا منه أن أهل طرابلس يوافقونه اذا رأوهما معه ، وقدم في جند كبير نحو الثمانية عشر ألفاً ونزل برملة المنشية من جهة طرّة وخرج خليل للقائه . فلما التقيا أخبر خليل بخلاف الجند الذين بالمدينة عليه ، وأن بعضهم أدخل يدامع الشريف ، فكر راجعا الى المدينة وترك أثاث المحلة ودخلها وغلق الأبواب ، ودخل الشريف المنشية وأفسد جنده بها وحاصر البلد . وكان نزوله بالرملة لخمس عشرة بقين من شعبان سنة التاريخ وقطع نخيل الاجنة والسواني (١) التي بالقرب من المدينة وجعله أبراجاً ليحاصر المدينة بذلك ويرمي عليها الكور وكان من السواني المشهورة التي أخربت اذ ذاك سانية الفقيه العالم الصالح سيدي عبد الله بن أحمد بن غلبون التي كانت تسمى « ارم ذات العماد » لحسنها وما حولها من الأجنة . وراسل أهل الطاعة وأقام على الفساد ومحاصرة البلد نحوا من أربعين يوما . وقرب من المدينة بأبراجه ، واشتغل بحفر سَرَب (٢) من تحت الأرض ليضع فيه باروداً كي يخرب المدينة . فلما أحسّ به أهل البلد فتحوا باب البحر وخرجوا اليهم بكرة وحملوا عليهم حملة منكرة فلم يفلت من جنده المحتمي بأبراجه الا قليل ، وصاحوا بهم فوقعت الهزيمة عليهم وقتل منهم كثير فتم الأمر لخليل وعظم في أعين الرعية والجند ، وازدادت هيبته فكان اذا أرسل السّرية القليلة

(١) السانية في اللغة اسم للبعير الذي يستقى عليه ، والطرابلسيون يطلقونها على البستان

(٢) السرب بفتحتين النفق

من جنده واتباعه فرت الأعراب أمامها .

وهو أول من اتخذ الحجاب من ملوك طرابلس ، وأول من لبس الحرير والذهب وأكثر المماليك من الروم ، وتأنق في المأكل والملبس ، ولم يكن لملوك طرابلس الذين قبله اعتناء بمثل هذا ، ونحا في ذلك نحو ملوك تونس

وسبب الوحشة بينه وبين ابراهيم الشريف أن خليلا كان بينه وبين مراد صاحب تونس صداقة ولما حل بجواره فارا من طرابلس أحسن اليه وكان ابراهيم غرر به فبقي في نفس خليل من ذلك شيء فمرت به خيل لابراهيم في الركب فأخذها ممن هي بيده بصورة بيع اكرهه عليه ، فبلغ ذلك ابراهيم فبعث اليه يهدده ان لم يردها فأغلظ له خليل في الجواب . وكان خليل جباراً ذا نخوة لم يؤثر عنه شرب مسكر مذ وُلّي وفيّ العهد لم تفلت عنه فلتة بخيانة قط ، قوي العزم محبا للحق من أهل العلم ، يكرمهم ويعظمهم ، كثير التملق بالأسئلة فاذا أتاه آت ينتسب الى العلم ألقى عليه مسألة يعسر فهمها على مثله فان أجاب زاد في تعظيمه واحترامه والا غض عنه : واذا كتب توقيعاً في شيء لا يمكن الرجوع فيه ، يتحاشى قواده حامل كتابه ويخشون سطوته . كان أول أمره أرسل كتاباً لعامله أحمد بن أحمد وعمل بخلافه ، فبعث بصلبه بفم داره وجعل الكتاب على جبهته فصلب كذلك . وكان وفيّ العهد لا ينقض ما أبرم ولو عليه فيه مضرة . وكان يقول : ألقى الله بكل ذنب ولا ألقاه منشورا لي لواء الغدر . يتحامل على أهل البدع حتى قلت البدع في أيامه ، وأذل رئيسها علي الفرجاني وسامه خسفا ، ولم يدخل أرض طرابلس الا بعد موته : بنى مسجداً حسنا بالظهرة ، غير أنه كان مروانيا في ارخاء عنان عبيده وظلم حاشيته : ولم يزل كذلك الى أن دخلت سنة احدى وعشرين ومائة وألف فخرج كبير أسطول السفن الجهادية على قبطان غازيا وخرج معه البرنجبي (١)

(١) اشبه في الاصل ان تكون « البرنجبي او البندشي »

في سفينة صغيرة ، فأعلم الافرنج الذين بالبلد صاحب مالطة عنهما ، وأخبروه بما فيهما من العدة والمدد ، فجهز اليهما شوانيه وأسطوله فطاردهم علي وقاتلهم قتالا شديداً وكل ذلك من البعد : فاذا هم بأن يحطه على احدى السفن اير بطه بهاهر بت [1] منه حتى اعدموا السفينة عن بعد ؟ فلما علم أنه لا نجاة له منهم أحرق السفينة ونزل من كان حياً في البحر فأخذوهم وكان ذلك في ربيع الثاني من السنة المذكورة وفيها خلع عبد الله بن عبد النبي بيعته وأظهر ذلك وأخذ الركب الفزاني الآتي بالخراج منها

ولما بلغ خليلا ذلك أواسط شعبان من السنة المذكورة خرج له في طرف من حاشيته وعبيده من غير اهبة : فلما نزل مزدة ـ وهي قصران حصينان من بناء الاول ، الشرقي منهما يسمى الشارف يسكنه أولاد مرعي الغيبان ، والغربي لقوم يسمون قنطرار لكنهم الآن يسكنون القصرين وهم كالخدم لأولاد مرعى الغيبان . وحواليها من جهة الجنوب أجنة قليلة بالقرب من القصرين بحيث تصيب الرمية من القصرين من أتى تلك الأجنة . وأهلها مشهورون بالرمي وحسن الصناعة في البارود بحيث يضرب المثل به . يقصدها الآتي من وادي ابن وليد بين الجنوب والشرق [2] وهي منه على مسير ثلاث [مراحل] أو أقل بيسير ، وبأجنتها نخل قليل [3] ـ لحقه الخبر أن ابراهيم أَلَيلي خلع بيعته ووافقه الجند وأهل البلد على ذلك . وابراهيم هذا أَلَيليّ النسبة ، وأليل على ساحل البحر بالاناضول ، وهي بهمزة مفتوحة ولام كذلك ومثناة تحتية بعدها لام مكسورة ، وحاصر حسيناً المشهور بخنطوزه نائب خليل بالقلعة خمسة عشر يوماً ،

---

(١) هذه العبارة غير مستقيمة وهي في الاصل هكذا

(٢) كانت بالاصل بين الجنوب والغرب وهو خطأ

(٣) بها زاوية للسنوسية اشتهرت بزاوية السني لان الشيخ عبد الله السني هو الذي يتولى النظر عليها بنيت سنة ١٢٦١

ورجع خليل حتى نزل بطرة المنشية بمن معه وخرج لقتاله أهل البلد والجند وفتح باب زناتة ولم يفتحه أحد ثم أغلق بعد انقضاء القتال

وأقام خليل سبعة أيام ثم توجه لعبد الله بن عبد النبي الجبالي وانضم اليه بمن معه فجعل ابراهيم قارمحمد قائد جيش الخيل وأخرجه للقائه فالتقوا بمحل يقال له الشرعب فكانت الوقعة لمحمد على خليل ، وفر خليل بمن معه لارض سرت ، وسار محمد في أثره الى أن نزل بعين تاورغاء ، فراسل عبد الله بن عبد النبي فوفد عليه فأغراه بقتله قريوي الجبالي فقتله ومن معه الا ابنه عليا مسكه ليأتي بما أخذ من خراج فزان ورجع محمد ، وأقام خليل بسرت قليلا ثم توجه منها لودان ولحق بالناصر صاحب فزان وتفرق عبيده واتباعه شغر بغر ولم يبق معه الا قليل فاخذه رحومة ابن جويلى المسراتي كبير ركب تجارة مصر لارض فزان معه حتى أدخله مصر فاكرمه ابراهيم بيك وأهلها اكراما زائدا ، وخرج منها الى القسطنطينية شاكياً لحضرة السلطان ، وما دري أن الله يمهل للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته

ولاية ابراهيم الاركاي

واستقل ابراهيم بالملك عاما كاملا ، وفي خلال العام شرد بشيعة خليل قتلا ونفيا وكانت شيعته أكثر جند البلد فضعف بذلك أمر الترك ووهت شوكتهم ووقع في نفسه من محمد قار الأنضلي شيء كرهه فازاله عن موضعه وجعل قائد خيله تركياً يقال له محمد حسين شاوش . وكان ذلك في ربيع الاول لخمس خلون منه ، فبقي على ذلك أربعة أشهر وتسعة عشر يوما ، ثم عزله عنها لست بقين من رجب سنة اثنتين وعشرين ومائة والف . وكانت ولاية قار محمد آغة الخيل ستة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقلدها محمد باي الملقب ابن الجن الكول اغلى كان رئيس شونى مشتغلا بغزو العدو وتشريدهم . وغزواته ووقائعه كثيرة مهمة وتخريبه قراهم مشهور ، ولو تتبعناها

لاحتاجت لديوان مستقل

ولما نفي ابراهيم محمد الأنضولي لناحية المغرب خرج الى الأعراب حتى أتوا به غريان فدخلها ووافقه أهلها نخلع بيعة ابراهيم . وخرج من وافقه على الفساد راجعاً الى المدينة حتى أتوا تاجوراء فالتقى قومه مع محمد باي الجن واقتتلوا ، فما مضت برهة من الزمن حتى هزم قار محمد ومن معه وأخذتهم السيوف ومات منهم نحو الثلاثمائة ورجع محمد باي منصوراً مظفراً . وكانت الوقعة أواخر رجب سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف ، وسلم محمد قاروفر من معه ممن وافقه الى ناحية الجبل

وكأن الله سبحانه أراد انقراض الدولة التركية واقامة الدولة القول أوغلية فأيد محمد الجن وسلط الترك على بعضهم حتى قلوا وضعف أمرهم . فتاقت نفسه رحمه الله تعالى لخلع بيعة ابراهيم وجمع كبراء البلدين : الساحل والمنشية وشاورهم في ذلك فاشاروا عليه بخلع بيعته لخمس عشرة خلون من رمضان وقيل لأربع عشرة مضين من رمضان من السنة المذكورة ، وحاصره بالمدينة ستة عشر يوماً ، ثم وافق أهل المدينة محمد باي المذكور وخلعوا بيعته ليلة عيد الفطر ليلة الأحد وأوثقوه ثم نفوه الى الاسكندرية

ولاية اسماعيل خوجة

وأقاموا مكانه اسماعيل خوجة . كان اماما بجامع الخروبة ، وجلس للحكومة وتفريق رزق الجند في يوم العيد ، وكانت اقامة أهل البلد له برأي من محمد باي ولم يختلف على بيعة محمد اثنان من أهل البلد وباديها ، واشتغل أول أمره بنفي طغاة الترك وقتلهم حتى أبادهم جميعا الا القليل منهم ممن لم يكن له تعلق في مهمتهم وزال الملك من أيديهم ، وتولى ولاية الملك القول أغلية

ولاية الحاج رجب

ولما استتم أمره عزل اسمعيل المذكور عن موضعه وكان ذلك لليلة بقيت من ذي القعدة من السنة المذكورة . وولاه رجلا آخر يقال له الحاج رجب . وفي أيامه أتى قار محمد لأهل تاجوراء وطردوه ورجع لغريان . ولما مهد البلاد ودخل القلعة أحسَّ منه محمود الملقب أبا اميس ـ كان كاتباً بالديوان ـ شرا بدعواه فغدر به وقتله وتولى موضعه . وكان قتله اياه يوم السبت في العشر الاخيرة من جمادى الاولى من سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف

ولاية محمود أبي اميس

وبايعه الناس على ضغينة من فعلته فأقام خمسة وعشرين يوما وأرسل مولانا أحمد ابن يوسف قرمنلي الى غريان ليغدر به هنالك لما توسم فيه من النباهة والصلاحية للملك دونه ، فاتفق أهل البلد على صلاحيته ، فرجع قبل وصوله الى غريان لما توسم من خدعه اياه ، فلما قدم البلد بايعه أهل البلدين الساحل والمنشية ولم يتخلف عن بيعته أحد لما جبل عليه من الرقة واللطف ، وهو الذي أسّس قوانين الدولة وأحيا رسوما داثرة من قواعدها

ولاية احمد باشا قرمنلي

وكانت بيعته ضحوة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف ، وقيل حادي عشر الشهر المذكور : فلما أحس بذلك محمود أقام

يومه ذلك متهيئا للحرب ، ثم في ليلة الاربعاء قام الشريف حسونة عليه من داخل المدينة وقبض عليه ، ودخل القلعة صبيحة الخميس الثالث أو الخامس عشر من الشهر المذكور ، فظن أنه يستقل بالأمر وفتحت أبواب المدينة ، فقبض على الشريف المذكور وقت العصر من ذلك اليوم ودخل أمير المؤمنين القلعة في ذلك اليوم . ولما مرت له أيام جعل يوسف قائد خيل محمد الامام سابقاً دايًا بالقلعة ، وكان ذلك لتسع بقين من الشهر المذكور من السنة المذكورة

وفي ذلك اليوم من الشهر المذكور قدم خليل باشا بأسطول من حضرة السلطان وسيأتي خبر ذلك مستوفى عند ذكر شمائل أمير المؤمنين [1] عند ما يناسبه من أبيات القصيدة

قال الناظم :

﴿ اذا أمّها من قد نَأتْه بلاده   وأوحشه ذو أمرها من حُماتها ﴾
﴿ تطأمن عن نفس ومال وعشرة   ويضحي بعزّ ما ثوى بجهاتها ﴾
﴿ فكم من دُيُورٍ [2] أُخرِبت وكنائس   وكم من حُصونٍ حوصرت بسَراتها ﴾
﴿ وكم من بلاد للصليبيّ مركز   أحاطوا بها ليلاً وأفنوا طغاتها ﴾
﴿ وكم من جوارٍ [3] للكوافر ضيِّقت   على سُفن الاسلام من لفحاتها ﴾
﴿ قد اضحت بمرساها أسيرةً فلكها   وعسكرها في جبرها من حفاتها [4] ﴾
﴿ وكم من أويسيّ بها ذي معارف   وكم من جُنَيديّ على شرفاتها ﴾

---

(١) يقصد المؤلف بامير المؤمنين « احمد القرمنلى » وقد خصه بهذا اللقب دون من تقدمه من الولاة لان المؤلف كان مقربا لديه وله عنده المكانة الاولى . فالذى يظهر ان المؤلف اضطرته ظروف هذا القرب الى ان يخصه بهذا اللقب

(٢) يعنى بالديور جمع . دير ، وهو صومعة الراهب

(٣) الجوارى السفن

(٤) هكذا بالاصل

﴿ بها فضلاء ما الفضيل يفوقهم   فوارس أمجاد وهم من حماتها ﴾
﴿ قد اختارها الزروق دارا وموطناً   كذا ابن سعيد مقتد بهداتها ﴾
﴿ تواترت الاقطاب تترى بأرضها   وكم سيد رام المقام بذاتها ﴾
﴿ بها علماء عاملون بعلمهم   خمول عن الاظهار في خلواتها ﴾
﴿ ولم ترغشًا قط من جمع أهلها   ولا قسما في بيعهم من جفاتها ﴾
﴿ اذا حان وقت للصلاة رأيتهم   سراعا وخلوا الربح في عرصاتها ﴾

اذا أمها : قصدها . من قد نأته بلاده : أبعدته ، من نأى اذا بعد . وعداه بنفسه لتضمنه معنى بعد بالتضعيف [1] . وأوحشته بلاده : البلد مكة شرفها الله تعالى ، وكل قطعة من الأرض مستحيزة غامرة كانت أو عامرة ، وهي المراد هنا ، وأوحشه أخافه . وذو بمعنى صاحب والامر ضد النهي . واولو الامر الرؤساء والعلماء . والحماة جمع حام ، وهو من يمنع جواره أن يضام ، أو من يطمئن قاصده عن نفسه وماله ان دخل .

وجوار أهلها مشهور ، قصدها زيادة الله بن الأغلب [2] لما افتك الشيعي بلاده فحمته ولم يصل اليه مكروه حتى انتقل منها ، وحمت ياقوتاً المعروف بالافتخار [3]

(١) لاحاجة الى هذا التضمين فهو يتعدى بنفسه ، تقول نأته ، وأنأته ، ونأيته . واستشهد صاحب الاساس بهذا البيت :ــ

نأتك امامة الا سؤالا   والا خيالا يوافي خيالا

(٢) هو ابو مضر زيادة الله بن ابي العباس عبد الله بن ابراهيم الاغلبي ، اخر امراء الدولة الاغلبية بتونس وافريقية ، ولد ونشا في تونس ، وولاه ابوه امارة صقلية فعكف على لذاته فعزله عنها وسجنه فاس لابيه من قتله ونودي به اميرا على افريقية فتولاها سنة ٢٩٠ وعاد الى لهوه واهمل شئون الملك . فاستفحل امر الثائر ابي عبد الله الشيعي ففر زيادة الله باهله وماله من افريقية الى مصر سنة ٢٩٦ . . . ثم قصد بيت المقدس ومات بالرملة سنه ٣٠٤ وبه انقرضت دوله الاغالبه في افريقيه وكانت مدتها ١١٢ سنة و ٥ اشهر و ١٤ يوما . اه من الاعلام للزركلي . وفي اثناء ذهابه الى مصر مر بطرابلس واقام بها سبعة عشر يوما

(٣) انظر صفحة ٦٣

نائب قراقش لما طلبه يحيى بن اسحاق الميورقي ولم يسلموه حتى قهروا وأخذت أموالهم . وحمايتها لمن أمّها قديما وحديثا شهيرة ،أشهر من أن تذكر ، وسيأتي ذكر نبذة منها عند التعرض لذكر شمائل أمير المؤمنين أحمد بن يوسف ان شاء الله تعالى

وأما اخرابها الديور والكنائس فان عنى الديور اللغوية والكنائس فلم أقف على اخرابهم شيئا الا ما فعل مصطفى العلج الريّس ببعض كنائس لهم أواخر سنة تسع ثلاثين ومائة وألف أو أوائل الاربعين ، فانه أخربها وأخذ ما فيها ، وأتى بيد منها معظمة عندهم يزعمون أنها تُعبد ، وبعثوا على ذلك ودفعوا أموالا عظيمة لحاشية السلطان حتى كاتب أمير المؤمنين أحمد بن يوسف فردها اليهم . والا ما فعلته سفن عثمان باشا بكنيسة جرجرا اللعين التي ابتناها بجزيرة لم يسبق بتعميرها ، وابتنى حولها أبراجاً وفندقاً ومحلا لسكناه وحبوسا لسكنى أسارى المسلمين . واتخذ ثلاث سفن ضيّق بها على المسلمين أشد الضيق ، فأخرج اليه عثمان سفنه لناحية القسطنطينية فالتقت معه وقتلوه واستولوا على سفنه وأخربوا كنيسته وما عمر . وكان ذلك في ربيع الثاني سنة تسع وسبعين وألف . وان أراد بالكنائس والديور محالها من القرى فذلك شيء لا يحصى كثرة

حدثني من أثق به قال :خرجت في شيني رئيسه قرلونة العلج فقال لنا الآن أغزو بكم بلدنا ، قال فأتيناها ليلا وأحطنا بها ، فاستولينا على عمه وبنيه وقتلنا من وجدناه فيها من طغاة الكفرة وأخربنا ديارهم . قال : وفعلنا مثل هذا في عدة غزوات ، ومثل هذا فعل ابن الجنّ وحمد الله تعالى كثيرا

وأما أخذ فلكها أساطيل غزو النصارى فما سمعت من سفن جرجرا اللعين التي ضيقت على كافة بلاد الاسلام أشد الضيق ، وسفينة لطاغية الافرنج كانوا أرسلوها مشحونة جنداً ومالا وخيلا مدداً لجزيرة الاكريتية المعروفة عند المغاربة بكندية ، وغير ذلك كثير ، وأمرها في العدو ونكايتها له شهيرة .هذا من سفن

النصارى المعدة للغزو على الاسلام . وأما سفن تجاراتهم فحدث عن البحر ولا حرج

وقد أخبرني بعض الثقات من تجار البلد قال : دخلت مدينة بلنسية وأتيت سوقها ، فسألني بعض التجار بها لما رأى الهيئة مغربية : من أي بلاد المغرب أنت فأخبرته عن وطني ، فسألني : أيبنون بيوت طرابلس بلَبِن الذهب والفضة ؟ أم هي كسائر الدنيا ؟ فقال فظننت انه يسخر بي حتى أقسم لى بمعبودهم . قال ودار بي على السوق ، وجمع ما هو مكتوب على أفواه حوانيتهم مما ضاع لكل ، فخرج شيء لا يحصى كثرة . فقال هذا ما ضاع لاهل بلدهم فكيف بغيرها من بلاد النصارى قال وهم يكتبون ما يأخذه لهم كل فريق من المسلمين

وأما أهل الاحوال فهي مشهورة باقامة أهل الصدق في الاحوال بها قديما وحديثاً ولم تزل على ذلك

وأما موافقتهم أويساً القرني رضي الله عنه في الوصف ، فهم في التقشف والزهد والقناعة بالرتبة الاويسيّة ، وان كان اختصه الله تعالى بزيادة « يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

وأما موافقة أهلها الامام أبا القاسم الجنيد بن محمد القواريري سيد طائفة أهل عصره وامام من بعدهم الى الله تعالى ، على أصول الكتاب والسنة ، فقد كان منهم شرذمة على ذلك قديماً وحديثاً :

« الاستاذ أبو الحسن ابن النمر »

فمن القدماء الفقيه العارف بالله أبو الحسن ابن النمر كان مولده بطرابلس سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة أخذ عن أحمد بن زريق البغدادي بمكة ، وروى عن ابن القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الجوهري ثم عاد الى طرابلس ، ودعا الى الله سبحانه وتعالى ، وقرر الشريعة أصولا وفروعاً ، وأظهر السنة بها لما عم الرفض

ومات أئمة أهل السنة . وهو أول من قطع الاذان بحيّ على خير العمل وأول من أقام صلاة القيام بطرابلس لما محى أثرها من أرض افريقية ، وأحيي طريقة الجنيد ، وكان قد جمع الفقه والادب مع الله ، وهو أول من صلى نافلة الضحى جهاراً ، ولم يكن أحد في مدة بني عبيد يصليها الا استخفاء . وله تآليف كثيرة في الحساب والازمنة وغير ذلك . وله الكافي في الفرائض . وأقام بطرابلس الى سنة ثلاثين وأربعمائة فخرج منها لمحنة جرت له ، وأقام بغنيمة « قرية من قرى مسلاته » فأقام بها عامين ثم مات ودفن هنالك على الطريق

﴿الشيخ عبد الله الشعاب﴾

وممن كان على سنة الجنيد رضي الله عنه وهو بطرابلس الغرب العارف بالله تعالى عبد الله الشعاب ، كان نجاراً بالمدينة المذكورة ، وكان بعض الناس ابتدأ المسجد الذي هو به الآن الذي نسب اليه وعجز عن إتمامه ، فحركته همته لاتمامه ، فأتى القاضي وطلب منه احضار رب المسجد ، فلما حضر أمره القاضي بالاتمام فأقر بالعجز فأذن للشعاب في إتمامه فأتمه ولزم السكنى به ، ودعا الى الله على نهج الكتاب والسنة وكان يجتمع بالخضر عليه السلام في مسجده ، وكان مجابَ الدعوة لوقته : سمع يوماً بكاء إمرأة بباب المسجد ، فخرج وسألها عن الحال ، فأخبرته بأن لها ابنا أسره العدو وسألته الدعاء بخلاصه ، فدعا وأمنت المرأة على دعائه ثم انصرفت الى بيتها فاذا ولدها أصبح في السكة يسأل عن دارها فعرّف بها ، فخرجت فسألته عن الحال فأخبرها عن فراره في البحر وسلامته ووصوله عن قرب عهد فتوجهت المرأة الى الشيخ تشكره وتعرفه بوصوله وأنّ ذلك ببركة دعائه ، فهنأها بسلامته قبل خبرها وقال : انما انجاه الله ببركة دعائك لما علم من اضطرارك . وتوفي رضي الله عنه ونفعنا به سنة ثلاث وأربعين ومائتين

﴿ أبو نزار الشيخ خطاب البرقي ﴾

ومن الاويسيين بها أبو نزار الشيخ خطاب البرقي كان صالحاً ديناً ذا كرمات خصوصاً في باب الرأي : وكان زاهدا ملازماً لسكنى مسجد خارج المدينة . وكان يخاطب في النوم بما يكون في اليقظة قبل كونه

حكى عنه أبو عبد الله الخياري قال : قال لى مرة : خرجت الى الحج منفرداً فبينما أنا في البرّية اذ مرّ بي رجل توسمت فيه الخير ووقع في قلبي أنه الخضر ، فبادرته وأقسمت عليه بالله تعالى أأنت الخضر ، فقال : لقد بقيت فيكم من الخير بقية ، ولم يزدني على هذا ثم غاب عني

ونقل عن الخياري أيضاً قال: قال لى الشيخ خطاب : بينما أنا في البرية اذ أنا بسبع قد عارضني ، فقلت له : يا أبا الحارث ان كنت قد أمرت فينا بشيء فدونك ، والا فالطريق . قال : فقرب مني ووقف هنيأة ثم انصرف

وحكي عنه انه قال : بينما أنا في البرية اذ رأيت شخصاً فاستغربت وجوده هنالك فقصدته فوجدته مفرح بن بياضة ، فقلت له : أبا عبد السلام الى ها هنا ؟ فقال نعم يا أبا نزار فاستغربت معرفته لى مع كونه مكفوف البصر

﴿ الشيخ أبو عثمان الحساني ﴾

ومن الاويسيين بالبلد المذكورة الشيخ أبو عثمان الحسّاني . وهو سعيد بن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب . أصله من أهل قرية حسان احدي قصور قرى طاعة طرابلس ، كان استحدث بناء هذه القرية حسان بن النعمان [الغساني] كان وجهه عبد الملك بن مروان لقتال عسكر كاهنة افريقية المعروفة بكاهنة لواته في عسكر عرمرم ، وكانت هذه الكاهنة تسكن الحصن المعروف

بالمجم [١] وهو أعظم حصن بافريقيه . وكان توجهه لها بعد انتقاض افريقيه . وموت زهير بن قيس البلوى بها [٢] . ولما بلغ عبد الملك ذلك استشار في من يوجهه عوضاً منه فاشاروا عليه بحسان هذا فوجهه بجيش لم يدخلها المسلمين جيش أضخم منه فحاصر قرطاجنة وافتتحها وأخربها وتوجه الى هذه الكاهنة فهزمته وأسرت كثيراً من فرسانه ، واتبعته حتى أخرجته من قابس فكتب بالهزيمة الى عبد الملك وسار متوجها الى دمشق رويدا طمعاً أن يلحق به من يفلت من اسارى المسلمين ، فعاد اليه جواب عبد الملك يأمره أن يقيم حيث وافاه كتابه وألا يبرح منه فوافاه الكتاب ببرقة فأقام هنالك [٣] وابتنى بها القصور المعروفة به الى الآن ، وهي على ثلاث مراحل من مصراته الى الجنوب ، وأقام هنالك الى أن وصل اليه المدد من قبل عبد الملك فعاد الى افريقية ، وكانت الكاهنة أخذت في قطع الشجر وتغوير المياه لتزهدهم في افريقية . ولم يزل حتى نازلها والتقى الجندان حتى ظن أنه الفناء الاكبر ، فكانت لحسان عليها وتبعها حتى قتلها عند البئر المعروفة المنسوبة اليها وعقد لابنها على البربر .

وكان الشيخ أبو عثمان هذا زاهدا فاضلا منقطعاً الى الله تعالى وظهرت بركاته حتى عرف بالمستجاب. وكان له بالمسجد الذى كان به خارج المدينة قضية مشهورة :

وذلك انه كان ذات يوم جالساً في المسجد على عادته ، فسمع تحته دوياً عظيما اهتز له المسجد ، فخرج بعض من كان معه لاستخبار ذلك ، فوجد شخصاً يقطع الحجارة من كهف تحت المسجد فنهاه عن ذلك فلم ينته ، فرجع الى الشيخ

---

(١) قال في المعجم : لجم بالتحريك قلعة بافريقية قريبة من المهدية حصينة جدا

(٢) قال في المعجم قتل بدرنة هو وجماعة من المسلمين سنة ٧٦ وقبورهم معروفة اه.ولاتزال تعرف بقبور الصحابة وتقع في جنوبي البلد داخل السور بمحلة بومنصور.وقال في الاصابة : زهير بن قيس البلوى ، قال ابن يونس : يقال ان له صحبة شهد فتح مصر وقتلته الروم ببرقة سنة ٧٦ اه

(٣) وكانت اقامته خمس سنين . اما هذه القصور فلم يبق منها الا انقاضها تحت التراب ،ويسمي هذا المكان اليوم « قصر حسان »

فأخبره ، فنزل الشيخ اليه وقال له : اتق الله فان فعلك زلزل المسجد ، فأجابه: ارجع أيها الشيخ الى مسجدك فان الوالى أمرني بهذا ، فقال الشيخ لو أمرك الوالي بهدم المسجد أكنت تهدمه ؟ فقال نعم ، لو أمرني لفعلت . فرجع الشيخ الى المسجد وقال : اللهم احصد عمره ، فبمجرد استقرار الشيخ في المسجد سقط جزء من ذلك الكهف على الرجل فقتله .

وقال الشيخ أبو الخشاب القاضي رحمه الله تعالى : خرجت مع الفقيه أبي الحسن بن النمّر من طرابلس لزيارة الفقيه أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى والسماع عليه ، فبينما نحن عنده يوما اذ تحدث أبو الحسن فقال : أراد الشيخ أبو عثمان مرة الحج ، فاتفق مع جماعة من اخوانه أهل الدين والفضل وكنت معهم فخرجنا مع الوحدة وقطعنا صدراً من الطريق وأقمنا ثلاثا لم نطعم ، فأتى الشيخ أبو عثمان الى ربوة فمسح وجهها بيده وجعل يأخذ ترابها ويضعه في اناء كان في يده ثم ثراه بشيء من ماء كان معه وقرأ عليه أوسمى ، وقال لنا : سموا الله وكلوا ، قال فجعلنا نأكل وتطعمنا منه طعم السويق . قال فأطرق الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ساعة ثم رفع رأسه وقال : هـذا داخل في الامكان سيما وقد ذكرتم أنكم أقمتم ثلاثا لم تطعموا ، وقرأ قوله تعالى « أمّن يجيب المضطرّ اذا دعاه » .

ولما رجع المؤدب محرز بن خلف من الحج الى تونس سأله أهلها : من رأيت في طريقك من الصالحين ؟ فقال : رأيت بطرابلس رجلاً وامرأةً . أما الرجل فأبو عثمان الحسّاني ، وأما المرأة فـ « ممدونة » . وممدونة هذه كانت من أفضل نساء العالمين وأكثرهن صلاحاً ، وكانت تسكن مسجد الشيخ الشعاب . وكان أبو نزار البرقي يعتقد بركتها ويكثر من زيارتها .

﴿ الاستاذ أبو الحسن على بن احمد الخطيب ﴾

ومن الجنيديين بها أبو الحسن علي بن احمد بن الخطيب الطرابلسي كان يسكن بمسجد المجاز لزم سكناه أربعين سنة: كان فقيهاً صالحاً عالماً في الفقه والفرائض والشروط (١) . وكان زاهداً يدعو الى الله تعالى ، أقام أربعين سنة لم يضحك ، ونحواً من خمسين سنة لم يحلف يميناً ، وقال له ابن أخيه عند ما أملى وصيته : أنسيت الكفارة ؟ فقال : لولا أني في الموت ما أخبرتك ، ما حلفت يميناً الا بالله منذ كذا وكذا محقا ولا مبطلا ، وما علمت أن علي يمينا أ كفرها .

وقد سئل سحنون بن سعيد لما رجع لافريقية عن الصّالحين ، فقال رأيت بطرابلس رجالا ما الفضيل بن عياض أفضل منهم (٢) ، والفضيل بن عياض هذا خراساني من ناحية مرو . قيل انه ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد ومات بمكة سنة سبع وثمانين ومائة

﴿ الاستاذ العلامة الشيخ احمد زروق ﴾

وأما اختيار الزروق لها فاقامته بها الى أن توفي ، واتخاذه اياها وطناً أقوى دليل على ذلك .

وهو الفقيه العلامة العارف بالله تعالى الامام الاوحد الحبر الفهامة الجامع بين الشريعة والحقيقة ، صاحب التصانيف المفيدة ، أبو العباس احمد بن احمد ابن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي عرف بزروق ، لقب معناه غير قائم به ، وانما هو لقب لجده فاستمر الوصف لعقبه كما هو شأن انتقال الالقاب من الاصول الى

(١) ما يتعلق بكتابة الوثائق ، ويقال له : التوثيقات الشرعية

(٢) قال في تهذيب التهذيب : فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي ابو علي الخراساني ولد بخراسان بكورة ابيورد ، وقدم الكوفة وهو كبير ، فسمع الحديث وانتقل الى مكه فنزلها الى ان مات بها اول سنة ١٨٧ . وكان ثقة فاضلا عابدا ورعا . قال هارون الرشيد : ما رأيت من العلماء أهيب من مالك ولا اورع من الفضيل . اه

الفروع . وبرنوس بموحدة مفتوحة ثم راء مهملة ثم نون مضمومة بعدها واو وسين مهملة ، قبيلة من العرب تسكن أرض المغرب بجهات فاس ، وزَرُّوق بزاي معجمة مفتوحة ثم راء مشددة مضمومة بعدها واو وقاف آخر الحروف . وقد ذكر سيدي زروق في رحلته أنَّ نسبه يتصل بالمصطفى ﷺ من جهة أم جده . قال ولكن لم أحقق ذلك لموت أبي في مبدأ نشأتي . وشرف المرء انما هو في سلامة دينه ، ولا شرف أكرم من تقوى الله « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » اهـ

ولد رضي الله عنه ثامن عشر المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة عند طلوع الشمس . توفيت أمه ثالث ولادته ، وأبوه خامسها ، وعمه بقربه . فلما استتم سبعاً وله غير الله مستنداً ، فكانت مدة عمره أربعاً وخمسين عاماً شغلها بالتعلم والتعليم . تفقه بالمغرب ثم نالته محنة فارتحل عنه الى مصر ولقي بها الشيخ أبا العباس الحضرمي اليمني ، وعنه ورث السرّ ، وألف تواليف عديدة مفيدة في الفقه وطريق القوم : ألف على الحكم لابن عطاء الله ستة عشر شرحاً وقفت على السادس عشر بخطه ، وقال في آخره هذا تمام الستة عشر شرحا . وشرح رسالة ابن أبي زيد في الفقه شرحا حافلا مفيدا محرر النقل قرأت أكثره بخط يده . وشرح منظومة الوغليسي والارشاد في الفقه ، ومنظومة ابن البنا ، وابتدأ شرحاً على سفينة النجاة وظيفته ، وله كتاب الحوادث والبدع ، وهو كتاب أجاد فيه ونقل أقاويل العلماء في البدع وحكم مرتكبها ، وله القواعد في أصول الطريقة ، والكُنّاش والرحلة ، وكتب كثيرة ، رضي الله عنه ونفعنا به كان زاهداً فاضلا منقطعاً الى الله سبحانه وتعالى عارفا به دالاّ عليه . له همة عالية تخرج عليه جماعة وانتفع به الناس شرقا وغربا . وله بركات ظاهرة وكرامات باهرة في الحياة وبعد الممات

حدثني العارف بالله تعالى المحقق العلامة شيخنا سيدي محمد العياشي قال : حدثنا العارف بالله سيدي محمد اليمني ، قال : لما توجهنا الى أرض المغرب ونزلنا برقة سألنا الله تعالى ببركته أن يجعلنا في جواره ، لما تقرر عندنا أن زروقا له اليد العليا في أرض المغرب بعد موته ، قال فلم نزل في أمن وسعة الى أن حللنا مدينة فاس وتوجهنا الى أرض السودان ، فلما توغلنا فيه أصابنا حر شديد ولم يكن معنا من الماء شيء فسألنا الله تعالى ببركته ، فبينما نحن في كرب واذا بداب(١) عليه قربُ ماء ومعه سائق حتى دنا منا وقال خذوا لستم بجواري من برقة

وبمثل هذا حدثني عبد الله بن أبي بكر المصراتي البلالي ، قال : خرجنا من أرض فزان ومعنا رفقة وأدخلت نفسي في جوار الشيخ ، فبينما نحن ذات ليلة اذ حدثتني نفسي باعتزال الرفقة والمبيت عنها في جهة ففعلت فما فجأني آخر الليل الا قطاع الطريق يوقعون برفقتي شراً ، قال : ففررت بلا زاد ولا ماء ولا خبرة لي بالطريق ، وكانت تلك الارض قفرة لا يهتدي لطرقها الا خبير ماهر ، وقال وبقيت ليلي وأنا أسمع قائلا يقول عن يمينك فاذا أوغلت في اليمين قال عن شمالك حتى أصبحت ، فرأيت رجلا قصيراً يمضي أمامي فاذا هممت أن أدنو منه بعد عني ، فاذا أخذت لغير القصد صاح بي الى جهة القصد الى أن أدخلني ودان يوم ثالث الوقعة ولم أحس بألم تعب ولا عطش . وكان زمان قيظ . وبالجملة فكراماته بعد موته أكثر من أن تحصى ، ولو تتبعنا ذلك لجمعنا فيه مجلداً ضخما ، وفيما ذكرناه كفاية . توفي رحمه الله تعالى سنة تسع وتسعين وثمانمائة ، ودفن في مصراته ، وكان استوطنها وانخرط في سلك أهلها ، وكان استقراره بجهة تكيران منها ، وتزوج من أهلها من أولاد الشيخ : الجعافرة ، وولد له منها وبقوا بعد موته ثم لحقوا به عن قرب ، وليس له بها نسل ، ومقامه مشهور . وتولى خدمته

(١) يطلق الداب في لغة الطرابلسيين على الحمار ، والدابة على الاتان

وأو قافه قوم من أهل شرت كانوا في سالف الزمن لهم تشبه بالصالحين ، و نشأ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات . وكان محل الشيخ معلوماً لقراءة القرآن العظيم يأوى اليه المتعلمون ، فلما غلب أولئك الخلفُ على الاوقاف والفتوحات (١) وتجاذبوها بينهم انقطع منه الطالب والمطلوب ، الى أن وفق الله سبحانه و تعالى أمير المؤمنين احمد بن يوسف لرد النظر اليه فرفع أيدى مقتسمي الوقف عنه ، وولاه الفقيه الخير الصالح سيدي احمد بن عمر وأخاه سيدي دخيلا سنة أربع وأربعين ومائة وألف ، فعاد المحل لشبه حالته الاولى ، ورد محصول الوقف لبيته ، وتتابع الطلاب والواردون . وفق الله الامير لمثل هذا (٢)

وأما كون علمائها عاملين بعلمهم فأمر غير خفي على من وقف على تاريخهم ، أو شهد حالهم ، فقد كان بها الفقيه أبو الحسن بن النمر وأبو الحسن على بن احمد ابن الخطيب ، وشيخنا العارف بالله تعالى سيدي احمد زروق ، وقد تقدم ذكرهم

﴿ الامام الحافظ الشيخ ابراهيم بن اسماعيل الاجدابي ﴾

وكان بها الامام الحافظ الفقيه أبو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل بن احمد بن عبد الله الاجدابي اللواتي الطرابلسي ، كان من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم : كلاما ، وفقهاً ، ونحوا ، ولغة ، وعروضاً ، نظماً ونثراً ، وله تآليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه وغيره : فمن تواليفه كتاب كفاية المتحفظ ، وكتابان في العروض صغير وكبير وكتاب الرد على أبي حفص في تثقيف اللسان ، وشرح ما آخره ياء من الاسماء وبيان اعتلال هذه الياء . استوفى فيه جميع أحكامها على اختلاف أحوالها من تصغير وتكبير وغير ذلك

---

(١) يعنى بالفتوحات النذور وما يتصدق به على روح الميت او يوضع على قبره من الزائرين

(٢) بياض بالاصل يسع اربعة سطور

ولما استوفى فيه ذلك استيفاء جليا تعرض فيه لشرح مقاطع الياء الواقعة في سورة مريم لاشتمالها على كثير من تلك الاحكام ، فجاء هذا التأليف في غاية الافادة والتحقيق . وله كتاب مختصر في علم الانساب ، وآخر مختصر في الانواء على مذهب العرب ، ورسالة الحول تعرب عن آداب وحفظ غزير

وكان سبب تأليفها أنه حضر يوما عند قاضي البلد أبي محمد عبد الله بن ابراهيم ابن هانش الطرابلسي فحكم بحكم أخطأ فيه ؛ فرد عليه الفقيه فزجره وقال اسكت يا حول ، فما استُدعيت ولااستُفتيت ؛ فألف تلك الرسالة . واختصر كتاب نسب قريش لابن عبد الله الزبير بن أبي بكر بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام رحمه الله تعالى

قال التيجاني : وحسبك بهذا التأليف علماً وفائدة . وقد مدح هذا الكتاب الشيخ أبو الحسن بن مغيث بقوله : هو كتاب عجب لا كتاب نسب ؛ وقد أدخل أبو اسحاق فيه من حفظه زوائد تشتمل على فوائد نبه عليها . ولم تكن له رحلة عن طرابلس الى غيرها ؛ وقد سئل : أنى لك هذا العلم ولم ترتحل ؟ فقال اكتسبته من بابي هوارة وزناتة ؛ وهما بابان من أبواب البلد : الاول من شرقيها ؛ والثاني من غربيها ، نسبا الى من نزل بهما في سالف الزمن [من قبيلتي زناتة وهوارة] . وهذا منه اشارة إلى أن ما استفاده من العلوم انما كان بلقاء الوافد عليها من الغرب أو الشرق

وكان له رضي الله تعالى عنه اعتناء بلقاء الوفود واكرامهم ، ولم أقف على تاريخ وفاته

﴿ الامام الحافظ الشيخ عبد العزيز أبو فارس ﴾

وممن كان بها من العلماء الحفاظ الامام أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم

ابن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيدة . كان فقيها حافظا ، حاز من العلوم الاصولية والفروعية الغاية واتقنها وهو سبأيّ النسب ومولده بطرابلس سنة ست وثلاثين وستمائة ، وتفقه بالقاضي أبي موسى ابن عمران الطرابلسي وارتحل الى الحج سنة ثلاث وسبعمائة

﴿الاستاذ أبو موسى بن عمران الهوارى﴾

وكان شيخه أبو موسى الهواري المتقدم الذكر فقيها عالماً تولى القضاء بطرابلس نيفا وثلاثين سنة واستن فيه بسنة أهل الفضل والعدل

وكان رضي الله عنه ذا أخلاق جميلة وسيرة حميدة مشتهرا بالعدل ، وبذلك أرسل له الخليفة الحفصى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة فوصله بتونس فولاه القضاء بها وأقام نيفا وعشرين شهراً ثم توفى رحمه الله تعالى سنة ستين وسبعمائة

﴿الاستاذ الشيخ أبو محمد بن أبى الدنيا﴾

ومن أشياخه أبو محمد بن أبي الدنيا المتقدم الذكر ، كانت له رحلة من طرابلس الى المشرق في طلب العلم فقضى فريضة الحج وادرك الريفي والصفراوى وأخذ عنهما ، وارتحل الى تونس في مدة الامير أبي زكريا ابن أبي حفص فاقام بها زمنا ثم عاد الى بلده طرابلس ، واستدعاه الامير كما ذكرنا فولاه قضاء الجماعة والانكحة والخطابة بالجامع الاعظم . وله تصانيف كثيرة منها العقيدة الدينية وشرحها وجلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس ، وكتاب مذكر الفؤاد في الحض على الجهاد

وكان رحمه الله تعالى أديباً شاعراً ، ومن شعره قوله :

طرق السلامة والفلاح قناعة ولزوم بيت بالتوحش مونس
يكفيه أنساً أن يكون أنيسه آي الكتاب ونوره في الحندس
واذا رأت عيناه انسانا أتى فلينفرن نفور ظبي الكنس
ولقلما ينفك صاحب مقول من عثرة أوزلة في المجلس
تحصى وتكتب والجهول مغفل حتى يراها في مقام المفلس

وأظهر له الخليفة المستنصر الحفصي تغيراً في بعض الاوقات فكتب اليه يستعطفه بهذه الابيات :

أمولاي لا زلتم تنيلون عبدكم ضروبا من النعماء جلت عن المثل
ولم يبق الا العفو وهو أجل ما ينال فأكمل لى به منحه الفضل
فما العيش في الدنيا بغير رضاكم بصاف ولا طعم الحياة بحلْوْل
وقد كدر الاعراضُ صفو معيشتي فأذكرتُ أحوالى وأنكرني أهلى
ولى أمل يقضى بغفران زلتي وبالعفو عن جرمي وبالصفح عن مثلى
بقيت تزيد الملكَ عزا ورفعة وتُحيي رسوم الفضل والدين والعدل
فلا يخطئَنّي منك عفوٌ ورحمة فانهما ما أخطيا أحداً قبلى
وصلى اله العرش بدأً وعودة على المصطفى مِن خلقِه خاتِم الرسل

وتوفي بتونس رحمه الله تعالى يوم الجمعة لثمان بقين من ربيع الاول من سنه أربع وثمانين وستمائه .

﴿ الشيخ أبو الحسن الهوارى ﴾

ومن كان بها من العلماء الفقيه أبو الحسن بن موسى بن عمران الهواري [1]

(١) ذكره ابن غلبون هنا باسم ابو الحسن بن موسي بن معمر الهوارى . وقد كتبناه « عمران » بدل معمر بناء على ماذكره في صفحة ١٧٥ في ترجمة ابي فارس، فقال : وتفقه بالقاضي ابي موسى بن عمران الطرابلسى، وابو موسى هذا هو اخو المترجم له كما ذكره المؤلف. وقد ذكره النائب في تاريخه بقوله : ابو موسى بن عمران الهوارى

الطرابلسي أحد أرباب الرتب الجامعين بين رياسة الفقه والأدب ، ولد بطرابلس سنة ست وستمائة وقرأ بها يسيراً ثم توجه مع أخيه القاضي أبي موسى المتقدم الذكر الى المهدية للقراءة على أبي موسى زكرياء البوني فلزماه مدة ثم عاد أبو موسى الى طرابلس ولزم البوني أبو الحسن وتفقه عليه واختص به اختصاصا كبيراً ، فلما كانت فتنة أبي حمراء بالمهدية وبعث الشيخ أبو علي ابن أبي موسى بن أبي حفص والى المدينة اذ ذاك بالتحديد من أبي زكريا البوني وأبي حمراء وتوجه الامر من الخليفة له بقتل أبي حمراء وازعاج البوني الى الحضرة ، فقتل أبا حمراء وحمل البوني على حمار ومعه خواص أصحابه ، فذكر من رأى ذلك : ان البوني تمثل عند اشرافه على الحضرة بقوله :

هكذا في البر يفعل بي　　كيف لو زلت بي القدم

وكان ممن وصل معه أبو الحسن بن عمران الطرابلسي ثم أدركت الامير شفقة على البوني فأعاده الى وطنه وأقام ابن عمران بالحضرة . وكان فقيهاً مفوّهاً لسناً خطيباً غير أنه كان في لسانه فضول كثير ، كثر امتحانه به والتعرض له بسببه . وتوفي في دولة الخليفة المستنصر رحمه الله تعالى . وكان أديباً عاقلا وله شعر كثير حدث عنه أبو يعقوب يوسف بن أبي موسى ابن أخيه ، قال : كنا جلوساً بين يديه فأنشد بعض من حضر بيتين لابي الوليد سليمان بن خلف الباجي وهما :

مضى زمن المكارم والكرام　　سقاه الله من صوب الغمام

وكان البر فعلا دون قول　　فصار البر نطقاً بالكلام

قال فأنشدنا رحمه الله تعالى لنفسه متمماً عليهما بقوله :

وزال النطق حتى لست تلقى　　فتى يسخو بمرجوع السلام

وزال الامر حتى ليس الا　　سخي بالاذى أو بالملام

وكان الخليفة تغير عليه مرة ، فثقفه بدار الاشراف . وكان ممن ثقف معه أبو عبد الله محمد بن يحيي الفضيلي فحصل بينهما اتصال وود ، فاتفق أن سرح ابن عمران قبل الفضيلي فهنأه الفضيلي بذلك وأنشأ مرتجلا :

لئن سرني فك الاسارى من الحبس ... فقد ساءني فقدي لما فيه من أنسي
ولو انني خُيِّرت فيما أريده ... لآثرت تقديمي سراحك عن نفسي

وفي مدة لزومه بيته للجفوة التي كانت له من الخليفة قدم صديق له من السفر ممن تلزمه زيارته فكتب اليه :

كتبتُ ولولا الحكم كنت اليكم ... من الشوق في متن الرياح أطير
واني أسير أن أسير مسلماً ... عليكم على وجهي وذاك يسير
وما في صحيح العتب من خالص الوفا ... فسيَّان فيه غيبة وحضور

وله رحمه الله تعالى في معافاة الخليفة من مرض كان به :

الله أنعم بعد البؤس بالفرج ... يا أزمة الدهر عند الشدة انفرجي (١)

وله رحمه الله تعالى في مداعبة أبي المجد الصوفي لولوعه بنكاح العجائز :

أبا المجد كم تهوى بحب العجائز ... وذلك في شرع النهى غيرُ جائز
كلفت بأطلال محا الدهرُ رسمها ... فأصبحت تبغى الفوز بين المفاوز

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

آهاً نردد لو تشفي لنا كُرَبا ... وبالتعلات نحيي لو قضت اربا
وبالأماني ينال القلبُ بغيته ... وقد تحقق من معتادها كذبا
يرتاح ان لاح برق من جهامتها ... وما تراءى له الا وقد ذهبا

---

(١) ذكر المؤلف ثلاثة ابيات بعد هذا حذفناها لاختلالها وزنا ومعنى

يسرّهُ إن مُدَّ يوماحبل منيته   وما تطاول الا جُدّ وانقضبا
ان عز ما يبتغيه فهو في دهش   ويختشي الفقر ان ما يبتغي قربا
وارحمتاه لقلب كم اجشمه   أمراً يُذيب من الاصلاد ماصلبا
وكم يعاني ملمّات بأيسرها   يهون الامر من دنياه ما صعبا
وكم يُلجاج في أفكاره لججاً   سودا تؤججج في أحشائها لهبا
وكم تهب سموم من تنفسه   او استمرت لما هبت نسيمُ صبا
استغفر الله لا أشكو الزّمان ولا   أبدي اذا طرقت احداثه رهبا
ولا أئنُّ لحظ منه أعوزني   ولا أسرّ اذا ماله المنى انسكبا(١)

الشيخ عبد الوهاب القيسي

ومن الاويسيين بالمدينة المذكورة الشيخ عبد الوهاب القيسي رأى النبي ﷺ نحواً من أربعمائة مرة ، وكان يشاور النبي ﷺ في أكثر أموره ، وقبره الآن بها مشهور ولم يعلم قبر أحد ممن ذكرنا ، ولم يبق موضع سواه هو والشيخ الشهاب . وموجب ذلك استيلاء العدو عليها وطول اقامته بها

الاستاذ أبو عبد الله محمد بن احمد بن الامام

وممن استوطنها من العلماء الاغراب بعد فتحها الاخير الامام العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الامام ، استوطنها ونال بها خيراً الى أن توفي سنة (٢)

كان رحمه الله فقيهاً حافظا منقطعا الى الله سبحانه وتعالى ، ولم يشتغل قلبه من الدنيا بشيء ، ولم يتخذ ولدا ولا أهلا . وكان رحمه الله أكثر اشتغاله بالمطالعة

(١) بعد هذا بيت حذفناه لعدم وضوحه
(٢) بياض بالاصل بسع كلمتين وذكر النائب في تاريخه انه توفي ١٠٨٢

والذكر. وشرح الشيخ خليل شرحا حافلا وقفتُ على قطعة منه أجاد فيها.
وذكر لي الأخ سيدي محمد بن مصطفى الماعزي أنه لم يكمله

﴿ الشيخ أبو العباس أحمد بن ثابت ﴾

والفقيه الصالح الزاهد العالم أبو العباس أحمد بن ثابت، تولى بها مسجدا ما بين البئر الشامية والحمام الاكبر، وبه كان يقرأ الدرس، وتفقه به جماعة من أهل البلد، منهم الفقيه المفتي أبو عبد الله محمد بن محمد بن مقيل. وله رحلة من بلده الى الازهر ثم الى الحج، ثم آب منه واستوطن طرابلس، ولم يزل بها الى تاريخ هذا. وقد طعن في السن وانقطع عن التدريس

﴿ الشيخ أبو العباس أحمد النصرى ﴾

وممن استوطنها من الافاضل أبو العباس أحمد النصرى، كان فقيهاً فاضلا خيرا تصدى للتدريس الى أن توفى بها سنة تسع وتسعين والف

﴿ الشيخ أبو العباس أحمد القروى ﴾

والفقيه أبو العباس أحمد القروى، كان فقيهاً عالماً أديباً توفى سنة ثلاث عشرة ومائة والف

﴿ الاستاذ أبو محمد عبد الله بن يحيي السوسى ﴾

والفقيه العالم العلامة الدرّاك الفهامة، الجامع بين المنقول والمعقول، شيخنا أبو محمد عبد الله بن يحيي بن عبد العزيز السوسي الجلدى الصقالي الادريسي، نشأ بجاما بالصقال منها، وارتحل عنها لمراكش، وحضر بها مجلس الفقيه أحمد العطار في الفقه ومجلس الفقيه أحمد بن ابراهيم السوسي، وقرأ في أحكام القرآن

وبعض رواياته على الاستاذ سيدى أحمد أكزّ : بهمزة بعدها كاف وزاي مضمومة مشددة ـ نسبة لقبيلة من قبائل حاحا ، وانتقل منها الى السوس ولقى بها الأفاضل ، وانتقل منها لدرعة واجتمع بالشيخ العارف بالله تعالى العالم الرباني سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى والفقيه العالم سيدي أحمد الهشتوكي والعالم العارف سيدي عبد الكريم التدغى ـ نسبة الى تدغة احدى قبائل السوس ـ وعدة أفاضل وأخذ عنهم ، وانتقل منها لتفلالت ولقي بها الفقيه العارف بالله حمزة بن عبد الله بن سالم العياشي صاحب الرحلة ، وأخذ عنه النحو والتصريف وسمع منه صحيح البخاري ، وانتقل منها الى تلمسان ولقي بها المشايخ وأخذ عنهم الفقه : رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، وعقائد العارف بالله تعالى سيدي محمد السنوسي ، وانتقل منها الى الجامع الازهر سنة ست ومائة والف . ولقى به الشيخ الفاضل العالم أبا عبد الله محمد الخرشي ، والشيخ أحمد ابن الفقيه الشافعى ، وشيخنا الشيخ عبد الرءوف البشبيشي الشافعى ، والشيخ أحمد البقري ، والشيخ المختار التلمساني ، والشيخ الاطفيحى ، والشيخ حسن الشرنبلالى الحنفى ، وتفقه بهم في النحو والتصريف وأخذ عنهم الفقه والتفسير والكتب الستة وتفقه به جماعة ولم يزل الى تاريخ هذا متصدرا للاقراء ، أخذت عنه قطعة من البيضاوي ، ومسائل من العضد على مختصر ابن الحاجب أبقاه الله تعالى للنفع آمين

﴿ الاستاذ الشيخ أحمد المكني ﴾

وممن تفقه بها وولد بها الشيخ الفقيه الصالح سيدى أحمد المكّني . كان رحمه الله تعالى صالحا مجاب الدعوة محترما موقرا مهاباً ، تولى الافتاء بها وسلك فيه سنن أهل العدل ، كان متجافيا عن الظَلَمة وأعوانهم ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يبالى اذا رأى عظم منكر بتغييره ، ولا يتوقف فيه على مراجعة اولى الامر واذا بلغهم ذلك لم يسعهم الا مساعفة الشيخ ولد رحمه الله تعالى سنة اثنتين وأربعين والف وتوفى رحمه الله تعالى سنة احدى ومائة والف

﴿ الاستاذ الشيخ محمد بن مقيل ﴾

وممن تفقه بها وولد بها الشيخ العالم الصالح سيدي محمد بن مقيل الكبير تفقه بسيدي أحمد المكّني وغيره من الوفود القادمين على البلد، وتولى الافتاء بها عند كبرسن الشيخ سيدي أحمد المكّني وصاهره الشيخ بابنته . ولد رحمه الله سنة أربع وخمسين والف . وتوفى ليلة الأحد لتسع خلون من جمادى الاولى سنة احدى ومائة والف . كان رحمه الله تعالى فقيها دينا شاعراً مجيدا فيه، ومن شعره يخاطب سيدى محمد بن الامام رحمه الله تعالى لما وفد الى طرابلس قوله :

لقد لاح في أفق الذّكاء ذكاء ... به انجاب عن وجه العويص غطاء
وما هو الا الاوحد الجهبذ الذي ... عليه بمضمار الفحول لواء
إمام همامٌ قد علا منبر العلا ... فأفحم من تبيانه البلغاء
رئيس له سلطان كل رياسة ... اذا ما تراءى قهقر العلماء
هو البارع البحر العباب محمد ... امام له بابن الامام جلاء
اليه مقاليد البراعة سلمت ... فحق لها فخر به وعلاء
لطائفه جلت فكم من أفاضل ... أماثل أعيان لها خطباء
ومنها شموس كالغزالة مسبلٌ ... عليها حجابُ العز وهي ضياء
وتؤنس في دار الدجا ووصالها ... ووصلُ الملاح الغانيات سواء
اذا لمحت تضنى بلاغة لفظها ... وفي شهدها للذائقين شفاء
فهذا كتاب كاشف السر كاسف ... لتقصيره والعجز فيه وفاء
فلا زلت يابحر الفوائد لافظا ... نفائس منها تنفق الادباء

﴿ الاستاذ الشيخ أحمد بن عيسى الفرياني ﴾

وممن ولد بها وتفقه العالم الخير الديّن سيدي أحمد بن عيسى الفرياني . وكان

رحمه الله تعالى شديداً في الحق

حكى أنه لما وقف عثمان باشا أملاكه على بنيه أحضر العلماء وسألهم عن صحة الوقف فافتوه بالصحة ، فأمرهم بالنزول فنزلوا [1] فلما حضر الفقيه المذكور أمرهُ بالنزول والموافقة فأبى عليه ، فسأله عن حكمه فأفتاه بالبطلان . والحق ماقال فقد صرح شهاب الدين القرافي رحمه الله تعالى في فروقه ببطلان ذلك ، ولحقه الاذى من هدم مخالفته النصوص مراراً وسجن على ذلك ، ولم يتوصلوا اليه بشيء ، فجزاه الله عن دينه خيراً . ولد رحمه الله تعالى سنة أربع عشرة وألف وتوفى رحمه الله تعالى ضحوة الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمان ومائة وألف

﴿ الاستاذ الشيخ محمد بن مساهل ﴾

وممن ولد بها وكان من الأخيار وتولى الافتاء وسار فيه رحمه الله تعالى سير العلماء العاملين الفقيه العالم الصالح سيدي محمد بن مساهل توفى ليلة الجمعة فاتحة رمضان سنة سبع وسبعين وألف . وكان رحمه الله فاضلا له تعلق زائد بالوفود القادمة على البلد للقاء أهل الخير ، وانتفع به جماعة ، وتفقه به سيدي أحمد المكني وغيره وأخذ عنه سيدى عبد الله بن سالم العياشي صاحب الرحلة ، وكانت له رحلة مع سيدي محمد الصيد

حكى عنه أنه مكث أربعين سنة يصلي الجمعة بمسجده . وله رحمه الله تعالى قدم صدق مع الله سبحانه وتعالى ، وكانت توليته الافتاء أواخر المحرم سنة سبع وثلاثين وألف

﴿ الاستاذ الشيخ عبد الله بن أحمد بن غلبون ﴾

وممن ولد بها في علمها وهو من أهلها الفقيه الصالح الشيخ سيدي عبد الله بن

(١) النزول : التوقيع . هكذا جرى به العرف عند الطرابلسيين

أحمد بن عبد الرحمن بن غلبون نشأ بمصراته ، وأخذ عن سيدي الشيخ أحمد المكني ، وارتحل لجربة وأخذ عن الفقيه الفاضل الشيخ سيدي ابراهيم الجمني رحمه الله ، وارتحل عنها الى مصر وأخذ عن العارف بالله تعالى أبي عبد الله الشيخ سيدي محمد الخرشي ، وعن الشيخ العالم الشيخ عبد الباقي الزرقاني رحمهما الله تعالى وجماعة . كان رحمه الله تعالى كريما حليما يتقي ما يشين عرضه

حكى أنه كان رحمه الله تعالى بدرنة ووجد عليه فقهاؤها من اقبال الامير محمد ابن محمود باي عليه ، فأجمع أمرهم على أن يغضبوه باغرامه شيئا من الدنيا ، فدبروا لذلك حيلة بأن بعثوا لامرأة من بنات الخطأ[1] بالبلد وأمروها أن تأتيه وهو بالديوان وتناديه وتدعي عليه بخمسين أصلانيا أمانة وضعتها عنده ، ووصفوه لها ففعلت ، فلما أتته علم من ذكائه رحمه الله تعالى أنها خديعة قصدوه بها فبادر بالاقرار لها بذلك ، واستلف ذلك ودفعه لها ولم يغضبه ذلك ، وعفا رحمه الله تعالى عن فاعل ذلك عند ارادة الامير محمد باي الانتقام منه . توفي في صفر سنة خمس عشرة ومائة وألف

﴿ الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري ﴾

وممن كان بها من العلماء من أهلها الشيخ عبد السلام بن عثمان بتاجوراء وتفقه بسيدي محمد بن مقيل وغيره من أهل البلد ولم تكن له رحلة عنها . وألف كتابا في الفتاوي سماه « التذييل » زعم أنه ذيل به المعيار . وجمع فيه من الغث والسمين شيئا لم يسبق به . وكتابا سماه « فتح العليم » في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم تعرض فيه لما في البلد من صالحين ، واعتمد في وفاتهم وخصائصهم على أخبار عوام المتفقرة[2] ، وله حيل في المعاملات تدل على عدم اتقائه

(١) من المومسات (٢) هم المنتسبون الى الطرق . ويسمون عندنا بالفقراء

كان يميل الى نصرة الطائفة المتفقّرة المبتدعة ، ويحتج لبدعهم بما لا يشك في بطلانه من له أدنى مسكة من عقل . واياه اعتمدت الفرقة المتفقّرة ، حتى أنهم ان احتُجّ عليهم بحديث أو آية عارضوا بالشيخ المذكور وله كتابة على المختصر زعم أنه اختصر بها شرح الشيخ عبد الباقي عليه . توفى عفا الله عنه ليلة الثلاثاء لخمس خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومائة وألف

ونحا نحوه في الانتصار لمتفقّرة الوقت تلميذه الشيخ محمد النحّاس وشد يده على تلك الطريقة ، وحث عوام الناس وضعفاء العقول عليها ، وجعل لهم مرغبات من حكايات الصّالحين ، وفي طيها هلاكهم وهلاك الدين

وقد بلغه عني أني أذكر صنيعهم ، وكنت قدمت على حضرة أمير المؤمنين لمصلحة عنت ، وأقمت بجواره مدة ، وبلغه اقامتي فأتاني بعض أصحابه وأخبرني بدعوة الشيخ لي ، فوعدته بالمرور عليه أن أبت الى أهلي ، فأتانا بعد وداع أمير المؤمنين واستحثني في الحضور عند الشيخ ، فهيأت رواحلي وأمرتها بالتقدم أمامي والمرور على الشيخ فان رأوا منه بشاشة أقاموا الى أن ألحق بهم والا ظعنوا فلما قربوا من منزله [رأوا منه عدم[1]] البشاشة فظعنوا ، وتخلفت بالمدينة لوداع قريب من الاخوان الى أن بقى للغروب نحو الخمسة عشر درجة وسرت ، فالتقينا بأخينا سيدي عبد الله الشهاب الصيدي فدعانا لطعام فلم تسعنا مخالفته ، فتناولنا طعامه وصلينا المغرب وسرنا فمررنا بالمدرسة التاجورية التي بها الطلبة المشتغلون عليه ، فوجدناه خلف لنا صاحبه محمد بن سالم رسول دعوتنا سابقاً ليأتي بنا الى المحل ، فأتيناه وأكرم مثوانا وأحسن نزلنا ، ووافق ذلك ليلة جمعة وبها كان اجتماعهم فأنزلنا بمحلهم الذي يجتمعون به . فلما صلينا العشاء دعانا لبيته وقرب لنا طعاما ثم خرجنا منه لنعود الى محلنا ، فأمر بسراج لنا في محل آخر ، فدخلناه

(١) سياق الكلام يقتضى هذه الزيادة ، و في الاصل بياض مكانها بسع كلة

فوجدناه غير فسيح الساحة ، وغاب عنـا الشيخ لترتيب المتفقرة مدة ، فرتبهم وقدم ، فلما مكث واستقر به المجلس سأل عن الحال وبالغ في التلطف بنا . ثم استفهمني : هل ما بلغنا عنك من التعرض لمتفقّرتنا حق ؟ فأجبته : هو كما بلغك عني . وقلت : انك تعلم محبتي لكم واعتقادي فيكم الخير . وأنت تعلم أن الدين النصيحة ، وأنا الليلة ضيفكم وبجواركم فحق عليكم نصحي بأن تبينوا لي الامور ومستندكم في ذلك بحجة واضحة وعليّ قبولها ، أو تقبلوا بياني وحجتي فتعذروني فيما أتكلم به . فكان من جوابه : ان هذه طريقة الشيخ سيدي عبد السلام ، فأجبته أن ليس ذلك طريقته ، وحاشاه أن يفعل ذلك ، وعلى تقدير فعله ذلك لا يقتدى به في ذلك اذ هو رجل مجذوب ذو أحوال لا يتعرض له في خاصة نفسه ، ولا يسلم فعله لمقتد به . فأضرب عن ذلك وأخذ في الجدل ، فقال : وما تنكر منا ؟ فقلت : اجتماعكم للذكر ليلة الجمعة والاثنين بخصوصهما ، فقال : هذه ليال فاضلة ورد النص بتفضيلها ، فقلت نعم ، وهل ورد نص في تخصيصها بشيء من العبادات ؟ فقال لم أقف على شيء . فقلت : أجمعت الامة على أنه لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه . فسكت . فقلت : أتعتقدون أن صنيعكم هذا دين ؟ فأجاب : لولا الدين ما فعلناه . فقلت : بم يثبت الدين ؟ فقال بالتواتر : فقلت سلمنا أن الشيخ المستندين اليه يسلم له ويقتدى به ، فمن أثبت لكم هذا عنه ؟ ومن روى هذه الطريقة عنه ؟ فلابد أن تكون رواية الدين بالعدول فقال : رواها شيخنا الشيخ سيدي على الفرجاني . فاجبته : هو أصل هذا الامر ومؤسس قواعده وداعي الخلق اليه . فامتقع لونه ، فلما رأيت ذلك منه سألته : هل يقبل قوله فيه أو شهادته ؟ فأجاب : لا يقبل فيه . فانتقل الى الشيخ أبي راوي فأجبته وألزمته بمثل الاول ، فأفتى فيه بالاول . ثم اهتدى الى الشيخ عبد السلام ابن عثمان بعد مدة واحتج بروايته : فقلت : هو منسوب للعلم ومشتهر بالعدالة .

ففرح بذلك . فسألته : هل يفعل ذلك ؟ فأجاب : لا يفعل ذلك . فقلت وهل هو راض به ؟ فأجاب نعم . فقلت : ما حكم الله في شهادته فيه ؟ فقال : لا تقبل . فقلت : حينئذ يجب عليكم الاقلاع . فاضرب عن كلامنا وأخذ يسأل عن المنكر من طريقهم ، فقلت : أخذكم مالا ممن غاب عن جمعكم ليلة الاثنين والجمعة كرهاً ممن انتسب اليكم وتسمونه حقا ، وأخذكم ممن فعل معصية مالا سوى ما شرع الله فيه . فقال : مستندنا في ذلك جواز التأديب بالمال . فقلت : أنتم مالكيو المذهب ، ومذهب مالك خلاف ذلك : فقال نعم ، ولكن له وجه في الجملة . فقلت إنْ جوَّز ذلك القائلُ به انما جوز ذلك للامام بشرط أن يضعه في بيت مال المسلمين الى أن يتوب فيرجعه اليه . فقال : وأين الامام ؟ فقلت مذهب مالك يقول باطاعته بعد انعقاد البيعة ولو فاسقاً : فسكت . فكان آخرُ كلامه لي : هذه طريقة مشايخي لا يسعني تركها كائنة ما كانت. فمن يومئذ زال ما كان عندي من أنصافه واتباعه الحق . هدانا الله واياه الى الصراط المستقيم آمين

« الاستاذ الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الصادق »

وممن كان بها من العلماء من علمها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الصادق بن احمد بن عبد الصادق بن محمد بن عبد الله العبّادي نسبة للعبايدة قبيلة من بني سليم . كان أولهم استوطن الخضراء من أرض فزان ، ثم انتقل الى ساحل طرابلس واستوطنه ونشأ عنه خلق كثير ، وكانت له همة وسطوة ، ولقب بعض أولاده بالجبالية . وسبب ذلك أن عبد الله الجد المنسوب اليه كانت له أخوة وصحبة في الشيخ العارف بالله تعالى سيدي زروق ، فأتاه الشيخ المذكور زائراً ، وكانت له زوجة تعطل فاشتكى الى الشيخ فكاشفه الشيخ بأنها تلد جبلاء فولدت ولداً وسماه محمداً ولقبه الناس بلقب الشيخ له تبركا . ويقال لذريته أولاد الجبل

والجبالى . ومنهم اكتسب الوصف أولاد محمد بن حموده لانهم أخوالهم حتى غلب الوصف الآن عليهم

كان رحمه الله تعالى فقيهاً صالحاً ديناً يكره الابتداع في الدين ، له تواليف عديدة فى علم الكلام والفقه وكلام القوم ، شرح الصغرى للشيخ سيدى محمد السنوسى ، ومنظومة الشيخ عبد الواحد بن عاشر ، واختصر رسالة بن أبي زيد وشرحه . وله منظومة فى عيوب النفس وشرَحَها شرحين كبيراً وصغيراً . وله تواليف في أسباب الغنى وشرح منظومة الشيخ عبد الغني بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عبد الله بن محمد بن الوليدى الفاسى فى ما يجب على المكلف مرة فى العمر عيناً ، وفى ما يجب على الكفاية . وألف كتاباً فى البدع سماه « تحفة الاخوان فى الرد على فقراء الزمان » . وشرح منظومة الشيخ أبي عبد الله محمد الصالح الأوجلى في التوحيد ، وله عدة تواليف . ونظم أصول الطريقة المنسوبة للعارف بالله تعالى الشيخ زروق سماه « هداية العبيد الى الطريق المبتغي الحميد » وشرحَه .

كان رحمه الله تعالى يميل لجمع المسائل دون تحرير ، فكلمته في ذلك فقال قصدي حفظ الدين ونقل أقاويل العلماء ، فالله تعالى يتقبل عمله ويحسن ثوابه . توفى رحمه الله تعالى لثمان بقين من ربيع الاول يوم الاثنين بعد الظهر سنة ثمان وثلاثين ومائه وألف تغمده الله تعالى برحمته آمين

﴿ الاستاذ الشيخ احمد بن حسين بن سيد الناس ﴾

وممن ولد بها وهو من أهلها الشيخ الفقيه العالم العلامة ، النحرير الاديب النحوى اللغوى ، سيدى أحمد بن حسين بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن

قائد بن أحمد بن علي بن سيد الناس . كان بيته بيت علم . ارتحل الى مصر ، ولقي بها الشيخ أحمد البشبيشي الكبير ، والشيخ سيدي محمد الخرشي والشيخ عبد الباقي ، والشيخ حسن الشرنبلالي وعدة أفاضل رحمهم الله تعالى ، وتفقه بهم في كل العلوم ، وأخذ عنهم الحديث ، والتفسير ، والكلام ، واللغة ، والاصول ، والنحو ، والتصريف ، والقراءات ، والحكمة . وله رحمه الله تعالى القصائد المشهورة البلاغة . منها تخميسه العياضية في مدح خير البرية ، فاق فيه الاصل وغيره ، وله الرسائل المشهورة بالبلاغة والآداب السنية ، كالمقامة الثورية وغيرها . اختصر رحمه الله العزّية نظما رائقاً سالما من الحشو ، وله منظومة في العقائد سماها « درة العقائد » سبعين بيتاً ، لم ير مثلها في سلاسة النظم وعذوبة اللفظ . أعربت عن علم غزير ، وله منظومة في مذهب أبي حنيفة سماها « المعينه » كان رحمه الله تعالى علامة عصره فقيهاً في كل العلوم . ففي كل علم تكلم أعجز فحوله ، لم يصحبه حظ ، فقُدّم عليه من هو دونه للفتيا وكان ينشد عند رؤيته : يحسبه الجاهل ، البيت (١) وكان محسوداً على فضله . وقد مدحه الافاضل من أهل المشرق والمغرب بغرر القصائد . فمما مدح به قول القائل :

يا فاضلاً فضله بين الورى ظهرا ... وعاقلا وهو بالبهلول قد شهرا
ويا فقيهاً له في الفقه مرتبة ... ابدى بها سرما أخفى من اختصرا
وعالما بتقارير الشفاء شفى ... أمراضَ قلب الذي فى درسه حضرا
وصح لما روى عنه مشافهة ... صحيح متن « البخاري » وارتوى « درراً
لقد حباك اله العرش جل بما ... حباك مما به قد صرت مشتهرا
يا ابن الحسين جزاك الله مكرمة ... أبديت فى كل علم للورى عبرا
« عزّية الشاذلي » كانت منثرة ... نظمتها فحلت قدرا على النظرا

وفي العقائد أبديتم لمشتغل | بعلمها « درة » قد فاقت الدررا
كفاك في مذهب النعمان نظمكم | « معينة » سرها في السالكين سرى
وكم مسائل قد كانت مشتتة | جمعتها فغدت كالدر حين يرى
يا أيها العلم الفرد الذي افتخرت | به طرابلس لما آن بها اشتهرا
دامت عليك من المولى نعائمه | ولا برحت بسر الله مستترا
ودمتم قبلة للقاصدين ولا | زالت فضائلكم في العالمين ترى
بجاه أحمد خير العالمين ومن | على البراق الى السبع الطباق سرى
عليه والآل والاصحاب قاطبة | تحية عرفها قد أخجل الزهرا

ولو تتبعنا ما مدحه به الافاضل من أهل المشرق والمغرب نظماً لجمعنا من ذلك ديواناً . وفي هذا كفاية . توفي رضي الله عنه ليلة السبت لليلتين خلتا من شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائة وألف

وأما كون أهلها يتركون التجارة وقت صلواتهم اشتغالا بها فأمر أشهر من أن يذكر ، ولم يزل منادي السلع ينادي عليها الى أن يسمع الاذان فيضرب أمينهم حلقة الباب فاذا سمعوا ضربها انفضوا الى الصلاة وتركوا المتجر

قال الناظم :

﴿ بها ملك اندى من السّحب راحة | وأرأف بالاعراب من والداتها ﴾
﴿ له همة تدعو التأبيد سنة | بحفظ مبانيها وجمع رواتها ﴾

أقول : الملك الممدوح هو أمير المؤمنين أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى القرمنلي نسبة الى القبيل المشهور بأرض الاناضول بيته بيت عز ومجد مؤثل . كان جده مصطفى كبير طائفة من الجند موقرا مهابا . وأبوه يوسف نشأ عاملا ، ولم يزل كذلك مهابا موقرا بدار الملك مشهورا بها الى أن توفاه الله تعالى

وخلف أمير المؤمنين أحمد في رفاهية عيش وعلو همة ، ولاه خليل باشا عمل أبيه على ساحل المنشية ، وكان يكرمه ويراعيه ، ولم يزل كذلك مهابا موقراً الى أن أراد الله تعالى نقل الملك من يد ابراهيم أليل الى محمد باي الملقب بابن الجن فنظر أهل الديوان في البلد مع سابق الارادة الازلية ، فكان لاربع عشرة خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف . فازداد أمره وعلا شأنه .

ولما قتل محمود أبو اميّس ابن الجني غدرا وتولى موضعه وبايعه من بايعه على ضغينة توسم في أمير المؤمنين أحمد صلاحية الملك دونه ، فاراد الفتك به ، فارسله الى غريان ليبطش به من فيها من الجند ، فراسله اهل الديوان من رؤساء العسكر وعامة الجند وأهل البلد بالقدوم عليهم ليبايعوه ، فقدم يوم الثلاثاء لاحدى عشرة خلون من جمادى [الآخرة] (١) سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف ، فدخل السوق وبايعه من به ولم يختلف في بيعته من أهل البلدين المنشية والساحل وأهل الديوان والمدينة اثنان لعلمهم بصلاحيته لما قلدوه من أمرهم دون غيره . وحاصر محمودا في المدينة يوماً ، وراسله أهل المدينة بالبيعة ومسكوا محموداً بواسطة حسونة الشريف ، وأدخلوا أمير المؤمنين المدينة وبايعه الناس وتمت له البيعة ، وقدمت عليه الوفود من أهل القرى والبوادي يبايعونه وأعان بنصرة الشريعة وأهلها وعقد مجلسا لحضور العلماء بين يديه لفصل الخصام ، وأمر عماله أن يفعلوا كذلك ، ففعل البعض ، وبالغ في تعظيم العلماء واكرامهم وفرض لهم في العطاء ، وزاد في اكرام أرباب البيوت القديمة وحمد الناس سيرته

ولما مضت على بيعته عشر ليال خلع على يوسف باي وولاه دايا ، وأقامه بالقلعة ، وخرج عن المدينة وسكن بالمنشية . وكان ذلك في أواسط جمادى المذكور من السنة المذكورة

(١) ذكر في اول ترجمته انه جمادى الآخرة

[وفي الحادي والعشرين من هذا الشهر [1]] قدم خليل باشا في أسطول من قبل السلطان والياً ، وأراد الدخول ، فحضر العلماء والرؤساء من أهل الوطن بين يدي أمير المؤمنين وأجمعوا على منعه من الدخول ، فأقلع الى جهة الغرب في ثمانمائة مقاتل ونزل بزوارة « قرية من عمل طرابلس يسكنها أخلاط من العرب والبرابر [2] » وأسكنوه وأنزلوه بها ، وبعث الى الأعراب فقدم عليه ابن نوير ومن تابعه على الفساد ، وتقدمت السفن فقدمت المدينة لست خلون من شهر رجب من سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف . وزحف خليل بمن انضم اليه من الأعراب حتى نزل زواغة ، فجنّد له أمير المؤمنين عسكره ، ووافته خيله المرتزقة والمتطوعة والتقى الفريقان بزواغة ، فانكشفت الحرب عن خذلان خليل وقتل بزواغة « وهي مدينة قديمة المسماة بصبرة » [3] يوم السبت لثلاث عشرة خلون من رجب سنة ثلاث وعشرين ومائة والف ، وانصرفت بعد أن أقامت على المدينة نحو الخمسة عشر يوماً يراجعون الناس في قبول ولاية خليل ، وعامة الناس وخاصتهم يأبون قبولها . وكانت اقامتها قبل اقلاعها به لناحية زواره . ولما عادت بلا من أتت به توهم أمير المؤمنين ايقاع أهلها شراً بينه وبين صاحب القسطنطينية مولانا خليفة الله السلطان أحمد بن مصطفى باخبارهم بخلاف ما عليه الناس ، اذ مساعدته لخليل انما كانت لما ادعاه خليل من محبة أهل الوطن له ، وانما أخرجه منه قوم بغاة خارجون عن الشرع والنظر الصحيح فوجه وفداً كبيرهم أحمد بن عثمان وصحبته هدايا جليلة لحضرة مولانا السلطان ولما حضر لمخاطبة الحضرة العلية والرتبة السلطانية والذات المولوية الخاقانية ،

(١) الزيادة من تاريخ النائب ، والشهر جمادى الآخرة

(٢) وهي مدينة من مدن طرابلس المشهورة تقع على مرحلتين منها الى الجهة الغربية وهي من مواطن البربر المختصة بهم في طرابلس ، وهي على البحر ولها ميناء ذات اهمية

(٣) انظر الكلام على صبرة في صفحة ١٥

ودفع له كتاب الجند وأهل البلاد، وعرفه ما كان عليه خليل المذكور من الفساد وانه أضر بالرعايا كل الاضرار، وسام الاكابر والاصاغر الخسف والذل والاحتقار، وتحقق أن ما ذكره له من موافقة أهل البلاد له ومظاهرتهم اياه شيء باطل وأمر لم يحصل منه على طائل. وكانت عادة البلاد قديما يأتيها على رأس كل سنة باشا من قبل السلطان، فقدم يوم الاحد لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين ومائة وألف محمد رايس الملقب بـ « جانم خوجه » باشا من قبل السلطان أحمد، فأكرمه اجلالا لهيبة مرسله ووجهه اليه بعد انقضاء مدته معززاً مكرماً.

وفي سنة خمس وعشرين ومائة وألف أواسط شعبان تاق أهل تاجوراء للخلاف واستدعوا له غوغاء من أهل ترهونة وبعض أولاد حميد بن جارية، وسرى بهم طيف الخيال. فلما بان له منهم ذلك جند مرتزقة وخيم في رياض سكّرة [1] وأظهر أنه يريد غريان لو ميض نار خلافها، وراسل عامل تاجوراء ليبعث اليه مائتي رام من رماتها بسلاحهم فاحضرهم، وشمخت بذلك نفوسهم وظنوا عجزه عن اقامة الملك بدونهم، وواعدهم وقتا يلاقونه خارج بلدهم ففعلوا فلما التقى بهم أمر بأخذ سلاحهم وايقافهم، وفرقهم في خيام الجند وقدم البلد وخيم بقلعتها، وأغرمهم من المال ما أثقلهم أداؤه وارتحل عنها، وولى تفريعهم ذلك صاحب خيله أخاه لأمه الحاج شعبان بك بن يوسف، فلما كان التاسع والعشرون من الشهر المذكور من السنة المذكورة أجمعوا أمرهم ومن وافقهم وهجموا عليه بالقلعة يريدون قتله، وكان معه طائفة من الجند فامتنع منهم حتى تمكن من القلعة وحاصروه بها ورموه بالحجارة وامتنعوا من الاداء، وبلغ خبر

(١) موضع بالمنشية جنوبي مدينة طرابلس فيه من انواع الاشجار ماينذر وجوده في غيره، وفيه بساتين غناء ومناظر تشرح الصدر، وفيه من جيد انواع الثمار والظلال الوارفة ما استحق ان يسمى به « سكرة »

فملتهم تلك أمير المؤمنين بعد العشاء فاستنفر المرتزقة وأهل البلدين. الساحل والمنشية وصبحهم فلم يقووا على حرب ولا دفاع ، وأباح أموالهم فنهبت ديارهم ومواشيهم ووثق منهم وقتل « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة »، وأغرمهم مالا ثقيلا ووالى عليهم المغارم حتى بدد شملهم وتركهم عبرة لمن تاقت نفسه لما تاقت نفوسهم اليه.

وفي السنة المذكورة في أواخرها خرج على البيعة ابن حسين الكول أوعلي ولحق بقرية مسلاتة ، وبايعه من بها من الرعايا وغيرهم الا آل بيت النبي ﷺ وأعانهم على فسادهم محمد بن منصور الترهوني الملقب بسوق الذيب [1] ومن وافقه فاستنفر أمير المؤمنين جنده وتولى حربهم بنفسه ، فبدد شملهم وفرقهم وأحاط بهم ، الا من توغل في الجبال ، وحرّق بيوت الرعايا الذين بايعوه ، وأباح نهب أموالهم وأغرمهم ثم عفا عنهم وارتحل ، ورجع مظفراً منصوراً . ثم خلع بيعته بأثر ذلك ابن عشرين ، ووافقه على ذلك بعض أهل البيوت القديمة ولم يجعل الله لهم أثرا ، ثم بعد ذلك عفا عفو قادر على أهل البيوت وأقارب القائم ، وأحسن وبالغ في الاحسان للكلّ جزاه الله تعالى خيرا

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة وألف فخلع فيها علي بن عبد الله بن عبد النبي الصنهاجي المكنّي « أبو قيلة » بيعة أمير المؤمنين ، وانضم اليه كل مفسد من الجبال وأودية الككوم [2] ومن أراد الفساد من أهل السواحل ، وأخذ أموال الرعايا ، ونهب مواشيهم وأكل الزروع ، وأخذ أولاد خليفة وأولاد نصر ، وسبى حريمهم ودخل ببعض بناتهم كرها ، وقتل نحو الستة عشر رجلا من بني

---

(١) سوق الذئب كان رجلا عظيما في ترهونة وهو شيخ قبيلة المهادى التى تسكن الآن جهة «الداوون وسيدى معمر» وفي بعض السنين حصلت حروب بينه وبين الشيخ عبد المولى (الجدالاعلى لعائلة المريض) بتشديد الياء فهجر وطنه الى مصر ومعه بعض انصاره واستوطنوا « أسيوط » ولا تزال قبيلة ترهونة معروفة بها الى الان

(٢) اودية الككوم تقع في الجنوب الشرقي من مزدة على مسافة يوم تقريبا

خليفة . وكان ذلك قبل سنة سبع وعشرين . واشتد أمره على الرعايا ، وكثر تابعوه حتى ظنّ ضعفاء العقول أنه الفاطمي الموعود به . وارتحل بتابعيه الى ناحية الجبل الأخضر فالتقى بخراج أوجله وافدا على حضرة أمير المؤمنين فأخذه ، وأخذ خيل الجند الوافدين به ، فلما بلغ أمير المؤمنين ذلك توجه الى لقائه وكان هو توجه الى الجبل الاخضر وهاداه كبراء أهله وأعطوه مالا وأخذ من لم يعطه ورجع . ولم يكن لأمير المؤمنين علم برجوعه ولا اقامته بالجبل، فلما نزل الزعفران من أرض سرت خرجت من الجند طائفة تتصيّد ، فالتقوا ببعض وراده وبعض قنّاص الصيد منه ، فأخذوهم وأخبروا أمير المؤمنين بدار الاعراب ، فارتّحل من ليلته حتى صبحهم على حين غفلة فاستولى على أموالهم وحريمهم ، وقتل أخاه عبد النبي وفر علي بنفسه ولم ينج من أبلهم وأموالهم الا ما قل ، ووجد ببيته الخراج المأخوذ تاماً ، ورجع منصوراً مظفراً ، وكان ذلك أوائل ربيع الاول سنة ثمان وعشرين ومائة وألف . فلما قدم المدينة أنشد بعضهم بين يديه قصيدة وبذل له فيها كثيرا ، وهي هذه :

هذي جنائزهم وذا فخر الورى ... بالنصر والفوز المبين مبشرا
قل للجحافل يصبروا أو ينفروا ... فاليوم يوم دمائهم متحدرا
جاء الصلاحُ الى الفساد فكيف لا ... يذرُ الفسادَ وأهلهَ تحت الثرى
ان الجحافل حان وقت وفاتهم ... ففناؤهم لا شك فيه ولا مرا
وافاهم الدهر القوي ومن سوى الد ... هر القوي على العدو بأقدرا
فتزلزت بلقومهم حافاتها ... تركت مقدم جمعهم متأخرا
واستسلمت طوعا وكرها نحوه ... لما رأت ظفرا يقل مظفرا (١)

(١) بعد هذا بيتان في الاصل لم نستطع قراءتهما فحذفناهما

لم تلق منهم غير من في كفه ... كأسُ المنون تُديرها أسدُ الشرا
حافين حول لواء من في طيّه ... لمع يخيل عزرائل مصورا
نسخت شمارَ صفاته ما كان من ... كسرى ومن إسكندر أو قيصرا
لا تسمعن لحديث ليث غيره ... فالصيدُ كل الصيد في جوف الفرا
أفنى جموعهم وخرب دورهم ... فنواح أهليهم غدا متكرّرا
فاستسلبوا الارواح حتف أنوفهم ... وكسى البقاع من الدماء معصفرا
بالموت أنذرهم وبشر أنه ... لا زال أحمد منذرا ومبشرا

ثم زين له علي المكّني التوجه لفزان وحثه على ذلك ، فتوجه اليها حتى نزل على مرزك وحاصرها أياما نحو العشرة ، ثم قدم عليه خبر أزعجه فارتحل عنها ورجع الى المدينة أواخر سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

ثم راسله صاحب فزان مع خواص بلده وأرباب البيوت منها وتلطف أن يقبل منه الخراج ، فقبل منه الى أن ظهر منه من قلة الأدب مايوجب التوجه اليه ، فتوجه اليه بعد أن اخذ عليّ بن عبد الله بن عبد النبي بعد عوده لمثل ما كان عليه « بدريدر » (١) ــ ماء مورود ــ وكان أخذه له على يد صاحب خيله أخيه الحاج شعبان باي ، فوافاه ولم يخرجوا له من السور ، وأقام عليها مدة قليلة ، وأباح نهب بعض البلاد التي لم تجب دعوته كالقطرون ــ اقليم تحت ولاية صاحب فزان ، كثير النخل والزراعة يرده أهل كاوار ومن حوله من جفاة السودان ، وأهل النوبة قليلا ــ ثم رجع ولم يصب من مرزك ــ محل كرسي صاحب فزان ــ في تلك المرة ، وكان ذلك في المحرم سنة احدى وثلاثين ومائة والف . وكان كبير الجند الذين أرسلهم لنهب القطرون وأخذها ابراهيم الملقب الترياقي الكول اوغلي ، فأصاب منها مالا كثيراً اختصه لنفسه ولم يعاتبه أمير المؤمنين

(١) هو عدة آبار متقاربة بعضها من بعض، وتقع شرقي مزدة الى الجنوب بمسافة يوم ونصف تقريباً

على ذلك .

فلما كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف خلع البيعة ابراهيم الترياقي وعلى ابن خليل الأدغم وابراهيم أبليبلو وطائفة من جفاة الجند .

وكان سبب ذلك أن أمير المؤمنين وجه صاحب الخيل الحاج شعبان واليا على أهل برقة: بنغازى ، ودرنه وبواديهما ، وأرسل القائمين من الجند صحبته ، وصحبهم مفتاح بن عبد الرحمن الاصفر : رجل يزعم علم الغيب ، واعتقده أولاد الترك الذين هم بمصراته . فلما صحب الوالى المذكور اساء الادب معه ظناً منه ان له فيه العقيدة كما للمذكورين ، فبالغ فى الاغضاء عليه الى أن بطش ببعض أهل درنة وبعض من معه لامر قيل فيهم ، بطش بهم من غير ترو ، فاجتمعوا والترياقى على المجذوب المذكور يستطلعون منه خبر الغيب ثم خلعوا البيعة من هنالك ، وبايعوا ابراهيم الترياقى وعليّ بن خليل الادغم ، على أن الاول ملك والثانى وزيره وكاهيته ، ووافقهم من شاكلهم من الجند ، ومن لم يشاكلهم لم يستطع دفعاً ، فوافق ظاهراً ، وتوجهوا من برقة كلما مروا بقبيلة دعوها الى البيعة فأجابت طوعاً أو كرها ، الى أن قربوا من تاورغاء وبها يومئذ قائد وحسن أغا وكيلا على قبض الخراج ، فنهض لمسكهم على بن خليل وابراهيم بليبلو ، فدخلوا البلد ، وأظهروا بعض كبرائها على فعلهم ، ومسكوا القائد وأخذوا فرسه وسلاحه ، وتوجهوا الى ابن علاّق وحسن نازل عنده ، فلما دخلوا بيته أرادوا البطش بحسن فحماه منهم ابن علاق وتوجه فارا الى الحضرة ، وفر معه من لم يرض بفعلهم ولا عقلهم . ودخلوا مصراته وتمت بها بيعة الـكول اوغلية الاّ من فرّ ، وأرسلوا الى المملوك الذي كان رتبه أمير المؤمنين ليقوم بوظائف القصر الذي بمرسا قصر أحمد ليحمي من بها من سفن العدو . فأخذوا ما بيده من البارود والرصاص المعدّ لحماية بيضة الاسلام من النصارى ، وأخذوا سلاحه وفرسه : وحضر عندهم من الدجاجلة المدعين علم الغيب

خلق لا يحصون كثرة ، وتقوى ظنهم فى انهم يتملكون وتوجهوا حتى نزلوا تاجوراء وفر منهم حسن الصغير فى شرذمة الى الحضرة وخرجت لهم خيل أمير المؤمنين فأخذت منهم شيئاً كثيراً ، وعفا عن أصابه منهم الا القليل ، وتفرقوا في البوادى يحمون رؤوسهم ، فكاتبهم بالامان الا رئيسي الثورة : عليّ بن خليل والترياقي ، فتوجه على بن خليل الى مصر ، وبقي الترياقي بالاعراب يتقلب فى البرارى . فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين ـ ونحن يومئذ بمصر بالجامع الازهر ـ قدم كتاب من الحضرة بتأمين على ان قدم تائباً ، فشكرنا عفوه وقدمنا على الحضرة . فلما نزلنا « التميمى » أحساء ماء عذب ببطن واد يبعد عن درنة مسير يوم — أخبرنا أن محمداً الملقب « جانم خوجه » أتى مطروداً من الحضرة السلطانية الأحمدية ونزل على بنغازى وبايعه كبراء الاعراب : عبد الله أبو طرطور الجبالى ، وصالح بن سليمان ، وسليم بن جليد بن موسى وسائر كبراء أعراب الجبل وبرقة ، ووافقهم أهل البلد . وكان صحبتنا في الركب الحاج على الماعزى وعلى ابن خليل ، فوافينا جماعة من الجند كان أرسلهم أمير المؤمنين في بعض السفن فظفر بهم جانم خوجه ، وكنا أردنا الاقامة بالجبل لزيارة رويفع بن ثابت بن السكن الانصارى النجارى صاحب رسول الله ﷺ . فلما وجدناه بها عجنا الى الحضرة فأخذنا من وجدناه من جندها ، ورحلناهم وزودناهم . وسرنا حتى انتهينا الى « المنعم » ـ احساء ماء عذب شرقي مدفع (١) وادى الكبريت ، ـ فرأينا جند أمير المؤمنين به وكبيره يومئذ ابراهيم تابعه متوجها الى لقاء جانم خوجه ومن معه ، وناول أمير الحج كتابا من أمير المؤمنين بالتحجير على بيع الخيل لغير الجند ، فناولنيه أمير الحاج فقرأته وشكرنا الله على العافية . ونادى أمير الحاج في الناس : من باع فرساً لغير الجند فلا يلومنّ الا نفسه ، وكان بيدى

(١) يستعمل الطرابلسيون كلمة مدفع الوادى ، ودفعه ومصبه : في الموضع الذى ينتهي اليه جريانه . ويركد فيه

فرس جيد وشى به بعض الناس عنده ، فلما بلغني ذلك أرسلت به واحدا اليه ففرح بذلك وردها علي ، وتمال بأنها لو وافقته لاعطى أضعاف القيمة ، وبالغ في الاكرم وكان ذلك أواسط شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف

فلما نزلنا مصراته اقمت بالاهل وبجوار الوالدة ، وكانت صحبتي هدايا للحضرة فارسلتها اليه ووجهت كتاباً من عندي الى الحضرة اعتذر عن المثول بين يديه ، فشرفني بكتاب للعمال يتضمن احترام رعايتي واعواني ومن لاذ بي من الطلبة . وحدد عن العمال فيمن قصد محلي من خائف اذا بلغ أرض كذا فلا يقرب ولا يمسك جزاه الله عنا خيراً فأقمت شهر رمضان بأهلي وكان عامل البلد سن فيها قتل النخل (١) وجعل فيها محلا لبيعه ، فبعثت اليه أن هذا لا يسعكم في دين الله ولا يسع أمير المؤمنين غداً بين يدي الله ، وقرأت عليه كتاب أمير المؤمنين ، وأفهمته ما تضمنه من تعظيم المحل وتوقير الطلبة ، وأخبرته أن هذا لا يوافق . فأعرض عن الكتاب ، فأرسلت الى المخمّرين وأعطيتهم ثمن ما اشتروا به النخل وتركوه ، وقدمت على الحضرة ، فلما مثلت بين يديه وأخبرته بالواقع أمر برفع يد العامل وولى غيره فأقمنا بجواره في كرامة الى أن دخل شهر ذي القعدة ، فاجتمع جماعة منهم احمد المعروف بابن الرئيس (٢) وبعض بني علوان على خلع البيعة ، واتعدوا على وقت معلوم فهرب ابن الرئيس (٢) ومن معه ، ودخلوا على الحاج شعبان وهو بمحله فقتلوه ، وفشل موعدهم بالغدر بأمير المؤمنين ، وشتت الله شملهم وأعاد كيدهم في نحرهم . فأخذوا وقتلوا ، وفر ابن الرئيس (٢) الى جبل المحاميد ، واستقر أمر أمير المؤمنين بخير ، وبقي ابن الرئيس (٢) مع أعراب المحاميد الى سنة خمس

---

(١) قتل النخل : هو ان يقطع جريد النخل حتى اذا لم يبق الا الجمارة ــ وهي شحمة النخلة ــ عمل حواليها حوض، وهي بهذه العملية تصب ماء كالعسل ، فاذا تخمر استحال الى خمر ويسمى (اللاقبي)

(٢) كانت في الاصل « الرايص » وهي كلمة عامية شائعة الاستعمال في طرابلس

وثلاثين ومائة وألف ، فخرجت أعرابهم لارض « سرت » وأخرجوا أهلهـا منهـا كرها ، وأخذوا مواشيهم ، وقد كان جعل صاحب الخيل ابراهيم موضع أخيه المقتول تداركه الله باللطف ، فلحق بهم في أرض سرت فأخذهم وفرق جمعهم وهرب ابن الرئيس فلحقه بعض الاعراب ومسكه وقدم به على الحضرة فقتل صبراً . كما تدين تدان

وندا، ـ أكرمه الله ووفقه ـ وحديث فضله سارت به الركبان شرقا وغربا وقصده الشعراء والناس وامتدحوه . وأعطى عطاء يفوق عطاء مثله قصده محمد جركس ، واحمد بك الاعسر ، وأحمد بك الصغير ، وعمر بك لما أخرجوا من بلادهم فارين برؤسهم فآمنهم وأكرم مثواهم ، وبعث كاهيته حسن الاحمر للقائهم وكان لما نزل الحاج بمصراتة ومعه محمد جركس التقيت به وأكرمت مثواه عملا بحديث « راعوا عزيزاً ذل وغنياً افتقر » . ولما كان له من منة على سيدي على الشتري الطرابلسي ومجاوري البـلد بالأزهر ، فأسرَّ الى الحديث في شأن أمير المؤمنين ووفائه بالذمة ، فأخبرته بما صدقه العيان فشكر واطأنت نفسه . فلمـا أصبح لقيه الـكاهية بخيرات كثيرة وانعام واسع . ولما قدم على الحضرة هيأ له عرصة أنيقة البنـاء واسعة الفناء ، وأعد له فيها ما يليق بالهمة من فرش ومأكل ومشرب من العسل والسكر . وبعث اليـه وقر أربعة بغال لباساً من ثياب الملك والفراء الرفيعة . وأقام في جواره مدة ، وانتقـل الى أرض الجزائر فلم يجد من صاحبها ما وجده من حضرة الامير مع ماله عليهم من اليد ، إذ هو جاء في خفارة ولد صاحبها ، وكان قدم عليه صحبة الحاج حاجا ، ووجـده متنعما في بحبوحة الملك فأنعم عليه وأخذ بيده . ولما انقلب الحاج الى مصر وجد أن الله قد أزال النعمة عليه ، وفر عنهم الى المغرب متمسكا بأذياله . وكان قدومهم عليه سنة سبع وثلاثين ومائة وألف ، وأقام أحمد الاعسر ومن معه بجوار ابن أمير المؤمنين محمود بك

صاحب ولاية بنغازي . في كرامة الى أن قدم على الحضرة ، فهيأ له من الاكل والشرب والمركب والملبس ما يليق بغرضه وأعطاهم ما تشتهي أنفسهم زائداً عما أعد لهم ، وأقام عليهم خدما وحنا عليهم حنو الوالدة على ولدها بل أبلغ . وهذا شأنه ـ وفقه الله تعالى الى الخير وأعانه عليه ـ مع كل غريب حل بجواره

ولما حلت بجواره « خناثة » حريم أمير المؤمنين بأرض المغرب مولانا السيد اسماعيل في شعبان سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف ، وابن ابنها مولانا أمير المؤمنين بالمغرب السيد عبد الله بن اسماعيل سنة خمس وأربعين ومائةوألف أكرم مثواها وكفاها مدة اقامتها ما تحتاج اليه من مأكل وأسكنها عرصة فسيحة ، وأقام من الخزانة كافة ما تحتاج اليه دوابها وخدمها . ولما ظعنت من عنده الى الحج أعطاها خمسين بعيراً ، وبعث لعماله في البلدان بالوقوف اليها فيما تحتاج اليه ، فوقف كل على حسب مقامه وجرى بمجهوده ، الى أن خرجت من الطاعة ونعمه شاملة لها ، وكذلك فعل بها لما قدمت سنة أربع وأربعين ومائة وألف (١)

وأما دعوة همته لتأييد السنة فأمر أشهر من أن يذكر ، فقد كان الوطن قبل توليه ـ لشغل أهله بما دهمهم من الظلم وعدم مراعاة أهل الفضل والدين ـ في غفلة عن أمر الدين . ولما أراد الله ولايته ، وراعى جانب الدين في ابتداء أمره نفر من أهل طاعته خلق كثير لطلب العلم ، وتفرقوا في البلدان يطلبون العلم ، فتفقة منهم خلق كثير وآبوا اليه فأكرم مثواهم

(١) كتب على هامش الاصل هذه العبارة : « قوله وفي سنة اربع واربعين ، ضرب الامير المذكور سكة وسماها المشاورية كل عشرة منها بريال في ربيع الاول سنة ١١٤١ . وفي سنة ٤٤ ضرب الامير المذكور سكة وسماها الفنيدية كل عشرة بريال واستمرت الى اخر ولايته رحمه الله

﴿ الشيخ أبو عبد الله محمد بن مصطفى الماعزى ﴾

فمن نفر منهم وتفقه الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن مصطفى الماعزي الكول أوغلى ، ارتحل الى مصر ولقي بها الافاضل وأخذ عنهم العلم ، وتفقه في كل العلوم : نحو ، و كلام ، و حديث ، و تفسير ، وانتقل الى مكة ، ولقي بها الشيخ أكرم الهندي وأخذ عنه ، والشيخ أبا الحسن السندي وعدة أفاضل وأخذ عنهم ، وآب الى وطنه فأكرمه أمير المؤمنين واعانه على بناء زاويته بالمنشية فبناها و هو في وقتنا يقيم بها لقراءة العلم نفع الله به

﴿ الشيخ محمد بن محمد بن مقيل ﴾

وممن تفقه بها ولم تكن له رحلة عنها أبو عبد الله الشيخ محمد بن محمد بن مقيل ، تفقه بالشيخ عبد السلام بن عثمان ، والشيخ أبي العباس أحمد بن ثابت وأبي الحسن علي بن عبد الرحمن النجار ، وجماعة من الوافدين عليها

﴿ الشيخ محمد بن أحمد المكنى ﴾

وممن تفقه بها أبو عبد الله محمد بن أحمد المكني نشأ بها وتولى الافتاء بها بعد موت الشيخ محمد بن مقيل الأكبر

﴿ الشيخ أحمد بن محمد المكنى ﴾

وممن تولى الافتاء بها أيام تأليفنا هذا الكتاب الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد المكني ولم تكن له رحلة في طلب العلم ولا كثرة رواية ، ونصب لمكان البيت[1] وفقه الله للخير . وروى الفقه عن أبي الحسن علي بن الشاهد المالكى نزيل جربة . وأخذ عن الفقيه أبي عبد الله محمد المشهور بأبي حافر وغيرهما

(١) اى تولى الافتاء لا لعلمه ولكن لشهرة بيته وفضل اسلافه

﴿ الشيخ محمد بن عبد الحفيظ النماس ﴾

وممن تفقه بها أبو عبد الله محمد بن عبد الحفيظ النماس التاجوري تفقه بشيخنا أبي محمد عبد الله محمد بن يحيى ، وبالشيخ عبد السلام بن عثمان وجماعة ، وأقام بالمدرسة التاجورية الى الآن . وله اعتناء زائد بنصرة المتفقرة وأهل الطرائق . هداه الله تعالى ووفقه الى الخير

روى الفقه عن أبي الحسن علي بن الشاهد نزيل جربة المالكي . وأخذ عن الفقيه أبي عبد الله محمد المشهور بأبي حافر وغيرهما

﴿ الشيخ سالم بن احمد بن قنونو ﴾

وممن تفقه في أيامه وارتحل لطلب العلم الى حضرة مصر الشيخ سالم بن أحمد ابن قنونو ولقي بها الأفاضل ، وأخذ عنهم العلم وآب الى بلده فعمر بها مدرسة بازاء منزله ، وبالغ أمير المؤمنين في اكرامه ومراعاته حتى انتفع به الناس . وهو مقيم على السنة لا يترخص

﴿ الشيخ محمد بن عبد الله بن احمد بن غلبون ﴾

وممن تفقه بها ولم تكن له رحلة لطلب العلم عنها الفقيه الفهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن أحمد بن غلبون تفقه بالوافدين عليها وأخذ عن أخيه أبي عبد الله محمد بن محمد بن مقيل وأبي عبد الله محمد أبي حافر ، وعن العالم الفقيه الأديب أبي محمد عبد العزيز بن عبد العزيز بن أحمد مروان ، والفقيه أبي عبد الله محمد بن مصطفى الماعزي وجماعة ، وكان ذلك في مدة أمير المؤمنين

﴿ الشيخ أبو عبد الله محمد بن العربي ﴾

وممن تفقه في أيام أمير المؤمنين وارتحل عن الوطن لطلب العلم وخيم له بارض مصر وجال فيها والحرمين الشريفين الفقيه الأديب العالم الشريف أبو عبد الله محمد بن العربي بن محمد بن حمودة بن الصغير الهاشمي . وارتحل الى مصر ولقي بها الافاضل وأخذ عنهم ، واشتغل بالعلوم وتفقه فيها كلها . وله باع واسع في الأدب ورقة ولطافة زائدة ، وله القصائد المشهورة البلاغه . فمن قصائده لما قدم الوطن ، وقدم دار الملك وغمط بعضهم حقه قوله :

ألاهل ترى العينُ الا لى قبل ودّعوا ... وهل سيل اجفاني التأرق والهمع
وهل تبلغاً نفسي الاماني برهة ... وهل يُسرج الاحلاك من ليلنا شمع
أو الموت أدنى من لبانة قاصد ... يسامره جنح الدجى السهر والدمع
بلى ان دهري والم بتبددي ... الى الله أشكو من زمان به ولع
فمالي وللافراح من بعد جيرة ... تقضي بهم رشدي وأعوزني الجمع
لقد سئمت نفسي الحياة وطولها ... تساوى لدي القبر والسوق والربع
ولا سيما في منبر الجهل هذه ... فكل سليم الذوق ضاق به الذرع
فلولا الامير المرتضى لم يكن لها ... سجيس الليالي (١) في خواطرنا وقع

ولما بلغ أمير المؤمنين تلهفه وضيق ذرعه بما قال أمر باعطائه بيتاً بتربة الامير محمد باشا فاعطيه ونزل به ، وأقام بالمسجد يقريء العلم ، واشتغل عليه الناس نفع الله به آمين

وأنشأ حفظه الله يمدح أمير المؤمنين معللا نفسه فقال :

الك الخير عرج بي على طلل الربع ... محط المنى مغنى الكمي المقنع

(١) اي طوالها ، كما تقول لاآتيك سجيس الدهر اي طوال الدهر

وكن خالعاً نعليك بين مرابع ... مقدسة تبلغ مناك وترفع
هناك المنى والعز حيث تقطعت ... تمائمه والمجد منك بمسمع
بصادحات الورق تسجع في الضحى ... تنادي هديلا بين أدواح أجرع
يحاكينني اذ شط عني وليهم ... وقد خلفوا جمر الغضا بين أضلعي
وبت ببلبل نابغي كانني ... ظعينة شرك [1] فرخها وسط بلقع
وأحزانُ يعقوب تسربلت درعها ... وحيك فراشي من سلالة أدمعي
وزهرُ رياضٍ مائس بين جدول ... به الماء منساب الى كل ممرع
يحاكي جنا ورد نديّ بوجنة ... فباه بفضح في صدور ومشرع
فماذا عليهم لو أباحوا اجتناءه ... لمقلةِ صب مدمن السُّهد مصرع
وعيناه قد أعماها كثرة البكا ... فديمتها تهمي على كل مربع
تحاكي نوالا لاح من كفّ أحمد ... يقسمه ما بين كهل ومرضع
على الغيث شبه من نداه كأنما ... يمر يداً فوق السحاب المرفع
ألا فاعجبوا من أربع وملاعب ... سحائب سيب منه ليس بمقلع
ولم لا يكون الوردُ موطيء أرجل ... تجاورها من كل شهم سميدع
أديب أريب فاضل متعفف ... نجيب حسيب عالي القدر أروع
أقول لأصحابي عليكم بأحمد ... أفاد فجاء بالحياء المنوع
فكم أضحك المحزون من نقش رسمه ... وأبكى جريئاً بالشكاسة مولع
أتيت وجيش الهم جر خميسه ... فتقهر جبناً من حسام مروع
اليك أبا الامداد حنت مطيتي ... وآمالها سفن وجسمي بموضع
لها منك حاجات وفيك فطانة ... سكوتي بها أولى لكم من توجعي

---

(١) يقال لمرأة « ظعينة » مادامت في الهودج شبه بها عصفورة وقعت في شرك ، والبلقع والبلقعة الارض القفر التي لاشيء بها

﴿ الشيخ أبو عبد الله محمد بن العربي ﴾

وممن تفقه في أيام أمير المؤمنين وارتحل عن الوطن لطلب العلم وخيم له بارض مصر وجال فيها والحرمين الشريفين الفقيه الأديب العالم الشريف أبو عبد الله محمد بن العربي بن محمد بن حمودة بن الصغير الهاشمي. وارتحل الى مصر ولقي بها الافاضل وأخذ عنهم، واشتغل بالعلوم وتفقه فيها كلها . وله باع واسع في الأدب ورقة ولطافة زائدة، وله القصائد المشهورة البلاغه. فمن قصائده لما قدم الوطن، وقدم دار الملك وغمط بعضهم حقه قوله:

ألاهل ترى العينُ الالى قبل ودّعوا ... وهل سيل اجفاني التأرق والهمع
وهل تبلغاً نفسي الاماني برهة ... وهل يُسرج الاحلاك من ليلنا شمع
أو الموت أدنى من لبانة قاصد ... يسامره جنح الدجى السهر والدمع
بلى ان دهري والم بتبددي ... الى الله أشكو من زمان به ولع
فمالي وللافراح من بعد جيرة ... تقضى بهم رشدي وأعوزني الجمع
لقد سئمت نفسي الحياة وطولها ... تساوى لدي القبر والسوق والربع
ولا سيما في منبر الجهل هذه ... فكل سليم الذوق ضاق به الذرع
فلولا الامير المرتضى لم يكن لها ... سجيس الليالي(١) في خواطرنا وقع

ولما بلغ أمير المؤمنين تلهفه وضيق ذرعه بما قال أمر باعطائه بيتاً بتربة الامير محمد باشا فاعطيه ونزل به، وأقام بالمسجد يقريء العلم، واشتغل عليه الناس نفع الله به آمين

وأنشأ حفظه الله يمدح أمير المؤمنين معللا نفسه فقال:

لك الخير عرج بي على طلل الربع ... محط المنى مغنى الـكمي المقنع

(١) اي طوالها، كما تقول لاتيك سجيس الدهر اي طوال الدهر

وكن خالعاً نعليك بين مرابع　　مقدسة تبلغ هناك وترفع
هناك المنى والعز حيث تقطعت　　تمائمه والمجد منك بمسمع
بصادحات الورق تسجع في الضحى　　تنادى هديلا بين أدواح أجرع
يحاكينني اذ شط عني وليهم　　وقد خلفوا جمر الغضا بين أضلعي
وبت بلبل نابغى كانني　　ظعينةُ شرك (١) فرخها وسط بلقع
وأحزانُ يعقوب تسربلت درعها　　وحيك فراشي من سلالة أدمعي
وزهرُ رياضٍ مائس بين جدول　　به الماء منساب الى كل ممرع
يحاكي جنا ورد نديّ بوجنة　　فباه بفضح في صدور ومشرع
فماذا عليهم لو أباحوا اجتناءه　　لمقلةِ صب مدمن السُّهد مصرع
وعيناه قد أعماها كثرة البكا　　فديتها تهمي على كل مربع
تحاكي نوالا لاح من كفّ أحمد　　يقسمه ما بين كهل ومرضع
على الغيث شبه من نداه كانما　　يمر يداً فوق السحاب المرفع
ألا فاعجبوا من أربع وملاعب　　سحائب سيب منه ليس بمقلع
ولم لا يكون الوردُ موطيء أرجل　　تجاورها من كل شهم سميدع
أديب أريب فاضل متعفف　　نجيب حسيب عالى القدر أروع
أقول لأصحابي عليكم بأحمد　　أفاد فجاء بالحياء المنوع
فكم أضحك المحزون من نقش رسمه　　وأبكى جريئاً بالشكاسة مولع
أتيت وجيش الهم جر خميسه　　فقهقر جبناً من حسام مروع
اليك أبا الامداد حنت مطيتي　　وآمالها سفن وجسمي بموضع
لها منك حاجات وفيك فطانة　　سكونى بها أولى لكم من توجعي

(١) يقال للمرأة ، ظعينة ، مادامت في الهودج شبه بها عصفورة وقعت في شرك ، والبلقع والبلقعة الارض القفر التي لا شيء بها

متى تعلم الايام والدهر مدحقي لكم ترعوي عني وترني وتخضع

وله غيرها من القصائد زاده الله تعالى نباهة ونفع به وبأصله ، وأرشد أمير المؤمنين لمد النظر اليه فانه أولى الناس بنظاره وأحقهم به

وتفقه في أيامه خلق كثير ممن لم تكن لهم رحلة ولا كثرة رواية ، واقتصرنا على ذكر المشاهير منهم ، وكلهم مراعون لديه مكرمون

فان قلت : هذا أبو محمد عبد العزيز بن عبد العزيز مروان من أجل الطلبة وأعلاهم سنداً في العلم ومنزلة في النسب قد حل به منه ما حل . قلت : هو منه في سعة على ما ثبت من الطلبة فيه ، فما أخذه الا بما جنته يده بشهادة العدول ، وهبه أنه لم يكن : كفى المرء نبلا أن تعد معائبه

ومن مراعاته لجناب العلم الذي به حفظ مباني الشريعة جمعه العلماء بين يديه لفصل الخصومة ، وتصريحه لهم بالمجلس : احكموا بحكم الله ولو عليّ ، وقبول شفاعتهم فيما شفعوا فيه في غالب الامر

فقد وقع لكاتب هذا معه عدة وقائع شفعه فيها : منها أنه أرسل — اكرمه الله سنة ست وثلاثين ومائة وألف في الخريف يطالب أرباب البيوت والمحررين من وظيف المخزن بشيء من القمح على يد العمال ، فأتاه عامل مصراته بعد ما وظف على كل من أهل البيوت ما يخصه من تلك الطلبة ، وكان ممن كتبه بطالبة [1] بعض اقاربي ، فلما ناوله التوظيف فاذا فيه بنو غلبون بكذا ، فأمره — أكرمه الله وأعزه — بمحو ذلك . وكان العامل شرس الاخلاق بليد الطبع فقال : غيرهم من أهل البيوت مثلهم فأمر بتنقيص الطلبه مراعاة لجانبي ومكانتهم فقال : ان اعتقدتم أن لهم بمحمد قرابة فليس لهم به قرابة، وانما يجمعهم نسب بعيد ، فقال : هم قوم حررناهم اكراماً لفلان وكان له غرض في تفريعهم . فقال ياسيدي ان لم

(١) الطلبة بكسر اللام : الشيء المطلوب

يعطوا ارتفعت الطلبة عن غيرهم وأتوكم ، فما زال يردد ذلك عليه وهو أكرمه الله - يلين لكثرة المراجعة حتى خفف الطلبة ، ونبه على احترام الكاتب [١] واخوته ، فألقى له العامل ان فلانا يأتي شافعاً ، وما زال يردد ذلك حتى صدر منه أمر انه لا يقبل شفاعتي. ثم قدم العامل البلد . ولما قدم الينا أرسل الي رسولا يطالب بتلك الطلبة ، فأخبرت الرسول بأني أحضر اليه في غد وأنا قادم على حضرة أمير المؤمنين ان شاء الله . فلما حضرت عنده وأنا على اهبة السفر خاطبني بأني ارسلت اليك لتحضر لي طلبة امير المؤمنين في ملأ من الناس ، فأخذته لأختلي به فكأني - من شراسة اخلاقه - ارسلت عليه افعى ، فأغلظ في القول وقال : انه لا يترك شيئاً ، ولا بد له من ذلك ، وكانت له علي ضغينة . وذلك ان اهل الذمة الذين بمصراته ارادوا احداث كنيسة ، فبلغني بعض الطلبة ذلك ، وكان العامل بالبلد يومئذ غيره ، فحضرت عنده وبالغ في التلطف معنا والاحسان جزاه الله خيراً ، واخبرته بما فعل اهل الذمة من احداث كنيسة في بلاد الاسلام فأجاب ان خبرها معه ، فقلت كيف يسعكم في دين الله وأنتم نواب امير المؤمنين ان تحدث كنيسة في ارض اخذها المسلمون عنوة من يد من ليس بها الآن من العدو ، وهم طارئون عليها ، فالاجماع منعقد على عدم احداثها ، بل وهدم كنيستهم التي زعموا قدمها ، قال فكنت متوقفاً بحيث اذ أمكنتوني ذلك أتولى هدمها بنفسي ، فهدمها وهدم الاصلية التي زيدت هذه عليها . فرفع اليهود أمرهم الى أمير المؤمنين وأخبروه أن الموقع بهم هذه ابن غلبون . فسأل أبا محمد عبد العزيز مروان عن حكم الله فيها ومن حضره من العلماء ، فأفتوه بالمنع فاغرض عنهم ، فراسلوا بعض من ينسب الى العلم من أهل تاجوراء فأفتوه بجواز ترميم ما وهى من كنيسة الصلح ، فاستغاثوا ببعض الحاشية ومنهم العامل المذكور ،

(١) يعني المؤلف نفسه

وراجعوا أمير المؤمنين وأطلعوه على النص وهو غير عالم بالفروع ، فكتب للعامل بهدم منهم من بنائها ، وأرسل بذلك رسولا وحرضه الشافعون لهم بالوقوف هنالك حتى تبنى . فلما حضر الكاتب بين يدي العامل وهو « علي » الملقب « شمار » لم يجد بدا من موافقة الأمر ، فبنوها . فلما قاربوا الاتمام رجع رسول السلطان الى الحضرة فانتدب لتخريبها طائفة من أولاد الجند الذين بحصراته ، فأخربوها ليلا وأصبحت رميا . فلما أخبر بذلك أمير المؤمنين سأل عن الحكم فيها فأفتاه أبو عبد الله محمد بن محمد بن مقيل ، وأبو محمد عبد العزيز مروان بالمنع ، فوشى الشافعون بي وأن هذا من فلان ، فلم يلتفت ـ أكرمه الله تعالى ـ لقولهم فاضطغنها العامل عليّ الى أن جاءت تلك الطلبة فيمن تعلق بي فظن أنه يطفيء بها ما يجد من حرارة هدم كنيسة أحدثت في دار الاسلام . فخاطبني بالفاظة ، فلما رأيت منه ذلك أعرضت عن محاورته وسألته كتاب أمير المؤمنين فاذا هو يتضمن احترامي والنهي عن دنو ساحتي ، فركبت فرسي ونهضت من عنده الى الحضرة العلية . فلما مثلت بين يديه انشدته أبياتا فقلت :

سيدي نصرة الضعيف وغوث للفقير اذا الظلوم قلاه
رحمة يرتجى نوائل فضل من يمينك من أراد غناه
أحمد بيتك المكرم عز كيف يخشى العناء من يغشاه
ناظم القول جاركم ومحب قد أناط ببابكم رجواه
يرتجي نصرة وغرفة فضل من نوال وأن تكفوا عداه
خادم العلم في جناب الامير منه دوماً بدعوة ما نساه
تقتفى رفعة وشامخ عز في هناه وأن ينال مناه
ابن غلبون قد أتى من بعيد زائراً حسن ظنه قد دعاه

أن يكون شفيع قوم اليه نسبوا دنية ومنهم ولاه
قد أتاهم حديث عز مريد منهم بعض طلبة ورواه
قائداً ليته يكون رفيقاً بالفقير وربما قد هداه
وقت عدم لما أردتم وانتم نيل جود وفيضكم فرجاه

فلما أنشدته الأبيات قال: قد شفعنا كم وأمر بكتاب للعامل برفع يده ان لم يأخذ، وبالرد ان أخذ. فوافاه الكتاب وقد أخذ البعض فرده من بيته. وأمر بالاقامة بجواره، فأقمنا بجواره في كرامة وجبر زائد، وأمر بحضور المجلس مع العلماء لفصل الخصام بحضرته أياما فلم أجد فيه أنصف منه، ثم خرج الى التنزه في رياض الربيع، فلما جئته للوداع أشار بالحضور معه، فبقينا بعده في البلد ثلاث ليال، ثم خرجنا وصحبتنا أخونا الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الله غلبون، وأخونا أبو محمد عبد العزيز بن عبد العزيز مروان، والاديب محمود ابن قاسم الخفاش، فوافيناه عشية بوادي المجينين في متنزه أنيق ورياض نضره فلما رآنا ظهر السرور على وجهه وبالغ في السؤال عن الحال، وأخبرنا أنه رأى بضحى ذلك اليوم أن قائلا قال له: أنت تلام على عدم حضور العلماء معكم وقت خروجكم، وها هو ابن غلبون قدم عليكم، وخيرنا في النزول ففوضنا الامر اليه، فاختار لنا فسطاط كاتبه الاديب الاريب البليغ الفاضل صاحب قلمه الكاتب « قاسم بن أحمد بن رمزون » وأمر لنا بفرش وغطاء، وأقمنا بجواره في كرامة أربعة عشر يوماً لا يحضره طعام الا أحضرنا وآنسنا عليه، ويخاطبنا بما يزيل الاحتشام، ولا يرفع يده الا بعد تحقق كفايتنا وربما عزم على من يراه منا محتشما فجزاه الله خيراً، ما أرق خلائقه وألطف شمائله

ثم لما عزم على الرجوع الى دار المملكة أحضرني وقال قد فرضنا لكم في العطاء، ففرض لي ولابن عمي فيه، تقبل الله عمله، واحضره له متقبلا « يوم

تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا و ما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيداً »

ومن شمائله الكريمة التي بها تأيدت السنة ما فعله معي لما نزلت ببلدنا سحائب هي فرع سحائب عاد لا أعاد الله مثلها في صفر سنة تسع وثلاثين ومائة وألف أخربت البيوت ،وأهلكت المواشي ومما هدمته زاويتنا التي بنيناها في أيامه السعيدة لقراءة العلم ودرس السنة ، ومسجد محمود خازن دار الذي ابتناه بقريتنا وجعل نظره لبني غلبون ، وعظمت على كافة البناء فتوجهت الى الحضرة العلية وأخبرته بما فعلت الايام بنا ، فأزال عني جورها وأمدني بما سددت به ما دثر منها ، أعانه الله على ما أولاه

ومثل هذا ما فعل مع أبي الحسن علي بن عبد الصادق لما هد السيل زاويته التي بساحل آل حامد . وكم له من مكرمة من هذا القبيل وفقه الله وأعانه

وأما حلمه فهو أحنف وقته ، لم ينقل عنه عدو ولا صديق أنه أظهر غضباً قط ولو رأى أو سمع كل المغضبات

وأما حياؤه فحدّث عن البحر ولا حرج ، حتى أفضى به الى أنه يبرم الأمر فاذا رأى المبرمَ عليه استحيى ونقض ما أبرم ، فرماه من لم يطلع على أخلاقه الكريمة بعدم الوفاء بالعهد ، وقطع بأن ذلك سليقة لا لموجب . ولو علم أخلاقه لما ظن ذلك ولا توهمه

وأما تأييده للاسلام فأمر يشهد به عمله : من ذلك وقفه على سور البلد أوقافا كثيرة يفوق ريعها في العام على ألف وخمسمائة أو أقل بقليل . واجراؤه الماء للمدينة لنفع أهلها على حنايا لم يسبق بها ، وايقافه عليها ما يقوم بها . ومن ذلك السوق الجديد الذي بازاء خندق القصبة من جهة الشمال ، وهو سوق فسيح الفناء أنيق المنظر والمبنى ، وكان بناؤه سنة ست وثلاثين ومائة وألف .

و بنى بالقلعة بيوتاً ومقاصير أنيقة وجدد ما وهي منها وقد كانت قبله خرابا . وهو الذي جدد الباب للخندق الغربي الكائن بين سوق الخضرة والحدادين . و بنى المخازن التي على يمين وشمال الداخل منه الى القلعة و بنى الحاجز بين القلعة ومجلس قائد الخندق ، حتى منع الداخل لغير حاجة . و بنى «الفسقية» لسقي أهل السفن على ساحل البحر التي لحق نفعها المسلم وغيره من غير تعب . و بني الحواصل التي على يمين داخل القلعة من الباب الموصوف الملصقة بسور المدينة تجاه القلعة ، و غير ذلك من مهام المسلمين . وكل هذا مع ضيق يده و كثرة شكاة الفقراء اليه فتجده في مراعاة الصلاح يشتد في جباية الخراج و ربما استعجله ، فرماه من لم يدر حاله بالجور ، أعانه الله و وفقه

ومن شدة حلمه تجرأ العمال على الرعية فيزيدون شيئا عليهم لم يدره وتأتيه الرعية فيقبل قولهم فيستشفع العمال بمن يليه فيحلم عليهم فيظن غير الخبير بأحواله أنه راض . وقد شاهدته مرارا يصرح بأن الرعية ثقل عليها المغرم وانه لم يجد سبيلا لرفعه عنهم للحاجة . فقلت ان ذلك من جور العمال وادراجهم في الضرائب مالم يكن لازما ، فيقول السلطان لابد له منهم وهم كدعائم البيت جزء منه ، ويتملل بالحياء وهو كما قال ، لما شاهدناه من حيائه . وقد كان أرسل كاهيته (حسن الاحمر) في شعبان يطلب من العمال شيئاً يستعين به على مصلحته فلما حل ببلدنا يطلب عاملها في ذلك وهو إذ ذاك (سالم بن خليل الادغم) تعلل له بضيق اليد وأنه لم تقم به أجرة عمله المفروضة له على الرعية ، واستشاره في أن يأخذ ذلك من المحررين من الوظيف ففوض له الامر فأول من قصده بالسوء جماعتي وأهل حمايتي لمنافاة طبعه طبع بني آدم ، لما عليه أصحابنا من مداومة طلب العلم ولما كان يسمعه مني من النصيحة حين اجتماعي به من جهة السرف في الخراج [فيخيل لمن ذهب تمييزه [1]] ان ذلك مني بغضاً له . فكتب على لسان

(١) كانت بالاصل (يظن لذاهب ميزه الاصلي) وهو تركيب فاسد

الكاهية وأرسل لهم يطلبهم ، وأمر رسوله أن يأتيني ، فوافاني أقرىء الدرس عشية وأنا بالمسجد فدخل يتخلل الطلبة حتى انتهى اليّ فناولني كتابا فيه خطاب عام ، فقلت له غيري المخاطب ، فقال أمرني سالم أن أدفعه اليكم على أي حالة كنتم ، فلاطفته الى أن توجه وقفوت أثره حتى أتيت الكاهية وقت صلاة المغرب فوجدته بخباء معد له خارج بيت العامل فجئته فحياني كعادته وأحضر طعاما بين يدي الكاهية فدعاني اليه فجلست بازائه حتى تناول الطعام ثم سألته عن الطلبة أهي من أمير المؤمنين لخصوص هؤلاء القوم ؟ فقال ان أمير المؤمنين لم يعين أحداً وانما أرسل يطلب العامل بذلك وهو الذي عين ، فاستشفعت عند الكاهية فشفعني ، ودعا بالعامل وقال : انا قد شفعنا فلانا في من انتمى اليه ، فقال لا بد منه فأجابه الكاهية : انا شفعناه . فعربد في كلامه على مقتضى طبعه . فأمرني الكاهية بالمسير الى أهلي وقبل الشفاعة وأصبح عازما على الذهاب الى بادية تاورغاء ليقتضي من عمالهم مطلوبه فلما مضى وجه الي كتابا آخر على لسان الكاهية ومكنه من رسول لا يفقه قولا ، وتهدده ان لم يغلظ لي في القول ، فحضرني وأنا أقريء درس الفقه بعد أن انتهيت من تفسير آية كنت أقدمها أمام الدرس للتبرك بكتاب الله ، فتخلل الحلقة بغلظة وناولني الكتاب فلما قراته فاذا هو مزور على الكاهية فعلمت أنها من العامل لشراسة أخلاقه وغلظة طبعه لما يعلم من غيرتي على حلق العلم فيغيظني بذلك ، فأغلظ في القول فنهرته فانتهر ، وركب وركبت متوجهاً لامير المؤمنين فمررت بالكاهية وأعدت له الخبر ولما رآني متوجها الى الحضرة أخذ بيدي وعاب العامل ، وحضر عنده الرسول وعابه وكلمه بلسانهم وأنا لا أفهمه وقال له : انه احتقر الترك وحط منهم ، فخدعني بكتاب للقائد أرسله اليه بعدم مطالبته من انتمى الى فلان بشيء وان فعلت فلا تلومن الا نفسك ، واضطغنها علي حتى قدم على القائد واغتررت بجوابه وملاطفته ، فاتفق أن أعلم القائد أمير

المؤمنين بأني ضربت رسوله واهتضمت جنابه بملأ من الرعية لأحقره في أعينهم ويكون الكاهية شاهداً بذلك . فلما بلغ أمير المؤمنين ذلك ظن صدقهم فبعث يطلب من انتمى الي بمبلغ من المال ، ونبه في الكتاب على عدم قرب خدمي وإخوتي ومن اختص بناه فركب وهو مجمز وحضرني قبل أن أدخل حلقة الدرس فاستوقفني وأخبرني الخبر فسألت : من أمير المؤمنين أم منكم ؟ فقال من أمير المؤمنين ، فأجبت بالسمع والطاعة لما أراد بقتل أو غيره ، فقال بمال ، فقلت عامة ما علينا نعمه ناولني الكتاب ، فناولنيه ، فلما قرأته فاذا فيه التحريض على عدم قرب ساحتي فشكرت الله وأثنيت على أمير المؤمنين وعلمت أنها خدعة موجبها تصديق أمير المؤمنين كاهيته حتى أوقع بحاشيتي ، وخاطبت العامل بلطيف القول . فلما سمع من القول ما نافى طبعه ظن أني قلت له شراً فاخترط سيفه وضربني فحماني الله من شره ودفعت له الطَّلِبة وتوجهت الى الحضرة فلما قدمتها منعت الدخول يوما وحجبت عنها وعزمت على الانتقال ، ثم أتاني منه جواب لطيف وردَّ عليَّ ما دفعته عن حاشيتي ، وأمر بدخولي فحضرت بين يديه فلما شاهدته رأيت ماء الحياء يرشح من جبينه وتلطف واعتذر مما حلَّ بي من الروع فكان من جوابه : فمن يوم أن حللتم بجواري هل رأيتم مني ما تكرهون ؟ ألم أزدكم احتراما على ما لبيتكم من الاحترام قديماً ؟ ألم أفرض لكم من العطاء ؟ ألم أحرم زاويتكم على من يقصدها ؟ ألم أترك لكم وظيف ما تأخذونه من الاملاك الموظفة من أهل الخراج ! وردد على من نعمه مالا أستطيع أن أقابله الا بدعاء الله بمكافأته

فلما استتم ذلك أقررت له اقرار معترف ، فرأيت منه — أكرمه الله — أن تعدادها لا للمنة ، وانما هو ليشكر فيزيد . فلما اعترفت بها زاد في الانعام ووعد

بالزيادة في العطاء ، وعمل بمقتضى الأبيات التي كنت أنشدتها حين توجهي اليه وهي هذه :

جئناك للفضل فافسح يا أخاه ولا تدع من الفضل شيئاً للذي جاكا
هذا ابن غلبون من عودته كرما لدفع حادثة قد جاء يرجاكا
حلت به من عديم الذوق يحسبه من لم يخالطه انسانا ولا ذاكا
خاطبته بكتاب فيه مطلب ما ألفاظه عذبة شيمت بمعناكا
وقلت ان الذي للعلم نسبته ومن يليه فلا تعطاه خفاكا
تخالف الامر فيه بالاداء له وأنت تعلم من يؤذيه آذاكا
تريد اعزازه وهو يريد له ذلا فحينئذ في الملك ضاهاكا
بل استقل به لو كان شاركم لكان في بعض ما قد قلت راعاكا
ان تكفناه كفاك الله شر لظى وكان في جنة الفردوس مأواكا

فلما بلغته الأبيات رفع يده عن العمل وأكرم مثوانا . وهذا العامل واضرابه في الشكل والعقل احدى المصائب التي يعدها العقلاء على أمير المؤمنين لما يشاهدون من جماله ولطيف شمائله وسليم طبعه ، وزائد دهائه ، وهم على الضد من ذلك : من جفاء طبع ومنكر فعل وعدم تمييز فيما يصدر من لفظ ودراية بالسياسة كأنهم أصل البداوة ومنهم تفرعت ، وما دروا انه لا يقدمهم اختياراً ولكن لغلبة الحياء عليه وتصلبهم واستشفاعهم بمن لا يسعه رد شفاعته من نديم أو وزير فيوليهم رعياً للغير وهو مضطرب ، ولو خلي ونفسه لتنزه عن النظر اليهم فضلا عن خطابهم أو يصغي اليهم باذن أو يلون عمله . « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

لطيفة (١) حكى أن المأمون خلا بمجلسه يوما من الشاكين وأرباب الحوائج فدخل من دسكرة كان مختلياً بها فوجد بعض الناس ممن يتصفون بالكتابة فنظر الى صورة مهولة المنظر فاستنطقه فلحن فأمر باخراجه ، فتلطف اليه بالشفاعة فيه فقال : من أدخل هذا دار الملك قصد تكثير معايبنا . روح الحياء ان ظهرت كانت جمالا وان خفيت كانت أدبا ، وهذا لا أدب ولا جمال ، فأخرجوه ولام مدخله لوماً شديداً

وكم له من فضائل أبقاه الله تعالى موفقاً وأرشده لمعائبه بتداركها بالحسنات آمين

فمن فضائله الدالة على تأييد السنة ما فعله مع رجل شريف مرعشي منتسب للعلم وفد عليه صفر الكف ، فلما حل بجواره كفاه مؤنته وأقام في كفالته الى أن فارق حضرته فوصله بخمس مماليك ومائة دينار حمراء

وما فعله مع الفقهاء والعلماء : أبي الحسن علي المكناسي ، وأبي العباس أحمد ابن الصغير وأخيه محمد المكناسيين لما قدموا عليه صفر الاكف فرض لهم في العطاء ، وأقام لهم ما يحتاجون اليه من قمح ولحم وأدام حتى غدت أيديهم ملأى بالمال

وله السياسة الفائقة على سياسة كسرى فلذلك طالت أيامه وساد ذكره حتى صار جداً في الملك

وله أولاد أنجاد ثلاثة : الأمير محمود باي صاحب ولاية برقة والأمير يوسف باي صاحب الخيل بين يدي أبيه ، والامير محمد باشا

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يهدى بها الساري

وفقهم الله وأرشدهم ، لهم زائد لطف ورقة وشدة تواضع ، لم يؤثر عنهم تجبر

(١) مناسبة ذكر هذه اللطيفة ان عامل احمد باشا عنده من سوء الاخلاق ودمامة الوجه ما يستوجب طرده لولا الواسطة مثل ما طرد المامون ذلك الرجل لجهله ودمامة خلقه

ولا غلظة ، مقتفون أثر والدهم أقر الله عينه بهم وخلد ملكهم وجعل منهم للاسلام خلفاً موفقاً آمين

وأما حسن صحبته لعبيده وحاشيته فهو في الغاية التي لم تؤثر عن ملك سوى القليل كالمعز بن باديس ومحمود بن زنكي ، ومع هذا اذا كان لاحد قبلهم حق شرعي ألزمهم الوقوف معه للشريعة ، فاذا لزمهم الحق أدوه . ولو تتبعنا فضائله لعجز القلم عن الحصر . وفيما ذكرناه كفاية والله ولي التوفيق وهو المؤمل في اتمام النعمة عليه والختم له بالسعادة والله على كل شيء قدير (١)

تنبيه — لم يذكر المؤلف متى انتهى من تأليف كتابه هذا . وقد ذكر بعد هذا خاتمة تشتمل على فائدتين : الاولى في حقيقة الملك وتوابعه ، والثانية فيما يحتاج اليه الملك من أعوان وسياسة . وقد ذكر في هذه الخاتمة احاديث كثيرة نحو ٤٠ صفحة كلها تتعلق بفضل الرباط والمرابطين ، ومكائد الحرب وتعبئة الجيوش ونحو ذلك مما لا علاقة له بالتاريخ مطلقاً ، لذلك رأينا عدم ذكرها . وقد ذكر المؤلف أثناء هذه الاوراق الكثيرة نبذة لا بأس بذكرها (٢) ، وهي :

وقد ذكر بدر الدين العيني في تاريخه أن حد افريقية من الشرق قصر أحمد قرية هي آخر عمل افريقية ومنها تدخل البرية الى برقه ، وحدها من الغرب طنجة كذا ذكر البكري حدها من جهة الغرب وذكر أن عرضها من البحر الى الرمال

---

(١) وجدت بطرة الاصل هذه العبارة : وتولى الملك ثلاثا وثلاثين سنة واربعة اشهر . وتوفي رحمه الله سنة سبع وخمسين ومائة والف وتولى ابنه محمد باشا

(٢) هذه النبذة من شرح قول الناظم :

رويدا فلا تعجل بذمك للتي تباهي بها الاسلام من غزواتها

وقد وجدت في شرحه بياضا بالاصل يسع احد عشر سطرا وقد ذكر المؤلف ما يدل على انه ذكر احاديث تدل على فضل طرابلس وقد شطبت في هذا البياض فحذفنا ما يتعلق بها مما وجدناه مكتوبا لانه غير منسجم

التي هي أول بلاد السودان وهي جبال رمل عظيمة ومتصلة من المغرب الى المشرق وبها يصاد الفنك الجيد . فاذا علمت هذا فاعلم ان طرابلس من افريقية والعيان شاهد لذلك . واشتغال أهلها بالجهاد براً وبحراً أشهر من أن يذكر ، فجهادها بحراً في الروم وفي البر في محاربي الاعراب

وقد نص مالك وغيره من أصحابه الا ابن حبيب على ان جهاد المحارب أفضل من جهاد العدو وان ورد النص بمزية الثاني عن الاول اذ المزية لا تقتضي الافضلية

قال الناظم :

فلا تهج أمّاً للثغور حنونة كفاها مديحاً عدكم هفواتها

الألف واللام في الثغور للعهد ، والمعهود هنا ثغور المغرب . واموميتها لها من حيث أنها أول ثغر فتح فيه بلاخلاف بين المؤرخين ومنها افتتحت ثغوره في الاصل . وحنانها من حيث جمعها من أمور المعاش مالم يجمعه غيرها : فقد جمعت النخل والزيتون والتين والكرم والحرث فلا يستولي على أهلها قحط بخلاف غيرها من بلاد المغرب [وما ذكرناه من أنواع الشجر] قائم لاهلها مقام النيل من حيث الوثوق بخصبه بل هو أقوى

ويكفي أعاليها من الفضل انها رباط لمن قد قام في حجراتها

ثم ساق في فضل الرباط من الاحاديث الشيء الكثير

والى هنا انتهى ما ذكره ابن غلبون بشأن التاريخ ، والله يتولاه برحمته ، ويجازيه عن عمله هذا أحسن الجزاء

هـذه قصيدة الأديب الفاضل الشيخ أحمد بن عبد الدائم

الانصارى الطرابلسى

وهي القصيدة التى انشأها في مدح طرابلس ردا على ما وصفها به العبدرى فى رحلته من أوصاف لا تتفق مع الحقيقة (١)

وقد شرحها الاستاذ أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون ، وسمى شرحها التذكار ، وهو كتابه هذا . قال الاستاذ احمد بن عبد الدائم :

أرى زَمِنًا قد جاء يَقْتنصُ الْمَهَا ... بلا جارح والاسدُ فى فَلَواتِها

رأى القَيْضَ مُبْيضا بِزبلة الحمى ... فقال كَفانى إنه من صفاتها

أتى أهلَه يَهْوى وبشّر أنه ... بربقة من ظبيانها ومَهاتها

فألقى قشوراً باليات وقد رمى ... بدائه أربابَ الحجى من نُهاتها

كمن رَامَ أنْ يُبرى العليلَ بحَيّة ... وزارع شوك يرتجى ثمراتها

الا أيهـا النحرير مَهْ عن مَذمّة ... فما فى الأوان بان من قطراتها

طرابلسٌ لا تقبل الذمَّ انهـا ... لها حسناتٌ جاوزت سيئاتها

اذا أمَّها من قد نأته بلادُه ... وأوحشه ذُو أمرها من حُماتها

تطأمنَ عن نفس ومال وعشرة ... ويضحى بعزٍّ ما ثوَى بجهاتها

فكم من دُيُور أخربت وكنائس ... وكم من حصون حُوصِرت بسراتها

وكم من بلاد للصليبيِّ مركز ... أحاطوا بها ليلاً فأفنوا طغاتها

وكم من جوارٍ للكوافر ضيقت ... على سفُن الاسلام من نفحاتها

(١) انظر صفحة ١

قد أضحت عرساها أسيرةَ فلكها ... وعسكرها في جيرها من حفاتها

وكم من أُوَيْسيّ بها ذي معارف ... وكم من جُنَيْدِيّ على شرفاتها

بها فضلاء ما الفضيلُ يفوقهم ... فوارس انجادٌ وهم من حُماتها

قد اختارها الزروق دارا وموطنا ... كذا ابنُ سعيد مُقتدٍ بهداتها

تواترت الاقطابُ تترى بارضها ... وكم سيد رام المقامَ بذاتها

بها علماء عاملون بعلمهم ... خمول عن الاظهار في خلواتها

ولم تر غشا قط من جم أهلها ... ولا قسما في بيعهم من جفاتها

اذا حان وقتٌ للصلاة رأيتهم ... سراعاً وخلّوا الربح في عرصاتها

رويدًا فلا تعجل بذمك للتي ... تباهي بها الاسلام من غزواتها

بها ملك أندى من السحب راحة ... وأرأف بالاغراب من والدتها

له همةٌ تعلو لتأييد سنّة ... بحفظ مبانيها وجمع رُواتها

لَعَمْرُك تلقى سوء قصدك عاجلا ... وتسلبُ نورَ العلم من بركاتها

فتب وانتصح لله ان كنت عارفا ... ودعْ سوءَ ما أبديته من صفاتها

فلا تهج أمًّا للثغور حنونة ... كفاها مديحًا عدكم هفواتها

ويكفي أهاليها من الفضل انها ... رباطٌ لمن قد قام في حجراتها

فجاءتك يا شرقيُّ تسعى فراعها ... وكن منصفًا ثم اجنِ من ثمراتها

وصلّ وسلم يا الهي على الذي ... نهى عن حظوظ النفس مع شهواتها

انتهى

فهرس التذكار

تصحيح

وقع في صفحة ٢٤ سطر ٩ كلمة « اتبعت الرقم » وهي خطأ . وصوابها « ابنة الرقم » — وفي صفحة ١٤٣ سطر ١٤ كلمة « ضرك بضاد مهملة » وهي خطأ صوابها صرك بصاد مهملة » ـ وفي هذه الصفحة سطر ١٦ « بصاد معجمة » وهي خطأ ، وصوابها « بصاد مهملة »